الجامعة الأردنيـــة
كلية الدراسات العليا

التاريـــخ: / /

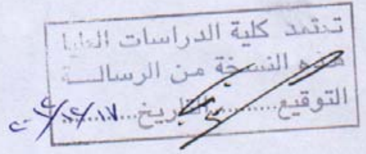
نموذج رقم (١٦)
اقرار والتزام بالمعايير الأخلاقية والأمانة العلمية وقوانين الجامعة الأردنية وأنظمتها وتعليماتها لطلبة الدكتوراه

أنا الطالب: سماح العنزي الرقم الجامعي: (٩٠٩٠١٩١)
تخصص: اللغة العربية وآدابها الكليـــة: الآداب

عنوان الاطروحة: التجليات الحضارية في الشعر [illegible] في عصري [illegible]

اعلن بأنني قد التزمت بقوانين الجامعة الأردنية وأنظمتها وتعليماتها وقراراتها السارية المفعول المتعلقة باعداد اطروحات الدكتوراه عندما قمت شخصيا" باعداد اطروحتي وذلك بما ينسجم مع الأمانة العلمية وكافة المعايير الأخلاقية المتعارف عليها في كتابة الأطروحات العلمية. كما أنني أعلن بأن اطروحتي هذه غير منقولة أو مستلة من أطاريح أو كتب أو أبحاث أو أي منشورات علمية تم نشرها أو تخزينها في أي وسيلة اعلامية، وتأسيسا" على ما تقدم فانني أتحمل المسؤولية بأنواعها كافة فيما لو تبين غير ذلك بما فيه حق مجلس العمداء في الجامعة الأردنية بالغاء قرار منحي الدرجة العلمية التي حصلت عليها وسحب شهادة التخرج مني بعد صدورها دون أن يكون لي أي حق في التظلم أو الاعتراض أو الطعن بأي صورة كانت في القرار الصادر عن مجلس العمداء بهذا الصدد.

توقيع الطالب: .... التاريخ: ١٣ / ١٢ / ٢٠١٢



التجليات الحضارية في الشعر الأندلسي

(عصر بني الأحمر)

إعداد

سعد بن ماشي بن عودة العنزي

المشرف

الدكتور حمدي منصور

قدمت هذه الاطروحة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الدكتوراه في

اللغة العربية وآدابها

كلية الدراسات العليا

الجامعة الأردنية

كانون أول، ٢٠١٢

الجامعة الأردنيــة
كلية الدراسات العليا

التاريخ: ٢٨/١٢/ ٢٠١٤

نموذج رقم (٢٥)
تسليم اطروحة دكتوراة جامعية للمكتبة

الدكتور مدير المكتبـة

تحية طيبة وبعد،،،

لقد ناقش الطالب / الطالبة: سعد عايش عوده العنزي ورقمه الجامعي: ٩٠٩٠١٢١

تخصص الدكتوراة: اللغة العربية وآدابها

يوم: الخميس الموافق: ٢٢ / ١١ / ٢٠١٤ وكانت النتيجة ناجحاً.

عنوان الاطروحة (باللغة التي كتبت بها الاطروحة)

التعليلات الصوتية في الشعر الأندلسي (دراسة وصفية)

نرجو استلام النسخة الورقية التي تمت الموافقة عليها في صيغتها النهائية من قبل المشرف ولجنـة المناقشة، ونسخة من الرسالة على القرص المضغوط (CD)، وذلك لإيداعها في المكتبة حسب الأصول.

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام،،،

المشرف	رئيس قسم التخصص أو نائب رئيس لجنة الدراسات العليا في كلية التخصص	نائب عميد كلية الدراسات العليا
التوقيع	التوقيع	التوقيع
التاريخ: ١٢/١٢/ ٢٠١٤م	التاريخ: ١٢/١٢/ ٢٠١٤	التاريخ: ١٧/١٢/ ٢٠١٤

مواصفات الاقراص المدمجة الخاصة بالرسائل الجامعية

- ان يضم القرص المدمج كافة المعلومات الواردة في النسخة الورقيه من الرسالة وذلك ضمن ملف واحد.
- ان يكون ترتيب الرسالة على القرص حسب ترتيب النسخة المطبوعة ورقيا.
- ان يحتوي القرص على صورة (save as jpg) عن اجازة الرسالة موقعة وموثقة من اعضاء لجنة المناقشة ومعتمدة من قبل الجامعة.
لتسهيل تفعيل الرسالة على شبكة الانترنت ضمن قاعدة الرسائل (Acrobat reader PDF)- تخزين الرسالة في ملف آخر على شكل الجامعية كاملة النص.
علما" أنه لن يكون بالامكان توثيق أي رسالة غير مطابقة للمواصفات المذكورة أعلاه.

قرار لجنة المناقشة

نوقشت هذه الدراسة "التجليات الحضارية في الشعر الأندلسي (عصر بني الأحمر" وأجيزت بتاريخ ٢٢ / ١١ / ٢٠١٢م.

أعضاء لجنة المناقشة		التوقيع
الدكتور حمدي منصور،	مشرفاً	....
أستاذ الأدب الجاهلي والأندلسي		
الدكتور صلاح جرار،	عضواً	....
أستاذ الأدب الأندلسي والمغربي		
الدكتورة آمنة البدوي،	عضواً	....
أستاذة الأدب الأندلسي والمغربي		
الدكتور يونس شنوان،	عضواً	....
أستاذ الأدب الأندلسي والمغربي		
(جامعة اليرموك).		

الجامعة الأردنية

نموذج تفويض

أنا سعد بن ماشي بن عودة العنزي، أفوض الجامعة الأردنية بتزويد نسخ من رســـالتي / أطروحتي للمكتبات أو المؤسسات أو الهيئات أو الأشخاص عند طلبهم حسب التعليمات النافــذة في الجامعة.

التوقيع:

التاريخ: ٢٠١٢/١١/٢٢م

الإهداء

إلى الرجل الذي كان معلّماً وهادياً بقدر ما كان أباً حانياً

" والدي "

إلى من أسأل الله دائماً أن يطيل بقاءها ويُلْبِسَها ثوب الصحة والعافية ويرزقني برَّها

" والدتي "

إلى رجالٍ من أهلي اشد بهم أزري

" إخوتي "

إلى مَن شاركتني أعباء الحياة وهموم الدراسة ومصاعب البحث

" رفيقة دربي "

إلى مَن تحمّلوا غيابي وانشغالي عنهم، وسامحوني بأوقاتهم من أجل هذه اللحظة

" أبنائي (مقرن – عبد العزيز – تركي – فَيّ) "

إلى هؤلاء جميعاً أهدي هذا العمل

الباحث

شكر وتقدير

أحمد الله تعالى وأشكره على ما أسبغ عليّ من آلائه العِظام، مِن إتمام هذا البحث وإكماله، فله الحمد أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً.

وأحق من تُزْجى إليه قوافل الشكر بعد شكر ذي الطول والإنعام، والدي الكريم، ومتّعه الله بالصحة والعافية، ورزقني برّه ورعايته، وأجزل الشكر والثناء أتوجه به إلى مَن طوّقني بحلمه وعلمه ورعايته، مَن لا يَملّ ولا يُمل، فلا ألقاه إلا متهلّلاً سمحاً، أستاذي الفاضل الدكتور حمدي منصور، الذي تفضل مشكوراً بالإشراف على هذه الأطروحة، ورعى البحث الباحث حقّ الرعاية، فاسال الله تعالى أن يجازيه خير ما جزى معلماً ومربياً عن طلابه، ويمتعه بالصحة والعافية، ويجعله ذخراً لخدمة لغة القرآن.

ولا يفوتني كذلك أن أشكر معالي وزير الثقافة الأسبق الأستاذ الدكتور صلاح جرار أستاذ الأدب الأندلسي والمغربي في الجامعة الأردنية الذي استفدت أول ما استفدت منه، علمه، وخلقه، وتواضعه الجمّ.

وأسوق الشكر كذلك إلى الدكتورة آمنة بدوي أستاذة الأدب الأندلسي والمغربي في الجامعة الأردنية التي فرغت من وقتها الثمين لمناقشة هذه الأطروحة.

كما أتقدم بجزيل الشكر والتقدير إلى الأستاذ الدكتور يونس شنوان أستاذ الأدب الأندلسي والمغربي في جامعة اليرموك الذي تكبد عناء السفر ومشاق الطريق لمناقشة هذه الأطروحة وتسديدها.

وفي الختام أسال الله تعالى أن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به، فقد حرصت على إخراجه في أكمل صورة، وأبهى حُلّة، فإن كان كذلك فبفضل من الله وحده، وإن كانت الأخرى فمن نفسي والشيطان، غير أني حاولت الإحسان قد الإمكان، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أُنيب.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الباحث

قائمة المحتويات

التجليات الحضارية في الشعر الأندلسي (عصر بني الأحمر)

إعداد

سعد ماشي العنزي

المشرف

الدكتور حمدي منصور

ملخص

تناولت هذه الدراسة الموسومة **بالتجليات الحضارية في الشعر الأندلسي (عصر بني الأحمر)** عصرا ازدهرت فيها الحضارة العربية الإسلامية، وهو عصر امتد زهاء مئتي عام من حكم بني الأحمر في بلاد الأندلس، فحاولت الدراسة أن تقف على أهم المظاهر والتجليات الحضارية التي امتازت بها تلك الفترة الزمنية كما صورها الشعراء في أشعارهم، بوصف الشعر القلب النابض لحياة الأمم والشعوب، ففيه تتجلى عاداتهم، وتقاليدهم، والأسلوب الذي كانوا يحيون فيه، كما أنه السجل التاريخي لإنجازاتهم.

وقد اشتملت هذه الدراسة على مدخل وأربعة فصول وخاتمة، أما المدخل فاشتمل على نظرة تاريخية عن هذا العصر، فتناول غرناطة، وهي عاصمة مملكة بني الأحمر من حيث حدودُها وطبيعتُها وكيف نشأت، كما تناول جوانب الحياة فيها؛ السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية والدينية.

أما الفصل الأول فقد تناول التجليات الحضارية في الحياة الاجتماعية، فتحدث عن العلاقات والروابط الأسرية من خلال صورة الأب والمرأة سواء أكانت زوجا أم أما، وكذلك صورة الجواري، وتطرق للحديث عن المثل والأخلاق والنظافة والحمامات، ثم انتقل إلى مظهر حضاري آخر، تمثل في عادة أندلسية اتخذها الأندلسيون في هذا العصر، تمثلت في التهادي بالورد.

وقد جاء الفصل الثاني مكملاً لمظاهر الحضارة في عصر بني الأحمر فتناول تجليات الحضارة في المهن والحرف، فعرج على أهم الصناعات والمهن والحرف التي عرفها المجتمع الغرناطي، حسبما وردت في أشعارهم فتناول مهنة الجزارة، والبناء والعمارة، والتعليم، والخبازة، والطب، والفلاحة، وتطرّق إلى الحديث عن الصناعات فتناول صناعة المنسوجات والنسخ والوراقة وصناعة الملابس، وكذلك الصناعات الحربية، وصناعة الخزف والحلي والعطور والزجاج.

أما الفصل الثالث فقد اختص بالتجليات الحضارية في العمارة، فتناول العمران في هذا العصر سواء المدني أو الديني أو الحربي، فتناول القصور، والحمامات والرياض والمدارس، ثم تناول العمارة الدينية، فتطرق إلى الحديث عن عمارة المساجد والكنائس والقبور، وأخيرا تناول العمران الحربي متمثلاً في القلاع والحصون.

واختتمت الدراسة بالفصل الرابع الذي تناول التجليات الحضارية في ميادين أخرى في المجتمع الغرناطي فتحدث عن الأطعمة والأشربة والملابس والزينة والعطور، وكذلك الجنائز والرياضات.

وتوصلت الدراسة إلى أن المجتمع الغرناطي في تلك الفترة بلغ من الحضارة في مظاهرها الشيء الكثير، فبدا مجتمعاً متحضراً في شتى ميادين الحياة، وقد تفاوتت درجات هذا التحضر حسب طبقات المجتمع، شأنه في ذلك شأن أي مجتمع بشري، تجد فيه هذا التفاوت في مستويات المعيشة ومظاهرها حسب الطبقة ومكانتها الاجتماعية.

أما شعر هذا العصر فكان هو السجلّ بحق لما يدور في أفلاك هذا المجتمع، من حيث تصويره، واحتفاظه بذاكرة عصر بني الأحمر الحضارية، إلا أن الدراسة وجدت أن هذا الشعر كان متفوقاً في تصويره للمظاهر التي تجلت في هذا العصر، فكلما اقترب المظهر الحضاري من القصر الحاكم أو السلطان تجد شعراً غزيراً، جاد به شعراء هم أنفسهم كانوا جزءا من دائرة الحكم في فترة من الفترات، وكلما اقتربت من العامة تجد أن الشعر بدأ يضمحل ويكاد ينضب.

وفي الختام يظهر هذا العصر من حكم المسلمين في بلاد الأندلس حضارياً بامتياز من خلال امتزاج جمالية المظهر الحضاري في ميادينه المتعددة بجمالية الشعر الذي صور هذا المظهر ليبدو في أجمل حُلّة.

المقدمة

الحمد لله العظيم الرحمن، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الإنسان، وعلى آله وصحبه الذين أطاعوا الله ورسوله بالإيمان، وبعد، فإن أهمية هذه الدراسة تنبع من سعيها إلى التعرّف على حياة أهل الأندلس في عصر بني الأحمر، وما وصل إليه الإنسان العربي في هذه المنطقة الجغرافية، وفي ذلك الزمن الماضي من معايير وأسس اجتماعية، وصناعية، وعمرانية، وغيرها، دلّت على رقيّه وتحضّره، وذلك من خلال الشعر؛ إذ يعد الشعر سجلاً هاماً مخبراً عن طبيعة الحياة في الأندلس وجوانبها المختلفة، فهو وثيقة تدعم بعض الحقائق وتنقل ما رآه الشاعر من حوله بعيداً عن المنفعة أو المصلحة.

ومما دفعني إلى هذه الدراسة أنّ أحداً لم يتطرّق _ في حدود ما أعلم _ إلى الكشف عن التجليات الحضارية في هذه الحقبة الزمنية ودراستها؛ إذ اهتمت معظم الدراسات بعصور الأندلس الأولى وأوفتها حقها من البحث والدراسة، وما جاء في بعض الدراسات من أشعار تصف جوانب الحضارة في عصر بني الأحمر، إنما جاء في معرض الحديث عن أغراض شعريّة أخرى كالغزل والرثاء، أو في الحديث عن الخصائص الفنية للشعر الأندلسي في عصر بني الأحمر.

وقد وجدت دراسات تناولت الحديث عن الحياة الاجتماعية ومظاهر الحضارة في الأندلس في عصر بني الأحمر، إلاّ أنها كانت دراسات تاريخية لم يتطرق الدارسون فيها إلى الشعر، مثل كتاب "غرناطة في ظل بني الأحمر" للدكتور يوسف شكري فرحات، وكتاب "مظاهر الحضارة في الأندلس في عصر بني الأحمر" للدكتور أحمد الطوخي.

أمّا دراسة د. حسن النوش "التصوير الفني للحياة الاجتماعية في الشعر الأندلسي" فقد صورّ فيها جوانب مختلفة من الحياة الاجتماعية في الأندلس، لكنه لم يف عصر بني الأحمر حقه من الدراسة، ولم يأت على ذكر كثير من الجوانب الحضارية في ذلك العصر.

وقد عرضت حسناء الطرابلسي في دراستها: "حياة الشعر في نهاية الأندلس" لبعض مظاهر الحياة الاجتماعية في عصر بني الأحمر، دون أن تفرد عنوانات محددة لجوانب الحضارة المختلفة.

وقد اتكأت في دراستي هذه واعتمدت على دواوين الشعراء في هذا العصر، وعكفت على قراءتها واستخراج الأشعار التي تصف مظاهر الحياة الاجتماعية، والاقتصادية، والعمرانية، والصناعية، وغيرها، في ذلك العصر. كما كان غيرها من مصادر الأدب الأندلسي مثل؛ كتاب المقري "نفح الطيب"، وكتاب لسان الدين ابن الخطيب "الإحاطة في أخبار غرناطة" خير معين لي في هذه الدراسة، إضافة إلى كتب التراجم.

ولا ينكر ما للمراجع والمصنفات الحديثة من فضل في إتمام موضوع البحث، ورفده بما من شأنه أن يضيء كثيراً من الجوانب الحضارية في عصر بني الأحمر.

ولكل دراسة علمية صعوبات وعقبات، فكان أهم ما واجهني منها، الإلمام بجوانب الحضارة كلها في عصر بني الأحمر، فهي جوانب متعدّدة يصعب أحياناً أن تضمها جنبات دراسة كهذه، ويذكر بعضها في الكتب والمصادر التاريخية دون وجود شواهد شعرية تؤكد وجودها في حياة الناس في عصر بني الأحمر، لذلك؛ اضطررت إلى ترك بعض الجوانب منها وعدم التعرّض لها. كما أنني نَبهتُ إلى الأمور التي لم أجد فيها مادة شعريّة تصفها، عسى أن تجد من تمكنه الظروف من الاطلاع على مصادر غير التي رجعت لها، فيجد فيها مادة شعرية تكشف ما غمض منها.

والصعوبة الأخرى التي واجهتني في هذه الدراسة أنّ الشعر الذي يصوّر جوانب الحياة الأندلسية في عصر بني الأحمر، ويكشف عن تجلياتها الحضارية، قد جاء في حالات غير قليلة ضمن قصائد طويلة متعدّدة الأغراض، وقد يبقى بيت أو بيتان شاهداً على التجليات الحضارية.

وقد اتبعت في دراستي هذه المنهج الاستقرائي الوصفي التحليلي، فعكفت على جمع المادة الشعرية من مظانها المختلفة، وطفقت أدرسها، وأصنفها، وأحللها، وأستخرج الشواهد الشعرية منها.

وقد جاءت هذه الدراسة في مقدمة، وتمهيد، وأربعة فصول وخاتمة.

قدّمت في التمهيد لمحة عامة عن غرناطة: حدودها ونشأتها، وعن الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية، لما في ذلك من أثر مهم في فهم صلة الشعر بالحياة العامة، ووصف جوانب تحضرها ورقيها.

وتناول الفصل الأول التجليات الحضارية في الحياة الاجتماعية من خلال الشعر، فتحدّثت عن العلاقات والروابط الأسرية في الشعر الأندلسي، وبينت تلك الصلة الحميمة التي نشأت بين أفراد الأسرة الواحدة، كما تحدّثت عن صورة الجواري في الشعر الأندلسي بوصفها مكوناً من

مكونات الأسرة الأندلسية آنذاك، وتناولت الحديث عن مثل المجتمع، وأخلاقه، وقيمه التي تجلت من خلالها حضارته ورقيه. ثم تحدّثت عن وصف الشعر عادة التهادي بالورد، واهتمام أهل غرناطة بالنظافة وارتيادهم الحمّامات.

أمّا الفصل الثاني، فخصصته للكشف عن التجليات الحضارية في الصناعات والمهن والحرف التي عرفها ومارسها أبناء المجتمع الأندلسي في عصر بني الأحمر، فتحدثت فيه عن صناعة المنسوجات، والصناعات الحربية، وصناعة الخزف، ومهن النسخ والوراقة، وما رافقها من صناعات، والجزارة، والتعليم، والفلاحة، وغيرها من المهن والحرف التي امتهنها أبناء المجتمع الأندلسي في عصر بني الأحمر، وكشفت عن كثير من جوانب تحضرهم وتطور مستوى معيشتهم، ثم ذكرت وصف الشعر الأندلسي لملابس أهل غرناطة وزينتهم وعطورهم، وكذلك وصفه للأطعمة والأشربة.

أمّا الفصل الثالث، فتناولت فيه الحديث عن التجليات الحضارية في العمارة، كالعمران المدني في هذا العصر، مثل؛ الحمامات والقصور والرياض والمدارس. أو الديني، مثل؛ المساجد والكنائس والقبور. أو الحربي، مثل؛ القلاع والحصون.

واختتمت الدراسة بالفصل الرابع الذي تناول التجليات الحضارية في ميادين أخرى في المجتمع الغرناطي، فاستعرضت فيه الأطعمة والأشربة والملابس والزينة والعطور، وكذلك التجليات الحضارية في الجنائز والرياضات.

وأنهيت الدراسة بخاتمة أجملت فيها أهم النتائج التي توصّلت إليها.

وفي الختام أتوجه بوافر الشكر وعظيم الامتنان لأستاذي الدكتور حمدي منصور لما أحاطني به من رعاية واهتمام، فأرشد ونصح وصوّب، فجزاه الله عني خير الجزاء.

والله ولي التوفيق فهو حسبي ونعم

التمهيد

غرناطة: (حدودها، طبيعتها، نشأتها).

- الحياة السياسيّة.
- الحياة الاقتصاديّة.
- الحياة الاجتماعيّة.
- الحياة الثقافية.
- الحياة الدينيّة.

غرناطة: (حدودها، طبيعتها، نشأتها):

يقال غَرْناطَة أو أغرناطة وهي اسمٌ أعجمي[١]، وقيل إنّ الصّواب أغَرناطة بالهمز، ومعناه الرُّمانة[٢]، وقيل إنها سميت بذلك لكثرة حدائق الرّمان فيها[٣].

وكان يطلق على غرناطة أيضاً اسم "دمشق الأندلس"[٤]؛ وذلك لأنّ جند دمشق نزلوها عند الفتح، وقيل إنما سميت بذلك لشبهها بدمشق في غزارة الأنهار، وكثرة الأشجار[٥].

حدودها:

لم تكن حدود مملكة غرناطة حدوداً مُستقرّة ثابتة، بل إنها كانت تتسع وتضيق حسب ميزان القوّة والظّروف الحربيّة والسياسيّة بينها وبين جيرانها[٦]. ولكن يمكن أن نرسم لها الحدود الآتية منذ قيامها على يد محمد بن يوسف ابن الأحمر في أواسط القرن السابع الهجري:

---

(١) انظر: لسان الدين ابن الخطيب، أبو عبد الله محمد بن عبد الله السلماني (ت٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م)، اللمحة البدرية في الدولة النصرية، ط٢، (تحقيق محب الدين الخطيب)، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٧٨م، ص٢١؛ الإحاطة في أخبار غرناطة، ط٢، ٤م، (تحقيق محمد عبد الله عنان)، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٣م، ج١، ص٩١.

(٢) انظر: المقري، أحمد بن محمد (ت١٠٤١هـ/ ١٦٣١م)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ٨م، (تحقيق إحسان عباس)، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٤م، ج١، ص١٤٧؛ ياقوت الحموي، ياقوت بن عبد الله (ت٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م)، معجم البلدان، ٥م، دار الكتاب العربي، بيروت، (د.ت)، ج٤، ص١٩٥.

(٣) انظر: الطوخي، أحمد محمد، مظاهر الحضارة في الأندلس في عصر بني الأحمر، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٧م، ص٤٨.

(٤) انظر: المقري، نفح الطيب، ج١، ص١٤٧.

(٥) انظر: المصدر نفسه، ج١، ص١٤٨.

(٦) انظر: زمامة، عبد القادر (١٩٧٦م)، بنو الأحمر في غرناطة، مجلة البحث العلمي، الرباط، مج٢٦، السنة الثالثة عشرة، ص١٠٩.

تقع مملكة غرناطة جنوب شرقي الجزيرة الإيبرية وتنفتح حدودها الشرقيّة على البحر المتوسط، وتشمل شمالاً منطقة أَلمَرِيَّة[١]، وتمتد جنوباً حتى جبل الفتح أو جبل طارق[٢].

أمّا حدودها الغربيّة فتنتهي عند سفوح الجبل الأسمر (سييرا مورينا) [٣] والوهاد التابعة لمنطقة نهر الوادي الكبير[٤]. ويحدها من الشّمال ولايات جَيّان وقُرْطُبَة وإِشْبِيلِيَة، ومن الشّرق ولاية مُرْسِيَة وشاطىء البحر المتوسط الممتد منها إلى الجنوب ومن الغرب ولاية قادِس[٥] وأرض الفرنتيرة[٦].

ويمكن للمسافر أن يجتاز البلاد سيراً على الأقدام من الشّمال إلى الجنوب في عشرة أيّام، ومن الشّرق إلى الغرب في ثلاثة أيّام[٧].

---

(١) أَلمَرِيَّة: من أهم الثغور الإسلامية في العهد الإسلامي، بناها الخليفة الأموي الناصر لدين الله عبد الرحمن بن محمد سنة ٣٤٤هـ/ ٩٥٥م، وهي من أشهر مراسي الأندلس وعليها سور حصين، واشتهرت بصناعة آلات النحاس والحديد، واشتهرت بالحلل والديباج وصنوف أنواع الحرير، وفيها الكثير من الفواكه. انظر: الحميري، محمد بن محمد بن عبد المنعم (٩٠٠هـ ؟/ ١٤٩٥م)، الروض المعطار في خبر الأقطار، ط٢،(تحقيق إحسان عباس)، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٤م، ص٥٣٧ ؛ القلقشندي، أبو العباس علي بن أحمد الفزاري (ت٨٢١هـ/ ١٤١٨م)، صبح الأعشى، ١٤م، المكتبة الخديوية، القاهرة، ١٩١٥م، ج٥، ص٢١٧ ؛ المقري، نفح الطيب، ج١، ص١٦٣.

(٢) جبل طارق: وهو جبل الفتح، وبه نزل طارق بن زياد مولى موسى بن نصير عند جوازه فنسب إليه فيقال له جبل طارق، وجبل الفتح، لأنّ مبدأه كان منه. انظر: ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م)، رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ط٤، (تحقيق علي المنتصر الكتاني)، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٥م، ج٢، ص٧٦٧؛ مجهول، ذكر بلاد الأندلس، (تحقيق لويس مولينا)، مدريد، ١٩٨٣م، ص٩٨؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، ص٢١٩.

(٣) الجبل الأسمر (سييرا مورينا): جبال في شمال الأندلس فيها جبل العروس الذي تقع قرطبة في سفحه. انظر: مجهول، ذكر بلاد الأندلس، ص١٠.

(٤) انظر: فرحات، يوسف شكري، غرناطة في ظل بني الأحمر: دراسة حضارية، ط١، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٢م، ص١١.

(٥) ولاية قادس: جزيرة بالأندلس، قرب مالقة من مدن إشبيلية، تقع في حلق وادي إشبيلية وأرضها سهل، وفيها آبار عذبة، تشتهر بآثارها العجيبة، منها صنم قادس الذي يرتفع في الهواء مائة ذراع. انظر: مجهول، ذكر بلاد الأندلس، ص ص٦٥– ٦٧؛ الحميري، الروض المعطار، ص٤٤٨.

(٦) أرض الفرنتيرة: هي بسيط قرطبة وإشبيلية وطليطلة وجيان، آخذة من جوف الجزيرة من المغرب إلى المشرق. انظر: ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م)، التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٣م، ج١٤، ص٨٠٤.

(٧) انظر: ابن الأحمر، أبو الوليد إسماعيل بن يوسف (ت٨٠٧هـ/ ١٤٠٤م)، نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان، (تحقيق محمد رضوان الداية)، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٧م، ص١١.

وتنقسم هذه المملكة إدارياً إلى ثلاث ولايات كبرى، هي:

أولاً: ولاية غَرْناطة، وعاصمتها غَرْنَاطَة: تقع في الوسط، وتمتد جنوباً حتى البحر الأبيض، وأهم مدنها: العاصمة غَرْنَاطَة، ووَادي آش[١]، والحامّة[٢] ولَوْشَة[٣]، وأَشْكرُ،وحِصْن اللوز، وبَسْطَة[٤]،وشَلَوْبانِيَّة[٥]، وأَرْجَبة[٦] والمُنَكَّب[٧].

---

(١)وادي آش: ويقال وادي آش أو واد آش أو وادي الآشات. وهي مدينة حسنة بديعة، منيعة جداً، بينها وبين غرناطة أربعون ميلاً، كثيرة الفواكه والمزارع. تطرد حولها المياه والأنهار، وينحط نهرها من جبل شلير وهو في شرقيها. وهي شديدة البرد لقربها من جبل شلير. انظر: الحميري، الروض المعطار، ص٦٠٤؛ الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد (ت٥٦٠هـ/ ١١٦٥م)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ط١، ٢م، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٩م، ص٥٦٧؛ الحموي، معجم البلدان، ص١٩٨؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، ص٢١٢.

(٢) الحامة: الحامة أو الحمة، بلدة صغيرة تقع شرقي بلّش مالقة، وهي من أحسن البقاع، والبحر على ثلاثة أميال منها، ولها مرسى عليه حصن يعرف بالمدارج، والمراكب سائرة به راجعة عليه. وفيها مسجد بديع الوضع عجيب البناء. وفيها العين الحارّة على ضفة واديها، وبيت لاستحمام الرجال وآخر لاستحمام النساء. انظر: ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ج٢، ص٧٦٨؛ الحميري، الروض المعطار، ص٢٠٠.

(٣) لَوْشَة: بالفتح ثم السكون وشين معجمة، مدينة تقع غربي إلبيرة قبل قرطبة منحرفة يسيراً، وهي مدينة طيبة على نهر غرناطة الشهير بشنيل، وهي ذات أنهار وأشجار، وفيها معدن للفضة جيد، ومنها لسان الدين ابن الخطيب، نشأ فيها فكانت لها في قلبه دائماً منزلة الأم، وكان يسمّيها "بنت الحضرة" أي بنت غرناطة وأحياناً يسمّيها "فتية غرناطة" اعتزازاً بها. انظر: المقري، نفح الطيب، ج١، ص١٤٨ ؛ الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص٢٦؛ لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة، ج١، هامش ص٤١٩.

(٤) بَسْطَة: بالفتح، مدينة من أعمال جيان، حسنة الموضع عامرة آهلة، لها أسوار حصينة وسوق نظيفة، وديار حسنة البناء رائعة المغنى، هي مدينة كثيرة الخيرات والبركات والزرع والضرع، يصنع بها الحرير وبها الزعفران الكثير، ويوجد فيها اللازورد، وبفحصها حمة قوية. انظر: الإدريسي، نزهة المشتاق، ج٢، ص٥٦٨؛ مجهول، ذكر بلاد الأندلس، ص٦٨؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، ص٢٢١؛ الحموي، معجم البلدان، ج١، ص٤٢٢.

(٥) شَلَوْبانِيَّة: بفتح أوله، وبعد الواو الساكنة باء موحدة مكسورة ثم ياء مثناة من تحت، حصن من أعمال كورة إلبيرة على شاطىء البحر كثير الموز وقصب السكر. انظر: الحموي، معجم البلدان، ج٣، ص٣٦٠؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، ص٢١٨.

(٦) أَرْجَبة: بلدة صغيرة من أعمال غرناطة تقع شمالي ثغر متريل وجنوب شرق غرناطة. انظر: لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة، ج٤، ص٤٢٥.

(٧) المُنَكَّب: بالضم ثم الفتح وتشديد الكاف وفتحها، وباء موحّدة، وهي بلدة على ساحل جزيرة الأندلس من أعمال إلبيرة، كثيرة مصايد السمك، وفيها فواكه جمة، وزبيبها مشهور الاسم. وفيها دار صناعة لإنشاء السفن. انظر: الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص٢١٦؛ المقري، نفح الطيب، ج١، ص١٦٥؛ الإدريسي، نزهة المشتاق، ج٢، ص٥٦٤؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، ص٢١٨.

ثانياً: ولاية ألمَرِيَّة، وعاصمتها ألمرية: وهي من أجمل المدن والثغور الأندلسيّة، تمتد من ولاية مُرْسِيَة حتى البحر الأبيض، وأهمّ مدنها: ثغر ألمرية، وبَيْرَة[١]، والمَنْصُورَة[٢]، وبَرْشانَة[٣]، وبَرْجَة[٤]، ودلايَة[٥]، وأندَرَش[٦].

ثالثاً: ولاية مَالَقَة، وعاصمتها مَالَقَة[٧]: وتقع على البحر غربي غَرْناطة. وأهمّ مدنها: ثغر مَالَقَة، وبَلّش مَالَقَة[٨]، وطُرُّش[٩]، وقُمَارِش[١٠]، وأُرْشُذُونَة[١١]، وتعتبر العاصمة الثانية لبني

---

(١) بَيْرَة: هي بليدة قريبة من ساحل البحر، ولها مرسى ترسو فيه السفن، ما بين مُرسية وألمريَّة، وهي أرض كثيرة الأنهار والأشجار ولا يضاهيها في اتساع عمارتها وطيب قراراتها وطن من الأوطان. وفيها حصن منيع على حافة مطلّة على البحر. انظر: الحموي، معجم البلدان، ج١١، ص٥٢ ؛ الإدريسي، نزهة المشتاق، ج٢، ص٥٦٢؛ لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص٥٢٦.

(٢) المَنْصُورَة: بلدة صغيرة في ولاية ألمرية تقع شمال شرق مدينة ألمريَّة. انظر: لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة، ج١، هامش ص١٠٩.

(٣) بَرْشانَة: وهي حصن على مجتمع نهرين، وهو من أمنع الحصون مكاناً وأوثقها بنياناً وأكثرها عمارة، وهو على بعد ٥٨كم شمال مدينة ألمرية. انظر: الحميري، الروض المعطار، ص٨٨؛ ابن سعيد المغربي، نور الدين ابو الحسن علي بن موسى (٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م)، المغرب في حلى المغرب، ط٣، (تحقيق شوقي ضيف)، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٣، ج٢، ص٧١.

(٤) بَرْجَة: مدينة ضمن إقليم بجانة، وهي على نهر بهيج يعرف بوادي عذراء، وهو محدق بالأزهار والأشجار، وفيها معدن الرصاص، وتسمى برجة "بهجة" لبهجة منظرها. انظر: الإدريسي، نزهة المشتاق، ج٢، ص٥٣٧؛ المقري، نفح الطيب، ج١، ص١٥٠؛ ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج٢، ص٢٢٨.

(٥) دلايَة: بلد قريب من ألمرية من سواحل بحر الأندلس، وفيها حصن يعرف باسمها. انظر: الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٤٦ ؛ مجهول، ذكر بلاد الأندلس، ص١٢.

(٦) أندَرَش مدينة من أعمال ألمرية، تقع على نهر باسمها، وهي مدينة ظريفة كثيرة الخصب، وتختص بالفخار لجودة تربتها، فليس في الدنيا مثل فخارها للطبخ. انظر: الحميري، الروض المعطار، ص٤٢؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، ص٢٢١؛ المقري، نفح الطيب، ج١، هامش ص١٦٦.

(٧) مَالَقَة: بفتح اللام والقاف، كلمة أعجمية، مدينة عامرة آهلة كثيرة الديار، ويحيط بها من جميع جهاتها شجر التين المنسوب إليها، كثيرة الخيرات والفواكه، وفيها دار صناعة لإنشاء المراكب، وهي مختصة بعمل صنائع الجلد وصنائع الحديد، وفيها الفخار المذهّب ومسجدها كبير الساحة شهير البركة. انظر: الحميري، الروض المعطار، ص ص٥١٧- ٥١٨؛ الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص٤٣؛ ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ج٤، ص٧٦٨؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، ص٢١٨- ٢١٩.

(٨) بَلّش مَالَقَة: مدينة حسنة بها مسجد عجيب، وفيها العنب والفواكه والتين، بينها وبين مالقة أربعة وعشرون ميلاً. انظر: ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ج٢، ص٧٦٨ ؛ مجهول، ذكر بلاد الأندلس، ص٦٨؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، ص٢١٨.

(٩) طُرُّش: تقع على الساحل الشرقي، وهي من كور إلبيرة، وهي تعد اليوم في مديرية مالقة. انظر: المقري، نفح الطيب، ج٣، هامش ص٣٢ و ص ٥٠.

(١٠) قُمَارِش: وهي من حصون مالقة، كثيرة الزيتون والعنب. انظر: مجهول، ذكر بلاد الأندلس، ص٦٨.

(١١) أُرْشُذُونَة: بالضم ثم السكون، وضم الشين المعجمة والذال المعجمة، وواو ساكنة، ونون وهاء، وهي قاعدة كورة ريّة ومنزل الولاة والعمال، وهي بقبليّ قرطبة، تسقي أرضها وتطرد في نواحيها عيون غزار وأنهار كبار، وهي بريّة بحريّة، ولها حصن فوق المدينة ولها مدن كثيرة، وفيها آثار قديمة. انظر: الحميري، الروض المعطار، ص٢٥؛ الحموي، معجم البلدان، ج١، ص١٥٢.

الأحمر، وكانت عاصمة الحموديين والأدارسة من ملوك الطوائف. ومن مدنها أيضاً: أَنْتَقِيرَة[١]، ورُنْدَةُ[٢] ومَرْبَلَّة[٣]. ويلحق بها منطقة جبل طارق والجزيرة الخضراء[٤] وطريف[٥].

طبيعتها:

ما يميز غرناطة موقعها الحسن، وهي حصينة منيعة، طيّبة الهواء، وافرة المياه، ولأن الجبال تكتنفها فلا يجري فيها الريح إلا نادراً، وهي مكشوفة للهواء إلاّ من جهة الشّمال، وبسيطها يمتدّ على مسيرة يومين بين مجالات مخضرّة، وأشجار ملتفة، ومياه جارية[٦].

وتخترق هذه المملكة سلسلة من جبال الثّلج " شلير"، أو ما يسمّى حالياً " سيرانفادا "، وهي جبال شاهقة الارتفاع لا يفارقها الثلج شتاءً وصيفاً. وفيها يقول ابن شبرين[٧]:

رَعى اللهُ من غَرْناطة مُتَبَوَّأً ... يَسُرُّ حزينا أو يُجير طَريدا

تبرَّمَ منها صاحبي عندَما رَأى ... مَسارِحَها بالثَّلج عُدَنُ جَليدا

هيَ الثّغرُ صانَ اللهُ منْ أهلتْ به ... وما خَيرُ ثغرٍ لا يكونُ بَرُودا[٨]

---

(١) أَنْتَقِيرَة: وهي حصن من حصون مالقة يقع بين مالقة وغرناطة، وبينه وبين مالقة خمسة وثلاثون ميلاً. انظر: الحموي، معجم البلدان، ج١، ص٢٥٩؛ الإدريسي، نزهة المشتاق، ج٢، ص٥٧٠؛ مجهول، ذكر بلاد الأندلس، ج١، ص٦٨.

(٢) رُنْدَة: بضم أوله وسكون ثانيه، وفتح الدال المهملة وهاء في الآخر، معقل حصين من أعمال تاكرُنا، وهي مدينة خصيبة أزليّة ذات زرع وضرع كثيرة الخيرات، وأهلها موصوفون بالجمال ورقة البشرة واللطافة، وبينها وبين الجزيرة الخضراء مسيرة ثلاثة أيام، وفيها آثار كثيرة، وبقربها عين تعرف بالبراوة. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٣، ص٧٣ ؛ مجهول، ذكر بلاد الأندلس، ص٦٨؛ الحميري، الروض المعطار، ص٢٦٩؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، ص٢٢٠.

(٣) مَرْبَلّة: وفي صبح الأعشى مِرْبَلّة، مدينة صغيرة مما يلي مالقة من الغرب على الساحل، وفيها الفواكه الكثيرة والسمك. انظر: الحميري، الروض المعطار، ص٥٣٤؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، ص٢١٩.

(٤) الجزيرة الخضراء: وهي مدينة على ضفة بحر الزقاق، وهي برية بحرية ذات مياه عذبة، وهواء معتدل وزرع وضرع، ومرساها أقرب المراسي إلى العدوة وأوطاها، ونهرها يعرف بوادي العسل، ويقال إنها مدينة الجدار الذي أقامه الخضر. انظر: الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص١٣٦؛ مجهول، ذكر بلاد الأندلس، ص ص٦٧-٦٨؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، ص٢٢٠.

(٥) انظر: عنان، محمد عبد الله (١٩٥٨)، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، مطبعة مصر، القاهرة، ص٥٥.

(٦) انظر: الدوسري، أحمد ثاني (٢٠٠٤)، الحياة الاجتماعية في غرناطة في عصر دولة بني الأحمر، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ٢٠٠٤م، ص٣٣- ٣٤.

(٧) هو محمد بن أحمد الجذامي، يكنّى بأبي بكر، مؤرخ، أديب، من القضاة، أصله من حصن شلب بإشبيلية، وولد في سبتة أواخر عام ٦٧٤هـ. ارتسم بالكتابة السلطانية وولي القضاء بعدّة جهات. وتوفي بغرناطة عام ٧٤٧هـ. انظر: لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص٢٣٩؛ ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي (ت٨٥٢هـ/ ١٤٤٩م)، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، دار الجيل، بيروت، (د.ت)، ج٣، ص٣٤٩.

(٨)انظر: لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة، ج١، ص٩٧؛ المقري، نفح الطيب، ج١، ص١٧٧، ١٧٨.

وتخترقها أيضاً هضاب البشرات الوعرة المسالك. وتقطعها عدّة أنهار مثل نهر شنيل الذي يُعدّ فرعاً من الوادي الكبير، ونهر المنصورة[١]، ونهر حَدرّة[٢]. وتنتشر ســهولها الخــضراء المترامية الأطراف التي تمدّ المملكة بثروة زراعيّة هامّة، كما غنيت جبال غرناطة ووهادها بــأنواع المعــادن والأحجار الكريمة، فجاءت مملكة غنية في كل شيء، تغري كل ذي طموح بأن ينــازع فــي الملــك ويستقل بالأمر.

ويحيط بمدينة غرناطة فحصها الشهير بكثرة مزروعاته، وبساتينه الخصبة التــي كانــت تُعرف بالجنّات منها: جنّة العريف، وجنّة النّخلة العليا، والنّخلة السّفلى، وجنّــة ابــن عمــران، ومدرج نجد، ومدرج السبيكة وغيرها من الجنان[٣].

وقد أسهب علماء الجغرافية والتّاريخ والأدب في وصف مملكة غرناطة، وبسط مآثرهــا ومحاسنها، وفيها يقول ابن الخطيب: "ومن فضائلها أنّ أرضها لا تعدم زريعة ولا ريعــاً أيّــام العام، وفي عمالتها المعادن الجوهريّة من الذّهب، والفضّة، والرّصــاص، والحديــد، والتوتيــا

---

(١) انظر: ابن الأحمر، نثير فرائد الجمان، ص١٢.

(٢) انظر: الحموي، معجم البلدان، ص١٩٥.

(٣) انظر: لسان الدين بن الخطيب، اللمحة البدرية، ص٢٣؛ الحبازي، مشهور عبد الرحمن (١٩٨٣)، ديــوان أبي الحسن بن الجياب، دراسة وتحقيق، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، عمّان، الأردن، ص٣.

والمرقشينة[١] واللازورد[٢]، وبجبالها وبطاحها الأندارسيون[٣]، والسنبل، والجنطيانا[٤] والقرمز[٥] إلى غلّة الحرير الذي فضلت به هذه الكورة، فلا يشاركها في ذلك إلاّ البلاد العراقيّة مقصرة عن رقة ولدونة وعتاقة"[٦].

ويقول فيها ابن بطوطة في رحلته: " ثمّ سافرت منها إلى غرناطة، قاعدة بلاد الأندلس وعروس مدنها، وخارجها لا نظير له في بلاد الدّنيا، وهو مسيرة أربعين ميلاً، يخترقه نهر شنيل المشهور، وسواه من الأنهار الكثيرة، والبساتين، والرّياض، والقصور، والكروم، محدقة بها من كل جهة. ومن عجيب مواضعها عين الدّمع، وهو جبل فيه الرّياض والبساتين لا مِثْلَ له بسواها"[٧]. وقد امتدحها أحد شعرائها قائلاً[٨]:

غرناطةٌ مَا لَهَا نَظِيرٌ مَا مِصرُ، ما الشَّام، وما العِراقْ

ما هي إلاَّ العروسُ تُجْلى وَتلْكَ مِنْ جُمْلَةِ الصّدَاقْ

نشأتها:

كانت غرناطة أبّان الفتح الإسلاميّ للأندلس مدينة صغيرة من أعمال ولاية "إلبيرة"، تقع على مقربة من مدينة إلبيرة قاعدة الولاية من الناحية الجنوبيّة، افتتحها المسلمون بقيادة طارق بن زياد عقب انتصارهم على القوط في موقعة شريش في رمضان عام ٩٢ه.

واستمرت مدينة إلبيرة قاعدة هذه الولاية، ومركز قضائها في ظل الدولة الأمويّة، حتى أواخر القرن الرّابع حينما انهارت الخلافة الأمويّة، وتعاقبت الفتن، وعاث البربر في النواحي،

---

(١) وفي تكملة المعاجم العربية مرقشيثا ومرقشيطا أي القصدير. انظر: دوزي، رينهارت (١٩٦٨)، تكملة المعاجم العربية، مكتبة لبنان، بيروت، ج٢، ص٥٩٢.

(٢) اللازورد، وهو نوع من المعادن. انظر: دوزي، تكملة المعاجم العربية، ج٢، ص١٩٥.

(٣) الأندارسيون: وفي الجامع لمفردات الأدوية والأغذية هو الأندراسيون ويعرف بـ (يربطوره) وهو نبات رقيق الساق وله زهر لونه أصفر مائل إلى السواد ثقيل الرائحة، ينبت في جبال مظللة بالشجر، وله استخدامات طبية عديدة. انظر: ابن البيطار، ضياء الدين عبد الله بن أحمد (ت٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م)، الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، مكتبة المتنبي، بغداد، (د.ت)، المجلد الثالث، ص٢٠٧.

(٤) الجنطيانا: وهو نبات طبي، له مكانه من الأدوية الترياقية. انظر: لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص٩٨.

(٥) قِرْمِز: صبغ أحمر، ويقال إنه حيوان تصبغ به الثياب فلا يكاد ينصل لونه. انظر: ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم (ت٧١١هـ/ ١٣١١م)، لسان العرب، ط٣، ١٨م، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٤م، مادة (قرمز).

(٦) لسان الدين بن الخطيب، اللمحة البدرية، ص٢٢- ٢٣.

(٧) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ج٢، ص٧٦٨؛

(٨) المقري، نفح الطيب، ج١، ص١٤٨؛ أزهار الرياض في أخبار عياض، (تحقيق مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي)، ٥م، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٣٩، ج١، ص٥٥.

وخربت مدينة إلبيرة شيئاً فشيئاً حتّى غدت غرناطة قاعدة الولاية مكانها، وغلب اسم غرناطة على الولاية نفسها، ومن ذلك الحين اختفى اسم إلبيرة كقاعدة من قواعد الأندلس، وذكر مكانها اسم غرناطة[١].

وعقب انهيار الدّولة الأمويّة في أواخر القرن الرّابع، وقعت غرناطة يومئذٍ في نصيب البربر، واستولى عليها زعيم صنهاجة زاوي بن زيري واتخذها دار ملكه[٢]. واستقرّ زاوي في حكم غرناطة وأعمالها بضعة أعوام، ثمّ غادرها إلى دار قومه في تونس واستخلف عليها ابن أخيه حبوس بن ماكسن، ثمّ خلفه ولده باديس.

ولمّا توفي باديس المظفر، خلفه في حكم غرناطة وأعمالها حفيده عبد الله بن بُلُكين بن باديس، واستمر في حكمها إلى أن عبر المرابطون البحر إلى الأندلس سنة (٤٨٣ه) بقيادة قائدهم يوسف بن تاشفين، واستولوا عندئذٍ على غرناطة، واستمر المرابطون في حكمها زهاء ستين عاماً[٣].

واضطر المرابطون لتسليمها إلى الموحدين سنة (٥٥١ه) بعد انهيار دولتهم في المغرب، وبقيت غرناطة في ظل أمراء الموحدين وسادتهم من بني عبد المؤمن وقرابته يتناوبون على حكمها، حتى كانت ثورة أبي عبد الله محمد بن يوسف بن هود سليل بني هود أُمراء سرقسطة السّابقين على الموحدين وانتزاعه معظم قواعد الأندلس من أيديهم، لكن ما لبث ابن هود أن توفي في أوائل سنة (٦٣٥ه)، وانهارت بوفاته دولته التي لم يتح لها كثير من أسباب الاستقرار والتوطّد[٤]. وعندئذ ظهر محمد بن يوسف النصري المعروف "بابن الأحمر" سليل بني نصر، وهم في الأصل سادة حصن أرجونة من أعمال ولاية جيان، ويرجع نسبهم إلى سعد بن عبادة سيد الخزرج، وأعلن أهل غرناطة طاعتهم له في يوم من أواخر أيّام رمضان سنة ٦٣٥ه، وبذا غدت غرناطة حاضرته، ومقر حكمه[٥].

---

(١) انظر: الحميري، الروض المعطار، ص٤٥، وعنان، نهاية الأندلس، ص٢١– ٢٥.

(٢) انظر: عنان، نهاية الأندلس، ص٢٧.

(٣) انظر: عنان، نهاية الأندلس، ص١٤٠.

(٤) انظر: المصدر نفسه، ص٣٨.

(٥) انظر: المصدر نفسه، ص٣٩.

الحياة السياسيّة:

تميز الوجود العربي في الأندلس بالقوة والسيادة في بداياته، واستمر الوضع كذلك في عهد الولاة، وعهد الخلافة الأموية، لكن مع بداية عهد ملوك الطوائف دب الضعف في أوصال الدولة العربية في الأندلس، بسبب الصراع بين أمراء المروانيين على الخلافة، وقد قلل هذا الضعف من هيبة الدولة في الداخل والخارج، وأغرى الطامعين فيها، وجرأهم عليها.

حَكَمَ بنو الأحمر غَرناطة، وراثةً؛ إذ تولّى حكمها – خلال القرنين والنصف – حوالي عشرين من الأمراء، الّذين أُطلق على كل واحد منهم لقب: "أمير المسلمين"[١]. تولّى بعضهم الحكم أكثر من مرّة، وامتاز كثير منهم بالهمّة والصدق والجهاد الكريم والعمل المستمر، وتمتعوا بطاقات متعدّدة الجوانب: عسكرية، وعلميّة، وإدارية[٢]. واستمر المُلْك في بني الأحمر إلى سقوط غَرناطة، لا ينازعهم في ملكها أحد سواهم، إلاّ أنّ بأسهم كان بينهم، يشغب بعضهم على بعض، ويستعين كل متشوّف إلى الحكم باللفيف والغوغاء، والناعقين بالخلعان، الشرهين على تبديل الدّعوات، المعلنين بسوء الجوار[٣].

حكم محمّد (الأوّل) بن يوسف بن الأحمر (المعروف ب "الشّيخ" و "الغالب بالله") مؤسّس الدّولة، غرناطة في الفترة من (٦٣٥- ٦٧١ه/ ١٢٣٨- ١٢٧٢م) [٤].

كانت الأندلس في بداية حكمه ممزقة إلى شيع بسبب الحرب الداخلية، وانقسمت إلى حكومات ومناطق عديدة، وسعى ابن الأحمر إلى وحدتها وبث الاستقرار فيها. ولأجل ذلك أقام سياسته على محورين أساسيين، أولهما: إقامة علاقة وطيدة مع بعض الدّول الإسلاميّة الفتية تحسباً للظّروف؛ لكي يطلب العون منها إن اضطر إلى طلب العون، والثّاني: ممالأة النّصارى ومصانعتهم حتّى يشتدّ عوده، ويثبّت أركان دولته[٥]. وكانت جمهرة كبيرة من الشّعب الأندلسيّ، ولا سيّما في الجنوب، تقف خلف ابن الأحمر وتؤيده، ولم يك ثمة ما يحول دون التفاف الأمّة الأندلسيّة كلّها حول لواء هذا الزّعيم المنقذ، ولكن روح التفرّق والتّنافس كانت متأصّلة في

---

(١) انظر: الحجي، عبد الرحمن علي (١٩٧٦)، التاريخ الأندلسي منذ الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، ط١، دار القلم، بيروت، ص٥٦٢.

(٢) انظر: الحجي، التاريخ الأندلسي منذ الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، ص ٥٦٢- ٥٦٣.

(٣) انظر: لسان الدين بن الخطيب، اللمحة البدريّة، ص٨٣؛ ابن الأحمر، نثير فرائد الجمان، ص١٥.

(٤) انظر: لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص١٤٢، ج٢، ص٩٢؛ والحجي، التاريخ الأندلسي، ص٥٦٣.

(٥) انظر: محاسنة، أحمد توفيق محمد (١٩٩٧)، الحياة السياسية في دولة بني الأحمر، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمّان، الأردن، ص٤٩.

نفوس المتغلبين والطّامعين، وآثر أصاغر الزّعماء والحكّام الانضواء تحت لواء ملك النّـصارى والاحتفاظ في ظلّه بمدنهم وقواعدهم على مظاهرة ابن الأحمر والانضواء تحت لوائه. ففي عهده فضّل أهل مرسية الانضواء تحت لواء ملك قشتالة (فرناندو الثالث) ودفع الجزيـة لـه، علـى معاضدة ابن الأحمر بسبب الأطماع الشخصيّة الوضيعة، ثمّ اشـتدّت الهجمـات عليـه وعـاث النّصارى في منطقة جيان، واستولوا على حصن أرجونة مسقط رأس ابن الأحمر ومجتمع أهله وأماكن أخرى من أملاك أمير غرناطة، حتى ضرب الحصار على غرناطة نفسها سنة (٦٤٢ه)، ولكنّهم ردّوا عن أسوارها بخسائر فادحة.

رأى ابن الأحمر أن السياسة _ في ظلّ الاجتياح المسيحي الشّامل لغرب الأندلس ووسطها وشمالها _ تقتضي عليه بأن يحني رأسه للعاصفة، فلم يجد بداً من الاتّفاق مـع ملـك قـشتالة فرناندو الثالث، فعقد معه معاهدة جيان سنة (٦٤٣ه)، وقدّم إليه طاعته، وتمّ الاتّفـاق علـى أن يحكم ابن الأحمر مملكته وأراضيه باسم ملك قشتالة وتحت طاعته، وأن يـؤدي جزيـة سـنويّة مقدارها مئة وخمسون ألف قطعة من الذّهب، وأن يعاونه في حروبه ضدّ أعدائـه، وأن يـشهد اجتماع مجلس قشتالة النيابي باعتباره من التابعين للعرش[١]. وسلّم ابن الأحمر إلى فرناندو جيان وأرجونة وغيرهما من الحصون رهينة بحسن طاعته، ونزل له عن أرض الفرنتيرة لعجزه عن الاحتفاظ بها، وفي مقابل هذا الثمن الفادح عقد ملك قشتالة السلم مع ابن الأحمر لمـدة عـشرين سنة، وأقرّه على ما بقي من القواعد والحصون. وهكذا أمنت غرناطة شر العدوان فتـرة مـن الزمن. ضحى ابن الأحمر باستقلاله السياسي وهيبته الأدبية احتفاظاً بأراضـيه، وتطلعـاً إلـى ظروف أفضل يستطيع فيها النضال والصمود. وقد فتح ابن الأحمر بتخاذله هذا الطريق واسـعاً أمام أمراء المسلمين في غرب الأندلس لأن يحذو حذوه في التنازل عن بعض الحصون، فسقطت إشبيلية سنة (٦٤٦ه)، وكان سقوطها إيذاناً بسقوط سائر المدن والحـصون الإسـلامية. وبـسط القشتاليون سلطانهم على سائر الأراضي الإسلامية، وأخذت رقعة الدولـة الإسـلامية تـنكمش بسرعة مروعة. وأمام هذه الحوادث وقف ابن الأحمر موقفاً شاذاً متخاذلاً يبعث علـى الحـزن والأسى، فقد كان يناصر أعداء أمته ودينه، ويبذل للنصارى ما استطاع مـن العـون المـادي والأدبي.

ولم ترو تلك الحصون شهية ملك قشتالة ألفونسو العاشر ولم تطفئ شره نفسه، فقـد ظـل يطمع في أن يضم كل القواعد الأندلسية لملكه، وكان ابن الأحمر يطلب المدد من بني مرين كلما

---

(١) انظر: عنان، نهاية الأندلس، ص٤٢- ٤٣.

لاح له ذلك. ولما تفاقم عدوان القشتاليين وضغطهم لم يرَ ابن الأحمر بدّاً من أن يخطو خطوة جديدة في مهادنة ملك قشتالة ومصادقته، فنزل له في أواخر سنة (٦٦٥ه) عن عدد كبير من البلاد والحصون منها شريش والمدينة والقلعة، وقيل: إنّ ما أعطاه ابن الأحمر يومئذٍ من البلاد والحصون المسوّرة للنصارى بلغ أكثر من مئة موضع، ومعظمها في غربي الأندلس، وبذا عقد السلم بين الطرفين مرة أخرى.

عاد النصارى إلى التحرّش بالمملكة الإسلامية والاعتداء عليها، إذ ليس من ديدن العدو وعادته المحافظة على أي عهد أوميثاق، وسار ملك قشتالة ألفونسو العاشر إلى الجزيرة الخضراء، فعاث فيها، وعاد ابن الأحمر يتوجس شراً من نيّات النصارى، فبعث إلى أمير المسلمين السلطان أبي يوسف المريني ملك المغرب يطلب منه الغوث، لكن المنية وافت ابن الأحمر بعد ذلك بقليل، فلم يعش ليرى نتيجة هذه الدعوة[١].

توفي محمد ابن الأحمر سنة (٦٧١ه)، وخلفه في الملك ولده وولي عهده أبو عبد الله محمد بن محمد بن يوسف الملقب " بالفقيه " لعلمه وتقواه، وامتدّ حكمه من (٦٧١- ٧٠١ه/ ١٢٧٢-١٣٠٢م) [٢].

وشهد أول عهده نشاط ملك قشتالة ألفونسو العاشر إلى محاربة المسلمين، ولم يغفل ملك غرناطة عن الخطر الّذي يتهدده من مشاريع قشتالة، فقد أوصى محمد ابن الأحمر (المؤسّس) ولده بالحرص على محالفة بني مرين ملوك العدوة والاستنجاد بهم كلما لاح شبح الخطر الدّاهم. وقد شاء القدر أن تلعب دولة بني مرين وريثة المرابطين والموحدين في حوادث الأندلس الداخلية والخارجية أعظم دور[٣]. فقد أرسل محمد الفقيه عقب ولايته بقليل وفداً من أكابر الأندلس إلى ملك المغرب أبي يوسف المنصور، يحمل إليه رسالة استغاثة مؤثرة، فشرحوا له حال الأندلس من الضعف، ونقص الأهبة، وتكالب العدو والقوى عليها، واستصرخوه للغوث والجهاد، ثمّ تتابعت رسل ابن الأحمر وبني أشقيلولة أصهار بني الأحمر إلى السلطان أبي يوسف ينوهون بالخطر الدّاهم الّذي يهدّد الأندلس، ويلتمسون إليه المبادرة بالإسعاف والإمداد، فاستجاب

---

(١) انظر: لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص١٤٠.

(٢) انظر: لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص١٤٢، ص٥٥٦؛ وعنان، نهاية الأندلس، ص٩٤.

(٣) انظر: عنان، نهاية الأندلس، ص٩٧.

السلطان أخيراً لدعوتهم، وكتب إلى ابن الأحمر يطمئنه ويعرب عن عزمه على الجواز إلى الأندلس في فاتحة سنة (٦٧٤هـ)[١].

وقد رتّب أبو عبد الله محمد بن محمد بن يوسف رسوم الملك للدولة النصريّة، ووضع ألقاب خدمتها، ونظم دواوينها وجبايتها، وخلع عليها بذلك صفتها الملوكيّة الزاهية، وفي ذلك يقول ابن الخطيب:" كان هذا السّلطان أوحد الملوك جلالة وصرامة وحزماً، ممهد الدّولة الّذي وضع ألقاب خدمتها، وقدّر مراتبها، واستجاد أبطالها، وأقام رسوم الملك فيها، واستدرَّ جبايتها مستظهراً على ذلك بسعة الذرع وأصالة السياسة، ورصانة العقل، وشدة الأسر، ووفور الدهاء، وطول الحنكة وتملؤ التّجربة، مليح الصّورة، تامّ الخَلق، بعيد الهمّة، كريم الخُلق، عظيم الصبر، كثير الأناة" [٢].

كان أبو يوسف قد اشترط على ابن الأحمر حينما استنجد به، أن ينزل له عن بعض الثغور والقواعد الساحلية، لتنزل بها جنوده في الذهاب والإياب، فنزل له عن رندة وطريف والجزيرة، وغزا السلطان أبو يوسف أراضي قشتالة، وألحق بها الهزائم وغنم منها الكثير، ثم عبر البحر إلى المغرب في أواخر شهر رجب (٦٧٤هـ) بعد أن قضى بالأندلس زهاء خمسة أشهر[٣].

وفي سنة ٦٨٥هـ توفي السلطان أبو يوسف المنصور، وخلفه على عرش المغرب ولده الأمير أبو يعقوب، وقد حذا حذو أبيه، فكان معنياً بشؤون الأندلس خبيراً بها، واستمرت روابط المودة والصفاء تربط بلاط غرناطة وبني مرين أعواماً أخرى.

لقد استطاع محمد الفقيه أن يحافظ على متانة علاقته ببني مرين، وتمكن بمساعدتهم من تحقيق انتصارات عدة على الإسبان، وكانت العلاقة بين بني الأحمر وبني مرين مبعث قلق سانشو ملك قشتالة ومثار قلقه، فسعى إلى محالفة ابن الأحمر، وحذّره من نيّات المغاربة واستيلائهم على الثغور الأندلسيّة، ولا سيما ثغر طريف مدخل الجزيرة، وتفاهم الملكان على انتزاع هذا الثغر من المغاربة، واشترط ابن الأحمر أن تسلّم إليه طريفاً عقب انتزاعها. وعندما حاصرت قشتالة طريف قدّم ابن الأحمر العون لها، فعسكر في قواته بمالقة على مقربة منها، يعاون النّصارى بالإمداد والمؤن وحاصرها سانشو من ناحية البحر ليحول دون وصول الإمداد إليها. وصمدت حامية طريف أربعة

---

(١) انظر: المصدر نفسه، ص٩٨.

(٢) لسان الدين بن الخطيب، اللمحة البدرية، ص٥٠؛ الإحاطة، ج١، ص٥٥٧.

(٣) انظر: لسان الدين بن الخطيب، اللمحة البدرية، ص١٠١.

أشهر، ولكنها اضطرت في النهاية إلى التّسليم للنّصارى سنة (٦٩٢هـ)، وهنا طالب ابن الأحمر سانشو بتسليمها فأبى وأعرض عنه. وعاد ابن الأحمر يخطب ودَّ بني مرين مرّة أخرى، وأوفد ابـن عمّـه الرّئيس أبا سعيد فرج بن إسماعيل ووزيره أبا سلطان عزيز الداني على رأس وفد من كبراء الأندلس إلى السلطان أبي يعقوب في طلب العون، فأكرم السّلطان وفادتهم وأجـابهم إلـى طلـب الـصّلح[1]. واستمر محمد الفقيه في حكم غرناطة أعواماً أخرى وهو ثابت العهد، مقيم على صـداقة بنـي مرين، وقد عقد معاهدة صلح وتحالف مع ملك أراجون خايمي الثاني ضد قشتالة تجديداً لمعاهدة صلح سابقة بينهما في سنة (٦٩٥هـ)[2].

توفي السلطان محمد الفقيه في سنة (٧٠١هـ) بعد أن حكم أكثر من ثلاثين عاماً، وقـد زاد ملك بني الأحمر في عهده توطيداً واستقراراً، على الرّغم ممّا توالى فيه من الأحداث والخطوب.

خلف محمداً الفقيه ولده أبو عبد الله محمد (الثالث) الملقـب بـالمخلوع (٧٠١- ٧٠٨هـ/ ١٣٠٢- ١٣٠٩م) [3]، وكان ضريراً. لكنه ذو نباهة وعزم، عالم شاعر يؤثر مجالس العلماء والشّعراء، ويصغي إليهم ويجزل صلاتهم محبّاً للإصلاح والإنشاد، وكان بين منشآته المسجد الأعظم بالحمراء[4].

حاول محمد (الثالث) في بداية عهده أن يعمل على إحكام المودّة بينه وبين بنـي مـرين، فأرسل وزير أبيه أبا سلطان عزيزاً الداني، ووزيره ابن الحكيم إلى سلطان المغرب ليجددا عهد المودّة والصداقة، فأكرم وفادتهما، ولاح أنّ أواصر المودّة أضحت أشد ما يكون توثقاً بين الفريقين، ولكن ابن الأحمر عرض له فجأة أن يعدل عن محالفة سلطان المغرب وأن يعود إلى محالفة ملـك قشتالة، وبدأ ابن الأحمر أعمال العدوان بأن أوعز إلى عمه وصهره الرّئيس أبي سعيد فـرج بـن إسماعيل صاحب مالقة أن يحرّض أهل سبتة في الضفة الأخرى من البحـر علـى خلـع طاعـة السلطان، وفي سنة (٧٠٥هـ) أُعلن انضواءُ سبتة تحت لواء ابن الأحمر، وبهذا اضـطربت علاقـة مملكة غرناطة وبني مرين مرّة أخرى[5].

لكن أبا الجيوش نصر بن محمد الفقيه ضاق ذرعاً بنظام الطّغيان الّـذي فرضـه محمـد المخلوع ووزيره ابن الحكيم، فأعلن الثورة على أخيه هو ومعه رهط من أكابر الدولة، وذلك في يوم عيد الفطر سنة (٧٠٨هـ)، ووثب الخوارج بالوزير ابن الحكيم فقتلـوه، واعتقلـوا الـسّلطان

(١) انظر: عنان، نهاية الأندلس، ص١٠٩.

(٢) انظر: المصدر نفسه، ص١١٥.

(٣) انظر: لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص١٤٢، ٥٤٤؛ الحجي، التاريخ الأندلسي، ص٥٦٣.

(٤) انظر: عنان، نهاية الأندلس، ص١١٢.

(٥) انظر: لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص٥٥٢.

محمداً وأرغموه على التنازل عن العرش، وتربّع أخوه نصر مكانه في الملك. ونُفـيَ الـسلطان المخلوع إلى حصن المُنَكَّب، حيث قضى خمسة أعوام في أصفاد الأسر ثم أعيد بعد ذلك مريضاً إلى غرناطة حيث توفي سنة (٧١٣هـ)(١).

تولّى نصر بن محمد الملقب ب "أبي الجيوش "الحكم (٧٠٨هـ- ٧١٣هـ/ ١٣٠٩- ١٣١٤م). وكان يوم جلوسه فتى في الثالثة والعشرين من عمره، وكان شديد الولـع بالأبهـة والمظـاهر الملوكيّة، وكان في الوقت نفسه بارعاً في الرّياضة والفلك، أديباً عالماً، إلا أنه لم يحسن السّيرة، ولم يوفق في تدبير الأمور، وسرعان ما سخط عليه الشّعب كما سخط على أخيـه مـن قبـل؛ فاضطربت الأحوال وتوالت الأزمات. واستغل فرناندو الرّابع ملك قشتالة اضطراب العلاقة بين بني الأحمر وبني مرين إثر سقوط سبتة، واضطراب الأوضاع الداخليّة في غرناطة، فاسـتولى على جبل طارق في أواخر سنة (٧٠٩هـ)، وكان لسقوطه وقع عميق في الأندلس والمغرب معاً، فقد كان باب الأندلس من الجنوب، وكان صلة الوصل المباشرة بين المملكتين الإسلاميتين(٢).

وأدرك ابن الأحمر على أثر هذه النكبة فداحة الخطأ الّذي ارتكبه بمجافاة بني مرين؛ فبـادر إلى تحسين علاقته بهم، وعادت علائق التفاهم والتحالف بين غرناطة وفاس إلى سابق عهدها.

وممّا زاد في سوء سيرة نصر وسخط الشّعب عليه مصانعته فرناندو الرّابع ملك قـشتالة والتّعهد له بأداء الجزية؛ فثار عليه أبو سعيد فرج بن إسماعيل النصري في أوائل سنة (٧١٢هـ)، وسار في قوّاته إلى غرناطة وهرع السّلطان نصر إلى لقائه فكانت الهزيمة على نصر؛ فلجأ إلى غرناطة، ولكنه لم يلبث أن أذعن واضطر إلى التنازل عن العرش، وسار بأهله إلـى وادي آش وتولى حكمها حتى توفي سنة (٧٢٢هـ)(٣).

خلفه في الحكم أبو الوليد إسماعيل (الأوّل)، وهو حفيد إسماعيل أخي محمد الأوّل الـشيخ المؤسّس، وامتدّ حكمه من (٧١٣- ٧٢٥هـ/ ١٣١٤- ١٣٢٥م).

امتاز عصر أبي الوليد إسماعيل الأول بتثبيت دعائم الملك، واستقرار الأمور، وإحياء عهد الجهاد، وقد شهد عصره انتصارات كثيرة على القشتاليين، وعادت الدولة الإسلاميّة الفتية تملـك زمام القوّة بعد أن بدا أنها شارفت على الزوال. تمتع السلطان إسماعيل بصفات مميزة، واشـتد

---

(١)انظر: لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص٥٥٣- ٥٥٥؛ اللمحة البدريّـة، ص٦٦- ٦٧؛ وعنـان، نهاية الأندلس، ص١١٤.

(٢) انظر: لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص١٤٢؛ وعنان، نهاية الأندلس، ص١١٤.

(٣) انظر: لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص١٤٢؛ وعنان، نهاية الأندلس، ص١١٦.

في إخماد البدع وإقامة الحدود، ففي عهده حرِّمت المسكرات وحجِّم الفساد الأخلاقي، وحرّم جلوس الفتيات في ولائم الرّجال، وعومل اليهود بشيء من الشدّة، وألزموا أن يتخذوا لهم العمائم الصّفراء شعاراً خاصّاً بهم. ولم يدم حكمه إلاّ اثنتي عشرة سنة؛ إذ قُتل بباب قصره غيلة(١).

خلفه ابنه أبو عبد الله محمد (الرّابع) وامتدّ حكمه من [٧٢٥- ٧٣٣هـ/ ١٣٢٤- ١٣٣٢م](٢). ومن أوائل أعماله تجديد معاهدة الصداقة مع أراجون إثر انقضاء أجل المعاهدة التي عقدت بين أبيه وملك أراجون، ولأول عهده نشب الخلاف بينه وبين شيوخ الغزاة المغاربة، فقتل محمد (الرّابع) بتحريض منهم. وتمكّن المسلمون في عهده من استرجاع ثغر جبل طارق سنة (٧٣٣هـ)(٣).

ولي العرش بعده أخوه أبو الحجاج يوسف (الأوّل) (الغالب بالله) وهو لم يجاوز سن المراهقة، وامتدّ حكمه من (٧٣٣- ٧٥٥هـ/ ١٣٣٢- ١٣٥٤م). كان من أعظم ملوك بني نصر وأبعدهم همّة وأرفعهم خلالاً، وكان عالماً شاعراً يحمي الآداب والفنون(٤) "ففي أيّامه بنيت المدرسة العجيبة بكر المدارس في حضرته فتمت وكملت أوقافها"(٥).

شهدت البلاد في عصره تقدماً وازدهاراً علميّاً وأدبيّاً، وهو الّذي أضاف إلى قصر الحمراء أعظم منشآته. وفي عهده كثرت غزوات المسيحيين لأراضي المسلمين، ومنها غزوة طريف الشهيرة عام ٧٤٠هـ، التي هُزم فيها المسلمون هزيمة شديدة. واستمر أبو الحجاج يوسف في الحكم بضعة أعوام أخرى ساد فيها السّلام والأمن، ولكنه ما لبث أن قُتل غيلة أثناء صلاته بالمسجد الأعظم في يوم عيد الفطر سنة (٧٥٥هـ)(٦).

لبث بلاط غرناطة حقبة يقف من دولة بني مرين مواقف متناقضة، ويتردّد بين سياسة التحالف والقطيعة وبين الثّقة والتوجّس، وليس من شكّ أنّ بني مرين كانوا عضداً قيماً لمملكة غرناطة الناشئة، وقد أدّوا لها في ميدان الجهاد وفي مقاتلة النّصارى خدمات جليلة، ولولا غوث بني مرين واشتغال مملكة قشتالة بحوادثها الداخليّة غير مرّة، لما اشتدّ ساعد بني الأحمر وسطعت دولتهم واستطالت أيّام الإسلام بالأندلس زهاء مئة عام أخرى.

---

(١) انظر: عنان، نهاية الأندلس، ص١٢٠.

(٢) انظر: لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة، ج١١، ص٥٣٢.

(٣) انظر: المصدر نفسه، ج١، ص١٤٢.

(٤) انظر: عنان، نهاية الأندلس، ص١٢٥.

(٥) لسان الدين بن الخطيب، اللمحة البدرية، ص١٠٩.

(٦) انظر: لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص١٤٢؛ وعنان، نهاية الأندلس، ص١٣٠.

على أنّ الدولة المرينيّة ذاتها دخلت في دور انحلالها سنة (٧٥٢ه)، وانحدرت إلى غمر الحرب الأهلية، وبذلك تفقد غرناطة ذلك العضد الوحيد الّذي كانت تدّخره وقت الشّدائد، وانقطعت الجيوش المغربيّة عن العبور إلى الأندلس لمقاتلة النصارى وتركت غرناطة من ذلك الحين إلى مصيرها داخل الجزيرة الإسبانيّة تغالب قوى النصرانيّة بمفردها[١].

خلف السّلطان يوسف أبا الحجّاج في الملك، ولده محمد (الخامس) الملقب "بالغني بالله" حكم غرناطة لأوّل مرّة (٧٥٥- ٧٦٠ه/ ١٣٥٤- ١٣٥٨م) [٢]. وفي أوائل عهده شُغلت قشتالة بحروبها الدّاخليّة فأمنت غرناطة شرّ العدوان مدة من الزمن. ولكن الحوادث الداخليّة كانت تؤذن بتطورات جديدة؛ ففي رمضان سنة (٧٦٠ه) نشبت في غرناطة ثورة فقد فيها الغني بالله ملكه؛ إذ تآمر عليه أخوه إسماعيل تؤازره جماعة من الزّعماء انتهزوا فرصة ابتعاده عن دار الملك وهاجموا حصن الحمراء ونفذوا إلى قصر الحاجب رضوان وقتلوه بين أهله وولده، ونادوا بإسماعيل أخي السّلطان سنة (٧٦٠ه) ملكاً مكانه[٣]. وجاز السّلطان المخلوع ووزيره لسان الدين ابن الخطيب إلى المغرب[٤].

وفي سنة (٧٦١ه)، قُتل إسماعيل بعد سنة واحدة من تسلمه الملك، وتولّى الحكم بعده زوج أخته أبو عبد الله محمد (السّادس) الغالب بالله (٧٦١ه)، وخُلع عام (٧٦٣ه) [٥].

واستردّ الغني بالله حكمه للمرّة الثانية (٧٦٣- ٧٩٣ه/ ١٣٦١- ١٣٩٠م)، فساد الأمن والسّلام في عصره، وغلب التهادن بين غرناطة وقشتالة، ولم يخل عصر الغني بالله من مواطن الجهاد واستئناف الصّراع مع القشتاليين.

خلفه ولده يوسف (الثاني) أبو الحجاج (٧٩٣- ٧٩٧ه/ ١٣٩٠- ١٣٩٤م)، وحاول وزيره خالد اغتياله بالسم بعد أن قتل إخوته الثلاثة سعداً ومحمداً ونصراً في محبسهم، إلاّ أنّ يوسف علم بذلك فسخط على وزيره وقتله. واستأثر بالسّلطة، وكتب إلى ملك قشتالة في طلب المهادنة والسلم، وأطلق سراح عدد من الفرسان النّصارى الذين أسروا في بعض المعارك، فاستجاب ملك قشتالة إلى دعوته وعقد السلم بين المملكتين.

---

(١) انظر: عنان، نهاية الأندلس، ص ١٣٦.

(٢) انظر: لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة، ج٢، ص١٤.

(٣) انظر: المصدر نفسه، ج١، ص٣٩٨.

(٤) انظر: عنان، نهاية الأندلس، ص١٤٠.

(٥) انظر: الحجي، التاريخ الأندلسي، ص٥٦٤.

قام المسلمون في عهد يوسف (الثاني) بالإغارة على أراضي النّصارى في أحواز مرسية ولورقة، وعاث الفرسان النّصارى من جانبهم في فحص غرناطة، فردّهم المسلمون وأوقعوا بهم هزيمة شديدة، ثمّ عاد الفريقان إلى التّهادن والسلم، وقيل إنه توفي مسموماً أوائل سنة (٧٩٧هـ)[١].

خلفه ولده محمد (السّابع) [٧٩٧- ٨١١هـ/ ١٣٩٤- ١٤٠٨م]، بعد أن دبّر أمره مع الزّعماء ورجال الدّولة لإقصاء أخيه الأكبر يوسف عن العرش، ثم قبض على أخيه يوسف وزجّه في السّجن. كان السّلطان محمد(السّابع) وافر العنف والجرأة بعيد الأطماع، فسعى إلى تجديد صلات المودة والتّهادن بين غرناطة وقشتالة، وعقدت الهدنة فعلاً بين الفريقين، إلاّ أنه لم يمض قليل على ذلك حتى نقضت قشتالة الهدنة، واستمر الوضع كذلك بين غرناطة وقشتالة بين توقيع هدنة ونقض القشتاليين لها.

خلف محمد السابع في الملك أخوه يوسف (الثالث) [٨١١- ٨٢٠هـ/ ١٣٩٤- ١٤١٧م]، وكان سجيناً طوال حكمه بقلعة شلوبانية. توفي السّلطان يوسف (الثالث) سنة (٨٢٠هـ)، بعد حكم دام نحو تسعة أعوام، وكان أميراً شاعراً، راجح العقل، بارع السّياسة، عظيم الفروسيّة والنجدة، محبّاً لشعبه. فكان حكمه القصير صفحة زاهية في تاريخ مملكة غرناطة، فعلى عهده عاشت غرناطة فترات طويلة من السّلام والاستقرار إلى أن وافاه الأجل، وبه يختتم تاريخ منعة غرناطة وعزّتها[٢].

توالى على عرش غرناطة بعد السّلطان يوسف (الثالث) عدّة من الأمراء الضّعاف أولهم: ولده أبو عبد الله محمد (الثامن) الملقب بالأيسر (٨٢٠- ٨٣١هـ/ ١٣٩٤- ١٤١٧م)، وكان أميراً صارماً سيء الخلال، متعالياً على أهل دولته، بعيداً عن الاتصال بشعبه، وكان وزيره يوسف بن سراج واسطته الوحيدة للاتصال بشعبه وكبراء دولته. وقامت في عهد محمد الأيسر ثورات متعاقبة، فَقَدَ فيها عرشه ثمّ استردّه غير مرّة. وكان بلاط قشتالة يشجّع هذه الانقلابات ويؤازرها[٣].

وفي خلال حكمه المضطرب كان النّصارى يتربصون الفرص لغزو مملكة غرناطة، فزحفوا عليها في سنة (٨٣١هـ)، وتوغلوا في أرجائها وعاثوا في بسائط وادي آش، فزادت الأمور في غرناطة اضطراباً، وازداد الشّعب على الأيسر سخطاً، وسرعان ما انفجر بركان الثورة،

---

(١) انظر: عنان، نهاية الأندلس، ص١٥٠.

(٢) انظر: المصدر نفسه، ص١٥٤.

(٣) انظر: عنان، نهاية الأندلس، ص١٥٤- ١٥٥.

ونودي بابنه (أو أخيه) محمد (التّاسع) الملقب ب (الزغير) ليكون ولياً للعهد وقر الأيسر في أهلـه ونفر من خاصّته إلى تونس[١].

جلس محمد (الزغير) أو أبو عبد الله الـصّغير علـى عـرش غرناطـة [٨٣١- ٨٣٣هـ/ ١٤١٧- ١٤٢٩م]، وكان أميراً بارع الخلال، وافر الفروسيّة، يعشق الآداب والفنون. لكنـه لـم يوفق إلى إخماد الدّسائس والفتن المستمرة، واستطاع محمد (الأيسر) العودة إلى الحكـم [٨٣٣- ٨٣٥هـ/ ١٤٢٩- ١٤٣١م] بمساعدة يوسف بن سراج وقشتالة. وعادت الفـتن الداخليـة تنـذر بانقلابات جديدة، وغدا العرش الغرناطي مرّة أخرى يضطرب في يد القدر، وانقسمت المملكـة الإسلاميّة شيعاً وأحزاباً متنافسة متخاصمة، ولقي النّصارى فرصتهم السّانحة لإذكاء الفتنة وبسط سيادتهم على مملكة يسودها الضّعف والتفرّق[٢].

وفي سنة (٨٣٥هـ)، غزت قشتالة مرج غرناطة، وسار الأيسر على رأس قوّاتـه والتقـى بالنّصارى في بسائط إلبيرة، ونشبت بين الفريقين موقعة شديدة ارتدّ الأيسر على أثرها منهزمـاً إلى غرناطة وفقد الأيسر حكمه على إثرها. ونودي بيوسف بن المول (أبـي الحجـاج) حاكمـاً لغرناطة بمساعدة قشتالة، إلاّ أنّ حكمه لم يطل إذ كان شيخاً مريضاً فتوفي بعد ستة أشهر[٣].

أعيد الأيسر إلى الحكم للمرّة الثالثة [٨٣٥- ٨٤٥هـ/ ١٤٣١- ١٤٤١م][٤]، وعقد الهدنـة مع ملك قشتالة، ولكن القشتاليين ما لبثوا بالرغم من عقدها أن أغاروا على أراضـي غرناطـة الشرقيّة؛ فردّهم المسلمون واستمر الصّراع بضعة أعوام سجالاً بين المسلمين والنّصارى، ولمـا رأى النّصارى كثرة خسائرهم وعقم محاولاتهم لجأوا إلى السكينة حيناً. وأرسل السّلطان الأيسر في أواخر عهده إلى مصر سفارة يرجو فيها سلطان مصر الإنجاد والغوث لما رآه من اشتداد وطأة النّصارى على أراضي مملكته، وهذه أوّل مرّة تتجه فيها مملكة غرناطة إلى الاستنجاد بمصر. وقد كانت حتى ذلك الحين تتجه دائماً إلى ملوك العدوة، ولكن الدولة المرينية كانت قد دخلت يومئذٍ في دور انحلالها[٥].

كانت حوادث غرناطة عندئذٍ تنذر بتطورات جديدة مزعجة، ذلـك أنّ الـسّلطان الأيـسر بالرّغم من حسن بلائه ضدّ النّصارى لم يحسن السيّرة في الدّاخل، ولم ينجح في اجتذاب شعبه،

---

(١) انظر: المصدر نفسه، ص١٥٥.

(٢) انظر: المصدر نفسه، ص١٥٨.

(٣) انظر: المصدر نفسه، ص١٦٠.

(٤) انظر: الحجي، التّارخ الأندلسي، ص٥٦٥.

(٥) انظر: عنان، نهاية الأندلس، ص١٦١.

فظهر محمد (العاشر) بن نصر بن محمد (الخامس) (الأحنف) الذي نجح في دخول غرناطة سرّاً مع نفر كبير من أنصاره، وأخذ يعمل على إذكاء الفتنة، فلما آنس سنوح الفرصة ثار في عصبته، واستولى على الحمراء والحصون المجاورة لها، وقبض على الأيسر وآله وزجهم في السجن، ونادى بنفسه ملكاً على غرناطة وذلك سنة (٨٤٥هـ/ ١٤٤١م).

لكن الفتنة لم تهدأ ولم تستقر الأمور، فكان يعارض ولاية الأحنف فريق قوي من الزّعماء والشّعب، ولم يمض قليل على توليه الحكم حتى سار الأمير يوسف (الخامس) ابن الأحمر المقيم في بلاط قشتالة ومعه سرية من الفرسان النّصارى أمده بها ملك قشتالة، فتغلب على الأحنف واحتلّ الحمراء، وحكم مدى أشهر قلائل. ولكن الأحنف عاد فتغلّب عليه واستردّ عرشه سنة (٨٤٩هـ/ ١٤٤٦م)، ثمّ خُلع سنة (٨٦٣هـ/ ١٤٥٨م)(١).

تولى الحكم بعده سعد بن محمد [٨٦٣- ٨٦٧هـ/ ١٤٥٨- ١٤٦٢م]، ثمّ عزل وأعيد السّلطان يوسف (الخامس) الذي حكم حتى أواخر سنة (٨٦٨هـ) (٢). وكان السّلطان يوسف (الخامس) أميراً عاقلاً حازماً عادلاً محباً للإصلاح والأعمال الإنشائيّة، فعكف على ضبط الأمور وتوطيد الأمن وإقامة الأبنية وتحصين القواعد والثغور. شهد عهده سقوط ثغر جبل طارق في يد النّصارى سنة (٨٦٧هـ)، وكان سقوط هذا الثغر المنيع في يد النّصارى أول خطوة ناجعة في سبيل قطع علائق مملكة غرناطة بعدوة المغرب، والحول دون قدوم الإمداد إليها من وراء البحر(٣).

ثمّ صار الحكم إلى أبي الحسن علي بن سعد (الغالب بالله) (٨٦٨- ٨٨٧هـ/ ١٤٦٣- ١٤٨٢م). وكان أبو الحسن أميراً وافر الشّجاعة والعزم، يعشق الحرب والجهاد، وما كاد يستقرّ في عرشه حتى أبدى همّة فائقة في تحصين المملكة وتنظيم شؤونها، وبثّ فيها روحاً جديدة من القوّة والطمأنينة(٤). "واستقلّ السّلطان أبو الحسن على ما بقي بيد المسلمين من بلاد الأندلس وجاهد المشركين، وافتتح عدّة أماكن، ولاحت بارقة الكرّة على العدو الكافر وخافوه وطلبوا هدنته"(٥).

وفي أوائل حكمه خرج عليه أخوه أبو عبد الله "الزغل"، وكان يومئذٍ والياً لمالقة. كان يُضارعه في الشّجاعة والجرأة وحبّ النّضال. ولجأ الزّغل إلى عون ملك قشتالة هنري الرابع يستنصره على أخيه، ولقيه في محلته في ظاهر أرشذونة سنة (٨٧٤هـ)، فوعده بالعون والتّأييد،

---

(١) انظر: المصدر نفسه، ص١٦٤.

(٢) انظر: الحجي، التّاريخ الأندلسي، ص٥٦٥.

(٣) انظر: عنان، نهاية الأندلس، ص٦٥.

(٤) انظر: عنان، نهاية الأندلس، ص١٩٢.

(٥) المقري، نفح الطيب، ج٤، ص٥١١.

وبادر السّلطان أبو الحسن من جانبه بالإغارة على أراضي قشتالة، وانتزع من النّصارى بعض المواقع التي استولوا عليها. وشغل أبو الحسن في الأعوام الثلاثة التالية بمحاربة أخيه أبي عبد الله الزّغل الثائر عليه، وكان النّضال سجالاً بينهما. وشغل أبو الحسن بذلك عن غزو أرض النّصارى، وشغل القشتاليون أنفسهم بما نشب بينهم من الخلاف الدّاخلي. وذلك حتى وفاة ملكهم هنري الرّابع سنة (٨٧٩هـ).

وفي تلك الأثناء خرجت مالقة عن طاعة أبي الحسن، حيث ثار بها القائد محمد الفرسوطي، وانضم إليه كثير من القواد والأجناد، واستدعى القواد الثائرون أخاه أبا عبد الله محمد بن سعد (الزغل) وكان يومئذٍ بقشتالة، وأعلنوه ملكاً عليهم، فانقسمت المملكة إلى شطرين متخاصمين[١].

وعقدت الهدنة بين الأخوين على أن تحترم الحالة القائمة، فيبقى أبو عبد الله "الزغل" على استقلاله بمالقة وأحوازها، ويستقر أبو الحسن في عرش غرناطة وما إليها. وعقدت في الوقت نفسه هدنة مؤقتة بين المسلمين والنّصارى[٢].

وفي أوائل سنة (٨٨٣هـ)، أرسل السّلطان أبو الحسن إلى ملك قشتالة يطلب تجديد الهدنة القائمة بينهما، وكان فرناندو وإيسابيلا يقيمان يومئذٍ في إشبيلية (وكانت مملكة أراجون ومملكة قشتالة قد اتحدتا باقتران فرناندو ولد خوان الثاني ملك أراجون بإيسابيلا أخت هنري الرّابع ملك قشتالة)، فوافقا على ما طلبه أبو الحسن، ولكن بشرط أن تعترف مملكة غرناطة بطاعتهما وأن تؤدي إلى قشتالة نفس الجزية من المال والأسرى التي كان يؤديها السّلاطين السّالفون، إلاّ أنّ أبا الحسن رفض طلب الملكين النّصرانيين بإباء، فاشتعلت الحرب بين الطرفين وأغار القشتاليون على حصن بللنقة (فيلا لونجا)، واستولوا عليه وعاثوا في أحواز رندة، وردّ أبو الحسن على ذلك بإعلان الحرب على قشتالة، وزحف على بلدة الصخرة إلى أن استولى عليها عنوة وقتل حاميتها[٣].

تعرّضت غرناطة في عهد السّلطان أبي الحسن لسيل عظيم أثناء عرض للجيش بين يديّ السّلطان أدّى إلى دمار البلاد، فلم يبق على الأشجار والحوانيت والمساجد والفنادق والأسواق."قال المؤرّخ – عفا الله عنه – ومن وقت السّيل العظيم بدأ ملك الأمير أبي الحسن في

---

(١) انظر: عنان، نهاية الأندلس، ص١٩٢.

(٢) انظر: المصدر نفسه، ص١٩٤.

(٣) انظر: عنان، نهاية الأندلس، ص١٩٥.

التقهقر والانتكاس والانتقاض، وذلك أنه اشتغل باللذات والشهوات واللهو بالنّساء المطربات، وركن إلى الرّاحة والغفلات، وضيّع الجند، وأسقط كثيراً من خيرة الفرسان وثقل المغارم، وكثر الضّرائب في البلدان، ومكس الأسواق، ونهب الأموال، وشح بالعطاء إلى غير ذلك من الأمور التي لا يثبت معها الملك"[١].

كان للسلطان أبي الحسن ولدان: محمد ويوسف، وهما من بنت عمّه السّلطان أبي عبد الله الأيسر، وكان قد اصطفى على أمهما روميّة كان لها منه بعض ذريّة. وكانت حظيّة عنده مقرّبة في كل قضية، فخيف أن يقدّم أولاد الروميّة على أولاد بنت عمه السنيّة، وحدث بين خدّام الدّولة التنافر والتعصّب يميل بعضهم إلى أولاد الحرّة، وبعضهم إلى أولاد الروميّة[٢]. وكان ملك قشتالة يرقب الحوادث في مملكة غرناطة بمنتهى الاهتمام، فلما اضطربت نار الحرب الأهليّة بين المسلمين، ولاحت الفرصة للغزو سانحة؛ قرر بدء الحرب ضدّ غرناطة[٣].

ثار أبو عبد الله محمد الصغير على أبيه أبي الحسن وجلس مكانه على عرش غرناطة أواخر سنة ٨٨٧هـ/ ١٤٨٢م، وأطاعته غرناطة ووادي آش وأعمالها. وبقيت مالقة وغرب الأندلس على طاعة أبيه[٤].

ولم تتوقف الحروب بين القشتاليين والمسلمين، وكانت نتائجها بين نصر وهزيمة للمسلمين، إلاّ أنه وقعت معركة هائلة خسر فيها المسلمون وأسر ملكهم أبو عبد الله الصغير[٥]، فاجتمع كبراء غرناطة وأعيان الأندلس وذهبوا لمالقة للسّلطان أبي الحسن، وذهبوا به لغرناطة وبايعوه، مع أنه كان أصابه مثل الصرع إلى أن ذهب بصره، ولمّا تعذّر أمره قدم أخاه أبا عبد الله "الزّغل" ودفع له نفسه واستقل أخوه أبو عبد الله الزّغل بالملك بعده ٨٨٩هـ/ ١٤٨٤م[٦].

أطلق سراح أبي عبد الله الصغير في أواخر سنة ٨٩١هـ، بعد أن أخذ عليه ملكا قشتالة سائر العهود والمواثيق التي تكفل تحقيق سياستهما في القضاء على مملكة غرناطة. وكان مما سرّع في سقوط غرناطة الحرب الأهلية واضطراب الفتنة داخل غرناطة. وتمكن أبو عبد الله

---

(١) مجهول، آخر أيام غرناطة، نبذة العصر في انقضاء دولة بني نصر، ط١، (تحقيق محمد رضوان الداية)، دار حسان، دمشق، ١٩٨٤، ص٤٥.

(٢) انظر: المقري، نفح الطيب، ج٤، ص٥١٢.

(٣) انظر: عنان، نهاية الأندلس، ص٢٠١.

(٤) انظر: المصدر نفسه، ص٢٠٢.

(٥) انظر: المصدر نفسه، ص٢٠٣.

(٦) انظر: المقري، نفح الطيب، ج٤، ص٥١٥.

الصغير من التربع على عرش غرناطة سنة ٨٩٢هـ/ ١٤٨٦م، ولكنه لم يحكم تلك المـــدة ســـوى مملكة صغيرة.

وفي أواخر سنة ٨٩٦هـ، حاصرت قشتالة غرناطة، وأفسدت الزّرع، وهدمت القرى؛ فقل الطّعام واشتدّ الغلاء، وأدرك الجوع كثيراً من النّاس(١). واشتدّ الحصار بالمسلمين، " واستولى العدو على أكثر الأماكن خارج البلاد، ومنع المسلمين من الحرث والتسبب وضاق الحال، وبـــان الاخـــتلال، وعظـــم الخطب، وذلك أول عام سبعة وتسعين وثمانمائة، وطمع العدو في الاستيلاء على غرناطـــة، بـــسبب الجوع والغلاء دون الحرب"(٢). وكان لهم هذافسقطت غرناطة آخر معقل للعرب في الأنـــدلس ســـنة ٨٩٧هـ/ ١٤٩٢م، ولفظت الدولة النصرية آخر أنفاسها، وغربت شمس الإسلام عن الأندلس.

جاء سقوط غرناطة نتيجة حتمية للحال التي وصل إليها الحكم فيها، فقد كان كل ملك يطمـــع أن يبقى السّلطان والحكم له، فاتّبع كل الوسائل لتحقيق ذلك، فقد حارب بعضهم بعضاً وكاد بعضهم لبعض، وقد اضطر أحدهم لمعاهدة قشتالة لتقف بجانبه وتحافظ له على ملكه. يضاف إلى ذلـــك أنّ المسلمين بالأندلس استنجدوا بملوك المسلمين في أنحاء العالم من مغاربة ومصريين وأتـــراك، فلـــم يغيثوهم، ونظرت كل مملكة إلى نفسها واقتصرت على حل مشاكلها، في حين اتحد النّصارى فـــي وجه المسلمين، وتعاونوا على طردهم من الأندلس وإعادتها مملكة نصرانيّة كما كانـــت فاجتمعـــت الألفة والقوّة والحماسة على الضّعف والتفرّق والتخاذل فكان سقوط غرناطة نتيجة طبيعيّـــة لهـــذا كله(٣).

الحياة الاقتصادية:

ازدهرت الحياة الاقتصادية في مملكة غرناطة في بادىء الأمر، وكانت غرناطة على حال من الرّخاء المادي والاقتصادي لتوفر الخيرات، وكثرة الجباية، وازدهار التجـــارة والـــصناعة، وإنّ بساتين غرناطة كانت تدر على أهلها نعماً وفيرة تكفيهم وتزيد عن حاجتهم.

اهتم سكان مملكة غرناطة بالزراعة، فكانت منذ أيّام الدولة الأندلسيّة الكبرى مـــن أعظـــم موارد الأندلس. وقد برع الغرناطيون في فلاحة الأرض وتربية المواشـــي وغـــرس الحـــدائق وتنظيم طرق الرّي، ومعرفة أحوال الجو، وكل ما يتعلّق بفنون الزراعة وخواص النّبات. وكانت حدائقهم ومزارعهم مضرب الأمثال في الجودة والنماء، وقد نقل العرب من المـــشرق وشـــمال

---

(١) انظر: مجهول، آخر أيام غرناطة، ص١٢١.

(٢) المقري، نفح الطيب، ج٤، ص٥٢٤.

(٣) انظر: أمين، أحمد(١٩٥٩)، ظهر الإسلام، ط٢، دار النهضة المصرية، القاهرة، ج٣، ص٤٦– ٤٧.

إفريقيا إلى إسبانيا كثيراً من الأشجار والمحاصيل كالقطن، والأرز، وقصب السكر، والزعفران والنخيل، إضافةً إلى ما كان فيها من القمح، والزّيتون، والبرتقال، والتوت والكروم. واشتهرت ألمرية ومالقة بالبرتقال، ووادي آش باللوز، وغرناطة بالرّمان، والمنكب بالتين، والجزيرة بالتمور، ومرتفعات المملكة بالتفاح والأجاص والكرز والجوز والكستناء، كما كثرت جنائن الموز وقصب السكر في المرج والسهول المحاذية للشاطىء.

وكان للزراعة نظامها المعروف الذي كان يطبق في معظم المناطق الأندلسيّة، فكانت تُقام العقود بين صاحب الأرض والمزارع لعدّة سنوات، وذلك وفق شروط معيّنة، منها؛ أن يقدّم المالك للمزارع الأرض والبذار، وبالمقابل يتعهد المزارع بتأمين النّفقات وشراء الحيوانات ودفع أجور العمّال وتأمين الحراثة والزراعة والحصاد واقتسام المحصول مناصفة وغير ذلك[١].

وكانت هذه العقود والاتفاقات على أنواع منها: "المزارعة" التي شملت الحبوب من قمح وشعير وذرة وغيرها و "المغارسة" التي اهتمت بالأشجار المثمرة والبساتين على أنواعها، و "المساقاة" التي عنيت بالخضار والمزروعات الموسمية التي تحتاج إلى الرّي[٢].

واهتم الغرناطيون بتربية الماشية واشتهرت مزارع الخيول العربيّة الأصيلة التي أولاها الغرناطيون عناية خاصّة، كما اهتموا بسائر الحيوانات كالبقر، والغنم، والنحل، والطيور على أنواعها وخاصة الدجاج والحمام[٣].

وفي مجال الصناعة، استطاع الغرناطيون المحافظة على كثير من الصناعات الأندلسيّة القديمة، وتفرّدوا بحقول متعددة، فاستمرت غرناطة مركزاً عظيماً لصناعة الأسلحة والخناجر والدّروع والرّماح، كانت تصدرها إلى الشّرق والغرب. كما استمرت صناعة الحرير على تقدّمها وازدهارها ولا سيما في مالقة وألمرية، وكانت يومئذٍ من أعظم موارد الأندلس، وكانت مدينة فيرنتزا (فلورنس) تستورد كميّات كبيرة من الحرير الخام من غرناطة حتى أواخر القرن الخامس عشر[٤].

---

(١) انظر: فرحات، غرناطة في ظل بني الأحمر، ص١٤٣.

(٢) انظر: عنان، نهاية الأندلس، ١٤٤.

(٣) انظر: فرحات، غرناطة في ظل بني الأحمر، ص١٤٢؛ والدوسري، الحياة الاجتماعية في غرناطة، ص٢٩٣.

(٤) انظر: عنان، نهاية الأندلس، ص٤٤٧.

كما لاقت حياكة السجّاد وأصناف البسط والحُصر إقبالاً من الغرناطيين، ومن الصّناعات الأخرى التي لا تقل أهميّة عن المعادن والأقمشة صناعة دبغ الجلود ونقشها وتحويلها إلى أحزمة وأحذية وسروج وأغماد للسيوف وسائر الأوعية الجلديّة(١).

وأتقن الأندلسيون صناعة الخزف الذي استعمل في حقل البناء وتزيين الواجهات ومداخل القصور، كما استعمل الخزف في الأواني المزخرفة التي ما زالت المناطق الأندلسيّة تغصّ بكثير منها(٢).

واشتهرت الأندلس بصناعة الورق، ولا سيما في مدينة شاطبة، وأنشئت له المصانع العظيمة، ونقلها الإسبان عن المسلمين، ثمّ انتقلت إلى أوروبا عن طريق فرنسا، وذاعت فيها منذ القرن الثالث عشر. واستخدم القطن والكتّان في صناعة الورق(٣). كما استخدم الغرناطيون العاج المستورد من المناطق الإفريقيّة في صناعة الصناديق الصغيرة وعلب العطور وأحجار الشطرنج وغيرها(٤).

واشتهرت شبه الجزيرة الإيبيرية منذ القدم بوفرة مناجم الفضّة والرّصاص والحديد والزّنك فيها(٥). وفي العهد النّصري استخرج الرّصاص من مناجم برجة وتعدّدت مناجم الحديد في منطقتي ألمرية ووادي آش، ووجد الذهب في ضواحي غرناطة كما كثرت مقالع الرّخام(٦).

وتعدّ الأسماك من الثروات الطبيعيّة التي كانت مصدر رزق لسكّان الشواطيء الأندلسيّة. كما أنّ إنتاج الطون كان من الصّناعات المعروفة في مالقة، لكن وسائل الصيد البدائيّة لم تجعل من السّمك مورداً حيوياً كافياً لسدّ حاجات السكان المعيشيّة(٧). وكانت غرناطة تضطر لاستيراده خاصّة عندما اقتربت من نهايتها بسبب ضغط النّصارى الّذين أصبحت سفنهم تجوب السّواحل المتوسطية والمضيق(٨).

كما عرفت غرناطة صناعة الخشب، فقد اشتهرت مدينة ألمرية بصناعة السّفن والمراكب من خشب أشجار الصنوبر التي كانت تكسو جبل الثلج. ووجد فيها دار لصناعة السفن في عهد دولة بني

---

(١) انظر: فرحات، غرناطة في ظل بني الأحمر، ص١٤٦.

(٢) انظر: عنان، نهاية الأندلس، ص٤٤٧؛ وفرحات، غرناطة في ظلّ بني الأحمر، ص ١٤٦– ١٤٧.

(٣) انظر: عنان، نهاية الأندلس، ص٤٢٧؛ وفرحات، غرناطة في ظل بني الأحمر، ص١٤٧.

(٤) انظر: فرحات، غرناطة في ظل بني الأحمر، ص١٤٧.

(٥) انظر: الحميري، الروض المعطار، ص٤٦.

(٦) انظر: فرحات، غرناطة في ظل بني الأحمر، ص١٤٣.

(٧) انظر: المصدر نفسه، ص١٤٥.

(٨) انظر: الدوسري، الحياة الاجتماعية في غرناطة، ص٢٩٤.

نصر. وبالإضافة إلى صناعة السفن من الخشب، صنعت المنابر وأسقف قصور الحمـــراء والنوافـــذ وغيرها. واشتهرت مدينة إلبيرة بصناعة السكّر لتوافر مادّة قصب السكر فيها[١].

كانت التجارة في العهد النصري _ كما في سابقه _ على ضـــربين داخليـــة وخارجيّـــة. ونعني بالتجارة الداخليّة هي المعاملات التجاريّة التي تتم بين مختلف مدن مملكة غرناطة، حيث تعرض كل منها بضائعها تبعاً لشهرتها في سلعة من السّلع أو صناعة من الصّناعات في أسواق منتظمة داخليّة. وكانت غرناطة العاصمة من أكبر الأسواق التجاريّة، وكانت فيها أسواق تعرف باسم "القيسارية"، وهي سوق مسقوفة تباع فيها الأقمـــشة والمنـــسوجات الحريريّـــة الأندلـــسيّة الرفيعة[٢].

أمّا التجارة الخارجيّة فقد بلغت شأواً بعيداً في غرناطة، وذلك لحـــسن موقعهـــا وكثـــرة ثغورها وتوسطها بين أوروبا وإفريقيا وانتظام صلاتها البحريّة مع سائر ثغور البحر المتوســـط، وكانت علائقها التجارية تمتد حتى القسطنطينية، وثغور الشام والإسكندرية وترسو سفنها التجاريّة فـــي الثغور الإيطاليّة. وكانت ثغورها تزخر بمختلف الواردات من بلاد أوروبا وإفريقيا والمشرق[٣].

وكانت المراكب التجاريّة تحمل الحرير الخام من مدن المملكة إلى موانيء المتوسط فـــي إيطاليا وفرنسا وأراغون وإفريقيا، كما كان السكر يغلّف ويوضع داخل صناديق قبل تصديره إلى الإمارات الإسبانية والبلدان المتوسطية الغربية. ومن الصادرات الغرناطية المعـــادن المـــصنّعة والعطور والحلي والزعفران والرّخام.

أمّا السّلع المستوردة فكانت متنوعة، وأهمها الأفاوية والأبهار كالفلفل، والجوز، والقرفـــة، والبخور والأصباغ من الشّرق[٤]. وكانت المملكة تستورد الأرز من بلنسية والزّيت من قـــشتالة، والقمح من بلاد المغرب والسّمن والجلود وقطعان البقر والغنم من إفريقيا[٥].

وكانت نقود المملكة دراهم فضيّة مربّعة، ثمّ سكّت من الذّهب. ورسم المربـــع علـــى الـــدنانير الذهبيّة المستديرة، وكانت النّقود تحمل كتابات معروفة، فعدا الإشارة إلى القيمة كتبـــت علـــى الوجـــه الأوّل الآية الكريمة "لا إله إلاّ الله"، وعلى الوجه الثّاني شعار بني الأحمر "ولا غالب إلاّ الله". وفي هذا

---

(١) انظر: الدوسري، الحياة الاجتماعية في غرناطة، ص٣٠٤.

(٢) انظر: المصدر نفسه، ص٣٠٦.

(٣) انظر: عنان، نهاية الأندلس، ص٤٤٧– ٤٤٨.

(٤) انظر: فرحات، غرناطة في ظل بني الأحمر، ص١٤٧– ١٤٩.

(٥) انظر: المصدر نفسه، ص١٤٩– ١٥١.

يقول ابن الخطيب "وصرفهم فضّة خالصة، وذهب إبريز طيّب محفوظ، ودرهم مربّع الشكل، من وزن المهدي القائم بدولة الموحّدين، في الأوقية منه سبعون درهما، يختلف الكتب فيه. فعلى عهدنا، في شق "لا إله إلاّ الله، محمد رسول الله" وفي شق آخر "لا غالب إلاّ الله، غرناطة"(١).

وخلاصة القول إنّ الحياة الاقتصادية في مملكة غرناطة كانت مزدهرة، إلا أن الحروب المتواصلة مع الإسبان أثقلت كاهل الناس بعامة والتجار بخاصة بكثرة الضرائب المفروضة عليهم، وأصيب الاقتصاد بهزّات أعاقت ازدهاره(٢).

الحياة الاجتماعية:

تكوّن المجتمع الغرناطي من عناصر بشريّة متعدّدة أهمها: العرب، والبربر، واليهود، والنّصارى والمستعربون، والمولدون، والصقالبة. وكان بغرناطة جملة من فقراء العجم استوطنوها لشبهها ببلادهم، منهم الحاج أبو عبد الله السمرقندي، والحاج التبريزي والحاج إبراهيم الفونوي وغيرهم(٣).

والمجتمع الغرناطي مجتمع طبقي فيه الأحرار والعبيد، والخاصة والعامة، والخاصة هم التجار وكبار الملاكين والمترفون، أما العامة فهم العمال والفلاحون والأجراء، وغيرهم من السكان البسطاء، وقد ازداد عدد السّكان في مملكة غرناطة ازدياداً كبيراً بسبب سيل المهاجرين إليها من مسلمي بلنسية، ومرسية، وجيان، وإشبيلية، وقرطبة وغيرها من قواعد الأندلس التي كانت تسقط في يد الإسبان(٤)، ومن المرجّح أنّ مملكة غرناطة كانت تضم في عصورها الأخيرة زهاء خمسة أو ستة ملايين من الأنفس، وكانت غرناطة وحدها تضم أكثر من نصف مليون نفس(٥).

ومن أهم طبقات المجتمع الغرناطي طبقة العلماء والفقهاء، فقد كان العالم موضعاً للتكريم والاحترام من جيرانه، حتى إنهم كانوا يعاملونه بخصوصية إذا ما أراد شيئاً ما، وكان للفقهاء خاصة حضور مميز في غرناطة، يشاركون في الحكم، ويصوغون القرارات، وكان الحكام يهتمون ببعض رجال الدين، والتبرك بهم.

---

(١) انظر: لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص١٣٧– ١٣٨.

(٢) انظر: فرحات، غرناطة في ظل بني الأحمر، ص١٥١.

(٣) انظر: ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص٧٦٨.

(٤) انظر: الطوخي، مظاهر الحضارة في الأندلس، ص٧٠.

(٥) انظر: عنان، نهاية الأندلس، ص٧٠.

وقد كان للمجتمع الأندلسي ميزات باهرة وصفات طيّبة تميّزه عن كثير من المجتمعات الإسلاميّة الأخرى ما بين علم ودين، وثقافة، وعمل ونظافة، وأناقة وترتيب في أحوال المعيشة، وحبّ للعدل، وإنكار للفوضى وإجلال للعلماء، إلى غير ذلك من الصّفات الحميدة التي إن توافرت في شعب من الشّعوب وضعته في مرتبة سامية، ودفعت به إلى مدارج التقدّم والازدهار[١].

لم يعرف المجتمع الأندلسيّ التعصّب الديني من جانب المسلمين، فقد تركوا لأهل الكتاب من نصارى ويهود حريّة العقيدة والتعبّد، وقد وجدوا في الأندلس ما وجده بنو جلدتهم في المشرق من سماحة الإسلام، وحسن المعاملة، وإفساح الفرص أمامهم في كل اتجاه. وقد ساهم اليهود في النّشاط الاقتصادي لمملكة غرناطة، خاصّة في صناعة الحلي وأدّوا دور التجّار الوسطاء بين سكان غرناطة والتجار الجنوبيين الّذين نشطت تجارتهم مع مملكة غرناطة[٢].

كذلك حال المسيحيين، فقد كان لهم دور بارز في الحركة التجاريّة رغم قلّة عددهم، واستقرّ أغلب التجّار منهم في المناطق الحدوديّة، وساهموا في تنشيط الحركة التجاريّة فيها خاصّة ألمرية[٣]. كما احتل كثير من المسيحيين واليهود مراكز سامية في الحكم، وتسلّموا مراتب ممتازة في الحياة العامّة، فكان منهم الوزراء والشّعراء والأطبّاء والموسيقيون[٤].

كان لباس أهل غرناطة الغالب في الشّتاء الملف المصبوغ، أمّا في الصّيف فكانوا يرتدون الكتّان والقطن والمآزر. قال ابن الخطيب في ذلك: "ولباسهم على طبقاتهم الفاشي بينهم الملف المصبغ شتاء، تتفاضل أجناس البزز منه بتفاضل الجدات والمقادير. والكتان، والحرير، والقطن، والمرعزّي، والأرديّة، الإفريقية والمقاطع التونسيّة، والمآزر صيفاً. فتبصرهم في المساجد أيام الجمع كأنهم الأزهار المفتّحة في البطاح الكريمة تحت الأهوية المعتدلة"[٥].

أمّا اليهود، فقد جعل لهم لباس يميزهم عن سائر النّاس من المسلمين، فكانوا يعتمرون "قلنسوة صفراء؛ إذ لا سبيل ليهودي أن يتعمّم البتّة"[٦].

---

(١) انظر: الشكعة، مصطفى(١٩٧٢)، الأدب الأندلسي: موضوعاته وفنونه، دار النهضة، بيروت، ص٦٩.

(٢) انظر: الدوسري، الحياة الاجتماعية في غرناطة، ص٨٥.

(٣) انظر: المصدر نفسه، ص٧٤.

(٤) انظر: مصطفى الشكعة، الأدب الأندلسي، ص٧١.

(٥) لسان الدين بن الخطيب، اللحمة البدرية، ص٣٨- ٣٩؛ الإحاطة، ج١، ص١٣٤- ١٣٥.

(٦) المقري، نفح الطيب، ج١، ص١٢٣.

ورغم الشدائد والمحن والفتن الداخلية والانقسامات التي ذكرها التـــاريخ عـــن المجتمـــع الغرناطي، إلا أن الشّعب الغرناطي يتمتع بصفات أخلاقيّة طيبة، كما وُصف بالرقة والحـــلاوة، "وطاعتهم للأمراء محكمة، وأخلاقهم من احتمال المعاون الجبائية جميلة، صورهم حسنة وأنوفهم معتدلة غير حادّة، وشعورهم سود مرسلة، وقدودهم متوسطة معتدلة إلى القصر، وألوانهم زهـــر مشربة بحمرة، وألسنتهم فصيحة عربيّة، يتخللها غرب كثير وتغلب عليهم الإمالة، وأخلاقهم أبيّة في معاني المنازعات وأنسابهم عربيّة، وفيهم من البربر والمهاجرة كثير"(١).

وعُرف الغرناطيون برقة الطّباع، والميل إلى اللهو والمرح، والتمتـــع بمبـــاهج الحيـــاة، وأغرموا بالغزل، وحضور حفلات الأنس والطرب(٢). وكثرت الاحتفالات التي كانت تـــستغرق شطراً كبيراً من الليل، وذلك في مواسم الأعياد ومناسبات الزّفاف وغيرها، فـ"أعيادهم حـــسنة مائلة إلى الاقتصاد، والغناء بمدينتهم فاش حتى بالدكاكين التي تجمع كثيراً من الأحداث"(٣).

تميّزت المرأة الغرناطيّة بالجمال، والنّعومة، والرائحة الطيّبة، وخفّـــة الحركـــة، وحـــسن المحاورة " وحريمهم حريم جميل، موصوف باعتدال السّمن، وتنعم الجسوم، واسترسال الشّعور، ونقاء الثّغور، وطيب الشذا، وخفة الحركات ونبل الكلام، وحسن المحاورة. إلاّ أنّ الطّول ينـــدر فيهن، وقد بلغن من التفنّن في الزّينة لهذا العهد، والمظاهرة بين المـــصبغات، والتنـــافس فـــي الذهبيات والديباجات، والتماجن في أشكال الحلي إلى غاية بعيدة"(٤).

ونعمت المرأة بقدر جيد من الحريّة الاجتماعيّة التي سمحت لها بالمشاركة في ميـــادين الحيـــاة كلها، واختلطت بالرّجل في كثير من المناسبات العامّة وأوقات الصلوات وحفلات الفروسيّة والزّفـــاف وغيرها(٥).

الحياة الثقافية:

مرّت الحياة الثقافيّة في غرناطة في أوائل القرن السابع في مرحلـــة مـــن عـــدم الاســـتقرار والتصدّع، وذلك بسبب هجرة كثير من العلماء والمفكرين منها، من أمثال حازم القرطاجني، وابـــن الأبار، وأبو حيان الغرناطي، وغيرهم، لما كانت تعيشه من أوضاع سياسيّة مـــضطربة، وســـقوط

---

(١) لسان الدين بن الخطيب، اللمحة البدرية، ص٣٨؛ الإحاطة، ج١، ص١٣٤.

(٢) انظر: يازجي، سراب (١٩٩٢م)، الغزل في الشعر الأندلسي في ظل بني الأحمر، رسالة دكتـــوراه غيـــر منشورة، جامعة دمشق، دمشق، سوريا، ص١٦- ١٧.

(٣) لسان الدين بن الخطيب، اللمحة البدرية، ص٤٠.

(٤) لسان الدين بن الخطيب، اللمحة البدرية، ص٤١.

(٥) انظر: عنان، نهاية الأندلس، ص٤٥١.

العديد من القواعد الأندلسيّة في يد النّصارى، ولاشتعال الفتن الداخليّة فيها إلى أن قامت مملكة غرناطة على يد محمد بن يوسف ابن الأحمر، فأعاد لها الحياة واستعادت الحياة الثقافية قوّتها وازدهارها[١].

وممّا ساعد على بثّ الحياة من جديد في الحياة الثقافيّة في غرناطة ما عُرف عن بني الأحمر من حبّ للعلوم والآداب، وتشجيعهم للعلماء والأدباء، إضافة إلى انضمام كثير من العلماء والأدباء الّذين سقطت بلادهم في يد النّصارى إلى أهل غرناطة[٢].

كان ملوك غرناطة جريا على سنن ملوك الأندلس السّابقين من حماة العلوم والآداب. وكان أمراء بني الأحمر أنفسهم في طليعة العلماء والأدباء، واشتهر عميدهم ومؤسّس دولتهم محمد ابن الأحمر (٦٣٥- ٦٧١ه) بحمايته للعلم والأدب، فقد كان الشّاعر صالح بن شريف الرندي من خاصّة شعرائه والأثير لديه[٣].

وكان الأمير محمد الفقيه (٦٧١- ٧٠١ه) يرعى العلماء والشعراء، وعرف باسم الفقيه لدراسته الفقه أيام أبيه وشغفه به. وممّا يدلّ على حبّه للعلم بمختلف فروعه استقدامه لمحمد بن إبراهيم الأوسي ومحمد بن أحمد الرقوطي من مرسية كي يدرّسا للطلاب في غرناطة العلوم الطبيّة والفلسفيّة[٤].

وبلغت الحركة الفكريّة والأدبية ذروة ازدهارها في مملكة غرناطة في عصر السّلطان أبي الحجّاج يوسف بن إسماعيل النصري (٧٣٣- ٧٥٥ه)، وولده السّلطان محمد الغني بالله (٧٥٥- ٧٩٣ه). وكان السّلطان أبو الحجّاج نفسه عالماً أديباً يشغف بالفنون[٥]، وقد أنشأ لأوّل مرّة في غرناطة مدرسة سمّاها المدرسة النصريّة[٦].

(١) انظر: بهجب، منجد مصطفى(١٩٨٨)، الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة، مديرية دار الكتب، الموصل، ص١٩٣.

(٢) انظر: الركابي، جودت(١٩٦٦)، في الأدب الأندلسي، دار المعارف، القاهرة، ص٥٨.

(٣) انظر: عنان، نهاية الأندلس، ص٤٦٠.

(٤) انظر: ضيف، شوقي (د.ت)، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات في الأندلس، ط٢، دار المعارف، القاهرة، ص ٦٩.

(٥) انظر: عنان، نهاية الأندلس، ص٤٦١.

(٦) انظر: ضيف، تاريخ الأدب العربي، ص٦٩.

واشتهر الأمير أبو الوليد إسماعيل بن السّلطان يوسف الثاني "ابن الأحمر" (٨٠٧هـ) بأدبه وبارع نثره، وهو صاحب كتاب "نثير الجمان في شعر من نظمني وإياه الزّمان"، الّذي يتــرجم فيه لأعلام عصره[١].

وأبرز العلوم التّي حظيت بعناية الحكّام ومؤازرتهم لأصحابها، العلوم الإسلاميّة المختصّة بالقرآن الكريم والحديث الشّريف كعلوم القراءات والتّفسير والفقه. فمن علماء التفــسير ابــن جــزي الكلبــي الغرناطي (٧٤١هـ)، وأبو حيّان الغرناطي (٧٤٥هـ). وقد اشتهر بالعلوم الدينية محمد بن عاصم القيــسي الغرناطي، وله مؤلفات كثيرة[٢].

وفي مجال التّاريخ نبغ الوزير لسان الدّين ابن الخطيب (٧٧٦هـ)، كانت له كتابات عديدة مثــل "اللمحة البدريّة في الدولة النصريّة" و "الإحاطة في أخبــار غرناطــة" و"نفاضــة الجــراب وعلالــة الاغتراب" وغيرها. كما ألّف أبو البركات البلفيقي كتابه "تاريخ ألمرية وباجة"، وألــف ابــن الأحمــر "روضة النسرين في دولة بني مرين" وابن خاتمة الأنصاري (٧٧٠هـ) الذي ألّف "مزية ألمريــة علــى غيرها من البلاد الأندلسيّة"[٣].

ونالت كتب التراجم غايتها من الرّعاية والاهتمام فألّف ابن الخطيب "الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المئة الثّامنة" و "الإحاطة"، وألف ابن الأحمر "نثير الجمان" و "نثير فرائد الجمان"، وألف القاضي النّباهي (بعد ٧٩٢هـ) "المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا"[٤].

---

(١) انظر: عنان، نهاية الأندلس، ص٤٦١.

(٢) انظر: بهجت، الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة، ص١٩٣.

(٣) انظر: النقراط، علي محمد(١٩٩٢)، ابن الجياب الغرناطي، حياته وشعره، ط١، الدار الجماهيرية، بنغازي، ص٨٢.

(٤) انظر: المصدر نفسه، ص٨٢.

أمّا في أدب الرّحلات فنجد أبا البقاء خالد بن عيسى البلوي (بعد ٧٦٧ه) الّذي دون رحلته في كتاب سمّاه "تاج المفرق في تحلية علماء المشرق"[١].

وفي مجال الجغرافية: قدّم كثير من المؤرّخين الأندلسيين لمؤلفاتهم عن تاريخ الأندلس أو عن رجالها بمقدمات جغرافيّة. فقد قدّم ابن سعيد (ت٦٨٢ه) للقسم الأندلسي من كتابه "المُغـرب في حُلى المَغرب" بمقدمة جغرافيّة نفيسة سقطت أوراقها منه، غير أنّ المقرّي احتفظ بها في النفح. وله في الجغرافيا كتاب مجمل سمّاه "كتاب بسط الأرض في الطول والعرض".

وللسان الدين ابن الخطيب مقدّمات جغرافيّة في وصف غرناطة لكتابيه "الإحاطة في تاريخ غرناطة" و "اللمحة البدريّة في الدولة النصريّة". كما ألف محمد بن عبد المنعم الحميري (٩٠٠ه) كتابه "الرّوض المعطار في خبر الأقطار" الّذي يعدّ معجماً جغرافيّاً[٢].

شهدت الحركة الأدبيّة (الأدب والشّعر والعلوم اللغويّة) اهتماماً ملحوظاً في مملكة غرناطة، فقد حفل عهد بني الأحمر بعدد من الشّعراء والأدباء، وشهدت البلاد على عهدهم نهضة أدبيّة وشعريّة خاصّة في القرن الثامن الهجري؛ إذ ظهرت طائفة من أكابر المفكرين والشّعراء الّذين أعادوا الحياة للأدب الأندلسي، مثل: ابن خاتمة الأنصاري شاعر ألمرية، والوزير أبي عبد الله بن الحكيم اللخمي. والوزير أبي الحسن بن الجياب (٧٤٩ه)، والوزير لسان الدين ابن الخطيب. والوزير ابن زمرك (٧٩٥ه)[٣]، وغيرهم.

ولم يقتصر نظم الشّعر على الوزراء والعامّة فقط، فقد كان في حكّام دولة بني الأحمر من ينظمه أمثال محمد الثاني (٧٠١ه)، ومحمد الثالث (٧٠٨ه) اللذين كانا ينظمان الشّعر ويحتفيان بأهله ويعقدان المجالس الأدبيّة[٤]. ومن شعراء القرن التاسع الهجري عبد الكريم بن محمد القيسي (وهو آخر شعراء غرناطة).

ونبغ في علوم اللغة أبو بكر محمد بن إدريس الفراني القضاعي (٧٠٧ه)، وله في علم العروض كتاب "الختام المفضوض عن خلاصة علم العروض"، ومنهم أبو جعفر أحمد بن

---

(١) انظر: الدوسري، الحياة الاجتماعية في غرناطة، ص٢٥٦.

(٢) انظر: ضيف، تاريخ الأدب العربي، ص٩٠- ٩١؛ والداية؛ محمد رضوان(٢٠٠٠)، في الأدب الأندلسي، ط١، دار الفكر، بيروت، ص٤٦.

(٣) انظر: الدوسري، الحياة الاجتماعية في غرناطة، ص٢٣٢.

(٤) انظر: بهجب، الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة، ص١٩٣.

إبراهيم بن الزبير الحافظ النحوي (٧٠٨هـ) [١]. وأبو حيّان الغرناطي، وابن آجروم محمد بن داود الصنهاجي (٧٢٣هـ)، وأبو عبد الله محمد بن علي الفخّار (٧٥٣هـ) وغيرهم[٢].

وتظلّ عناية الأندلسيين بالطّب متّصلة زمن بني الأحمر فقد اشتهر يحيى بن هذيل (٧٥٣هـ) بالطبّ. وألّف ابن خاتمة الأنصاري رسالة في وصف وباء الطّاعون الّذي ضرب ببعض مدن الأندلس عام (٧٤٩هـ) سمّاه "تحصيل القاصد في تفصيل المرض الوافد". كما ألّف لسان الدين ابن الخطيب في الطبّ كتباً عديدة منها: "رسالة تكوين الجنين" و "مقنعة السائل في المرض الهائل"، وله كتاب في جزئين عن الأمراض والحميات والجراحة[٣].

وفي علم الصيدلة وصناعة الأدوية أسهم الأندلسيون في فصل هذا العلم عن علم الطّب، ومن العلماء الذين برزوا في هذا العلم ابن الرومية الإشبيلي (٦٣٧هـ) الذي اهتم بدراسة النباتات الطبيّة، وتلميذه ابن البيطار (٦٤٦هـ) صاحب كتاب "الجامع لمفردات الأغذية والأدوية"[٤].

كما نبغ في غرناطة نفر غير قليل في الريّاضيات والهندسة والفلك، فقد برع علي بن محمد القَلَصَادي (٨٩١هـ) في الرّياضيات ووصل صيته إلى المغرب والمشرق[٥]. ولمع في مجال الهندسة والرّياضات محمد بن الرقاح المرسي ونال شهرة كبيرة في مجال تخصّصه. ومن الّذين اهتموا بعلم الفلك أبو يحيى ابن رضوان الوادي آشي، وله كتاب "المنظوم في علم النّجوم" ورسالة في "الاسطرلاب والعمل به"[٦].

أمّا الفلسفة فقد كانت من الدّراسات غير المرغوب فيها في الأندلس، فقد استمر سلطان الفقهاء على منتحلي هذا العلم بازدرائها والطّعن في أصحابها. وقد نال خصوم لسان الدين منه بهذه الحجّة وأحرقوا كتبه بمحضر من الفقهاء والمدرّسين من العلماء كما ذكر القاضي النباهي لما تضمنته هذه الكتب من أمور تتعلّق بالعقائد والأخلاق أوجبت ذلك عندهم [٧].

---

(١) انظر: المصدر نفسه، ص٤٦٦.

(٢) انظر: ابن الأحمر، نثير فرائد الجمان، ص٥٦.

(٣) انظر: ابن الأحمر، نثير فرائد الجمان، ص٥٠. وضيف، تاريخ الأدب العربي، ص٦٩. والنقراط، ابن الجياب الغرناطي، ص٨٣.

(٤) انظر: الداية، في الأدب الأندلسي، ص٤٤.

(٥) انظر: الداية، في الأدب الأندلسي، ص٤٤.

(٦) انظر: النقراط، ابن الجياب الغرناطي، ص٨٣.

(٧) انظر: بهجت، الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة، ص١٩٤.

وازدهرت الفنون في مملكة غرناطة، وكان بنو الأحمر حماة كرماء للفنون، وقد بلغ الفنّ الأندلسي في هذا العصر ذروة التحرّر والافتنان أيضاً. وتوسّع الفنّانون المسلمون في تصميم المناظر والرّسوم، وما قصر الحمراء وما يحتويه من النّقوش والزّخارف والصّور الفريدة إلاّ شاهداً حيّاً على ما وصلت إليه العمارة الإسلامية وروعة الفنّ الإسلامي في الأندلس. كما اشتهرت الموسيقى في غرناطة وكان لها أثرها في تطوّر الموسيقى الغربيّة[١].

ومنذ منتصف القرن التاسع الهجري اضمحلت الحركة الفكريّة في مملكة غرناطة شيئاً فشيئاً، وذلك بسبب الأوضاع السياسيّة التي كانت تمر بها غرناطة في ذلك الوقت واشتعال الحرب الأهليّة[٢].

ممّا تقدّم يلحظ أنّ الحركة الفكريّة في غرناطة مرّت في ثلاث مراحل، فقد مرّت في مرحلة عدم الاستقرار والتصدّع في القرن السابع الهجري، ثمّ ازدهرت ونضجت في القرن الثامن الهجري، أمّا في القرن التاسع الهجري فنراها تسير نحو الانهيار والضياع.

الحياة الدينيّة:

اتخذ أهل غرناطة المذهب المالكي مذهباً لهم، وفي هذا يقول لسان الدين ابن الخطيب: "أحوال هذا القطر في الدّين وصلاح العقائد، أحوال سنية، والنِّحلُ فيهم معروفة، فمذاهبهم على مذهب مالك بن أنس إمام دار الهجرة جارية"[٣]. وكان لأتباع الغرناطيين جميعاً مذهب واحد وكان سبباً في تجنيبهم الوقوع في الخلافات الدينيّة؛ إذ يصدرون جميعاً عن آراء فقهيّة واحدة. فإنّ سيادة مذهب واحد هو مذهب مالك، وحمل السّلطان النّاس عليه بالرّضا والكره قلّل من المذاهب المخالفة للمذهب المالكي، وضيّق السّبل على مخالفي السنّة عموماً، وجعل النّاس من عامّة وعلماء يصدرون في الغالب من عاطفة واحدة ورأي واحد

وقد انتشر هذا المذهب في الأندلس على يد مجموعة من طلاب العلم الّذين تلقوا تعليمهم بالمشرق على يد الإمام مالك وغيره من كبار العلماء، وظلّت دراسات المذهب المالكي مستمرّة في الأندلس حتى نهاية الدّولة الإسلاميّة. وكان من علماء هذا المذهب العالم الفقيه أبو سعيد ابن فرج ابن لب (٧٨٢ه) الّذي كان له مكانة مرموقة وكلمة مسموعة. ومن تلاميذه الفقيه إبراهيم بن

(١) انظر: عنان، نهاية الأندلس، ص٥١٣.

(٢) انظر: المصدر نفسه، ص٤٨٨.

(٣) لسان الدين بن الخطيب، اللمحة البدرية، ص٣٨؛ الإحاطة، ج١، ص١٣٤.

موسى ابن محمد الغرناطي (٧٩٠ه) صاحب كتاب "أصول الفقه"، وابن سراج (٨٤٨ه)، وله فتاوى عديدة، ومحمد بن علي الفخّار الألبيري[١]، وغيرهم.

اهتم ملوك بني الأحمر بتطبيق الأحكام، فقد كانوا يحرصون على تطبيقها والالتزام بمبادئها، ومن مظاهر هذا الاهتمام اعتناؤهم بإنشاء المساجد بمدن وقرى المملكة، ومنها إصدار السّلطان أبي الحجّاج يوسف الأوّل قانوناً يلزم فيه أهل غرناطة بإقامة صلاة الجمعة في كل جهات المملكة. كما دعا إلى الإكثار من المساجد في القرى، مع مراعاة المسافة بينها وبين دور المصليّن، كما أكّد ضرورة المحافظة على قدسيّة المساجد واحترامها[٢]. كما اهتم أهل غرناطة بالأعياد الدينية.

ونتيجة للظّروف السياسيّة التي عاشها الغرناطيون، ومضايقات العدو المستمرة لهم، وتربصه بهم للقضاء على دينهم، وما كان ينتابهم من قلق وحسرة مريرة من سقوط أراضي المسلمين في أيدي العدو، ونتيجة للفتن الداخليّة التي كانت تستعر في بلادهم يوماً بعد آخر، ولحياة التّرف والمجون التي كان يعيشها بعضهم، ازدهرت نزعة الزّهد والتصوّف وشملت الكثير من أهل غرناطة الذين وجدوا في اللجوء إلى الله وابتغاء مرضاته أملاً في إنقاذهم ممّا هم فيه من حياة الضّنك والشّدّة، وأحسّوا بتفاهة الحياة فارتقوا بأنفسهم عن مباهج الحياة وزينتها، وعكفوا على أنفسهم يطهرونها من مفاسد الحياة الماديّة الزائلة [٣].

ولم يعرف المجتمع الغرناطي التعصّب الديني من جانب المسلمين، فقد تركوا لأهل الكتاب من نصارى ويهود حريّة العقيدة والتعبّد[٤].

يتجلّى بوضوح من خلال هذه الجولة السريعة في مختلف نواحي الحياة في غرناطة خلال القرنين ونصف القرن الأخيرين، أنّ غرناطة عاشت أبهى أيامها في عصر بني الأحمر، فقد لقيت الحياة الاقتصادية تقدماً وازدهاراً في مختلف مجالاتها الزراعية والصناعية والتجارية، كما امتازت حياتها الفكرية بالاهتمام بالعلم والأدب والمعرفة، وشهدت ولادة أشهر رجال الفكر والأدب والعلم. كل هذا الازدهار والتقدّم جرى تحت وطأة الأجواء السياسية المضطربة فهي تارة أجواء مستقرّة هادئة وتارة أخرى أجواء مضطربة تشتعل فيها الحروب والفتن.

(١) انظر: الدوسري، الحياة الاجتماعية في غرناطة، ص١٣٤.

(٢) انظر: المصدر نفسه، ص١٣٥.

(٣) انظر: الشكعة، الأدب الأندلسي، ص٥٤.

(٤) انظر: المصدر نفسه، ص٧٣.

الفصل الأول

التجليات الحضارية في الحياة الاجتماعية

مقدمة:

تعد الأسرة نواة المجتمع الأساسية وأهم لبناته، ومنبع حضارته ورقيه الأول؛ لأن الأسرة مدرسة الفرد الأولى، منها يستقي المثل والقيم، ومن والديه يتعلم عاداته وتقاليده، وعلى غرارهما ينهج طريقه، وجاء حثّ المجتمع الغرناطي _ مثل غيره من المجتمعات _ على الزواج حرصاً منه على سلامة المجتمع، وتحقيقاً لمقاصد الشريعة الإسلامية.

وقد سعى المجتمع الأندلسي إلى بناء الأسر، ومد يد العون لأفراده الراغبين بالزواج. وفي ذلك يقول ابن حزم في طوق الحمامة: " إنك لترى المرأة الصالحة الحسنة المنقطعة الرجاء من الرجال، وأحب أعمالها إليها وأرجاها للقبول سعيها في تزويج يتيمة" (١). وما دام الناس ينعمون بالأمن والرخاء فهم مقبلون على الزواج، ويتراجع ذاك الإقبال في أيام الفتن والنزاعات والحروب(٢).

وتعددت أساليب الأفراد في اختيار زوجاتهم، فاختار بعضهم الأسلوب التقليدي، ورأى بعضهم الآخر في الأسلوب المباشر والإعجاب غرضه، ومهما تنوعت أساليب الاختيار، فإن إجراءات الخطبة وخطواتها العملية المفضية إلى الزواج كانت تجري بخطوات شبيهة بما كان يحدث في معظم البلاد الإسلامية؛ فهي تبدأ بمناقشة موضوع المهر الذي ينبغي أن يدفعه الشاب، يعقبها تحديد تاريخ للزواج والاتفاق عليه، وربما استعان الأهل في هذا الصدد بمنجّم يقرأ الطّالع، ثمّ تبدأ الحفلات البهيجة التي تدوم أسبوعاً كاملاً(٣).

وكانت الأسرة الإسلامية في المجتمع الأندلسي من حيث وضعها الاقتصادي (المادي) على نوعين: الأسرة الغنية التي تلتقي فيها تحت سقف واحد زوجات عدّة ومجموعة من الجواري، وقد كثر فيها الإنجاب. والأسرة الفقيرة التي يكتفي الرجل فيها بامرأة واحدة لعدم قدرته على إعالة امرأتين أو أكثر(٤). إلاّ أنه من المرجّح أنّ الغالبية العظمى من الأندلسيين كانوا

---

(١) ابن حزم، علي بن أحمد (ت٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م)، طوق الحمامة في الألفة والألاف، ط١، (قدّم له وضبطه صلاح الدين الهواري)، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ٢٠٠٠م، ص٧٢.

(٢) انظر: النوش، حسن أحمد(د.ت)، التصوير الفني للحياة الاجتماعية في الشعر الأندلسي، دار الجيل، بيروت، ص١١٦.

(٣) المصدر نفسه، ص١٢١– ١٢٢.

(٤) انظر: فرحات، غرناطة في ظل بني الأحمر، ص١٢٠.

يكتفون بزوجة واحدة، تعمل بالتعاون مع الرجل داخل البيت وخارجه لتوفير الحياة الكريمة للأسـرة. وقد يعزّز هذا الترجيح ما ذكره ليڤي بروڤنسال عن الأندلسيين المهاجرين إلى المغرب أنّ نساءهم لا يعانين، أكثر الأوقات، من وجود ضرّة إلى جانبهن(١).

وعرف من أفراد المجتمع آنذاك من لا يشجع على الزواج ولا يحض عليه، حتـى بلـغ الأمر فيهم أن عدوه ذلاً ومهانة للرجل، فهذا الشيخ الخطيب أبو عبدالله بـن حربلـة(٢) ينـصح العازب بأن لا يتورط بالزواج حتى لا يذل نفساً اعتادت الفرح والعز، يقول(٣):

يا عازباً لا تذِلّ نَفْساً	**عَوَّدْتَها العِزَّ والفرحْ**
بزوجةٍ فالزَّواجُ ذلٌّ	**لو زُوِّجَ الكلبُ ما نَبَحْ**

وقد وجّه لسان الدين ابن الخطيب أشدّ أنواع الاستنكار والتفنيد له، ويرى أنه بموقفه هـذا يخالف سنن الكون ونهج الأمم، ويتجاهل كل الأدلة الشرعية الداعية إلى ضرورة تكوين الأسرة الإسلامية بما يضمن استمرار النسل وحفظه(٤).

وإذا كان الأدب يعكس الوجه الحقيقي لأي مجتمع من المجتمعات، وإذا كان الشعر يشكل وثيقة مهمة وصادقة تعين على كشف تجليات الحضارة التي يعيشها أبناء المجتمع، فـإن هـذا الفصل سيحاول من خلال نصوص الشعر الأندلسي في ظل بني الأحمر كشف جوانب الحضارة وتجلياتها في الحياة الاجتماعية من خلال الشعر الأندلسي في عصر بني الأحمر، وما هي أبرز صور تجليات الحضارة الاجتماعية في ذلك العصر.

---

(١) انظر: بروفنسال، ليـڤـي (د.ت)، حضارة العرب في الأندلس، (ترجمة ذوقان قرقوط)، دار مكتبة الحياة، بيروت، ص ٢٦.

(٢) أبو عبد الله بن حربلة: شيخ متطلب، خطب وأمّ، وعرج بربع الفضل، وتوفي عن خزانة كتـب أسـفارها عديدة، وأغراضها سديدة، وكان له شعر نزر. انظر: لسان الدين بن الخطيب، الكتيبة الكامنة فـي مَـنْ لقينـاه بالأندلس من شعراء المئة الثامنة، (تحقيق إحسان عباس)، دار الثقافة، بيروت، (د.ت)، ص٥٣- ٥٤.

(٣) لسان الدين بن الخطيب، الكتيبة الكامنة، ص٥٣- ٥٤.

(٤) انظر: المصدر نفسه، ص٥٤- ٥٥.

أولاً: العلاقات والروابط الأسرية:

الأب والزوج:

اضطلع الأب في الأندلس كغيره من الآباء بتربية أبنائه، وكان له الدور الأكبر في ذلك؛ ولم تتعدَّ مهمة المرأة في هذا الجانب سوى توفير الغذاء والراحة الجسدية لهم، ولعل مرد ذلك كون التوجيه الأخلاقي كان يستمد من الأب وآرائه[١]. وقد عبر الشعر الأندلسي عن دور الأب الحضاري في رعاية أبنائه، والسهر على رضاهم، والعمل على توفير سبل العيش الكريم لهم، ودرء الهموم عنهم، وأن الأب الأندلسي كان يشكل مصدر الأمان والطمأنينة لأبنائه، ويقوم بدور الموجه المعلم لهم، ويتجلى هذا الدور من خلال رثاء الشاعر الملك يوسف الثالث[٢] لوالده، يقول متسائلاً عن الصبر لفقده والده[٣]:

خليليَّ أينَ الصبرُ منا ويوسف	**وأين أياديه الكريمةُ تُصْرَفُ**
وأين ليالٍ بالسبيكةِ نِمْتُها	**ولا منظم للدهر نحوي يُطْرَفُ**
عليَّ ظِلالٌ من عنايةِ يوسف	**ودنا حسامُ للخلافة مُرْهفُ**
تباكرني تَتْرى عوارِفُه ضُحى	**وَينتابني تسآله والتعرفُ**
فلا همةٌ للقلبِ فيها تهمم	**ولا كلفة للنفس فيها تكَلّفُ**
وحاجاتُ نفسٍ لم أراقِبْ مكانها	**فكان لها منه الرّضا والتّعَطّفُ**

---

(١) انظر: فرحات، غرناطة في ظل بني الأحمر، ص١٢٣.

(٢) وهو السلطان أبو الحجاج يوسف بن يوسف حفيد السلطان الغني بالله محمد الخامس، ولد عام (٧٧٨هـ) ونشأ في رعاية الغني بالله وتلقى ثقافة علمية وأدبية عالية وقرأ على بعض الشيوخ من بني جزي وغيرهم، وهو شاعر من ملوك غرناطة، لما توفي أبوه كان ولي عهده فأبعده أخ له أصغر منه واسمه محمد وحبسه في قلعة في شلوبانية من أعمال غرناطة نحو ١٤ سنة، تولى الحكم بعد وفاة أ خيه محمد سنة (٨١١هـ) ودام حكمه ٩ أعوام، تعد من الصفحات الزاهية في تاريخ مملكة غرناطة، توفي عام (٨٢٠هـ)، وله ديوان شعر. انظر: ابن فركون، أبو الحسين بن أحمد (ت نحو ٧٨١هـ)، ديوان ابن فركون، ط١، (تقديم محمد بن شريفة)، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، المغرب، ١٩٨٧م، مقدمة الديوان، ص١٩- ٩٥.

(٣) يوسف الثالث، أبو الحجاج يوسف بن يوسف (ت٨٢٠هـ)، ديوان ملك غرناطة يوسف الثالث، ط٢، (حققه وقدم له عبد الله كنون)، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٥م، ص١٤٤.

ويصور الشعر الأب الأندلسي رحيماً عطوفاً حانياً على أولاده، فلسان الدين ابن الخطيب وهو الوزير الكبير والسياسي القدير يبتهج لما يلاحظه على طفله من نشاط ويتأسى بذلك، عما سرقه منه الدهر من قوة وشباب(١). يقول مقدّماً لشعر: "وقلت وقد أعجبني نشاط ولدي وهو في سنّ الطفولة"(٢):

سرَقَ الدَّهرُ شَبَابي من يدي	**فَفُؤادِي مُشعِرٌ بالكَمدِ**
واحْتَمَلْتُ الأمْرَ إذ أبْصَرْتُهُ	**بَاعَ ما أفْقَدَني منْ ولَدي**

فابن الخطيب رغم أساه على قوّته التي سلبها الدّهر منه، إلا أنه سعيد بمنح الدهر القوة لولده، ولذا فهو مبتهج بنشاطه فرح بقوّته وفتوّته، وقديماً قالت العرب: "من سرّه بنوه ساءته نفسه"(٣).

وها هو الشوق يضج في قلب ابن الخطيب لولده، فيسيل دمعه شوقاً لابنه عبد الله عندما طال به المقام في جبل الفتح، وقد شبّهه بفرخ القطاة الذي انفرد عن جماعته، يقول(٤):

تذكَّرْتُهُ فرْخَ القطاةِ فأسْرَعَتْ	**دُمُوعِيَ تَهْمي وَيْلَها لانفِرَادِهِ(٥)**

واحتمل الأب الأندلسي في سبيل أبنائه الكثير من الظلم والعدوان حتى يسد حاجاتهم اليومية، ومن ذلك قول عبد الكريم القيسي في قصيدة خاطب بها القاضي الرئيس أبا حامد بن الحسن يشكو فيها احتباس مرتبه، ويعد ذلك ظلماً وحيفاً، وقد كانت القصيدة مناسبة لتعداد ما يحتاجه رب الأسرة في ذلك العهد من نفقات يسدد بها حاجات بيته وأبنائه اليومية التي لا غناء لهم عنها (٦):

---

(١) انظر: الطرابلسي، حسناء بو زويتة (٢٠٠١)، حياة الشعر في نهاية الأندلس، ط١، دار محمد علي الحامي، تونس، ص٥٤٤.

(٢) لسان الدين بن الخطيب، ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام، ص٤٤٥.

(٣) الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد (ت٥١٨هـ/ ١١٢٤م)، مجمع الأمثال، (تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد)، مكتبة السنة المحمدية، القاهرة، ١٩٥٥م، ج٢، ص٣٠٠.

(٤) لسان الدين بن الخطيب، ديوانه، ص٤١٣.

(٥) القطاة: نوع من اليمام يؤثر الحياة في الصحراء. ويتخذ أفحوصه في الأرض ويطير جماعات ويقطع مسافات شاسعة، وبيضه مرقط. انظر: أنيس، إبراهيم وآخرون(د.ت)، المعجم الوسيط، ط٢، ٢م، دار الفكر، بيروت، مادة (قطا).

(٦) هو عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم القيسي، البسطي، يغلب على الظن أنه ولد في العقد الأول من القرن ٩هـ/ ١٥م في بسطة، شاعر وفقيه، عمل إماماً في مدينة برجة، ثم تولى خطة التوثيق، أسره النصارى في مدينة آبره مدة كانت طويلة نسبياً، وأحرق حانوته، وعُزل عن بعض الخطط، فانعكست هذه الحالة في شعره فلام، وعاتب، وذمّ، ونقد وشكا، لا نعرف تاريخاً محدداً لوفاته، وليس مستبعداً أن يكون قد عاصر سقوط غرناطة. انظر: القيسي، عبد الكريم بن محمد، ديوان عبد الكريم القيسي، (تقديم جمعة شيخة، ومحمد عبد الهادي الطرابلسي)، بيت الحكمة، تونس، ١٩٨٨م، ص٦٩.

وأنا في كلِّ يومٍ	رَبُّ إنفاقٍ وَغُرْمِ
رُبَّ بيتٍ أكْتَريهِ	لِعيالي معَ كرْمِ
ودقيقٍ أشتريهِ	مع ملحٍ ثم لحْمِ
ثم زيتٍ لوَقودٍ	مع حَطَبٍ ثمَّ فحمِ
ثم عَسَلٍ مع سمنٍ	ثم خَلْعٍ مع شحمِ[١]
ثمَّ أبزارٍ لإصلاح	مطاعيمي وأدمي
ثم تمرٍ مع تينٍ	وزبيبٍ دونَ عَجْمِ
ثم فَخَّار لِطَبْخٍ	ثم شربٍ ثم طعمِ
ثم صابون لغَسْلٍ	ثم أزهارٍ لشمِّ
دعْ غطائي ووِطائي	وثيابي دون ضَمِّ
وسوى ذلك ممّا	نوعهُ لستُ أسمِّي

ولاضطلاع الأب بذلك الدور العظيم في حماية أسرته، وتربية أبنائه والإنفاق عليهم، فقد خلّف فقدانه أسىً كبيراً وحزناً بالغاً في نفوس أبنائه وشعوراً بالوحدة والضياع، ويؤكد ذلك قول لسان الدين ابن الخطيب الذي يئس من الحياة بعد أن فقد والده وأخاه (اللذين استشهدا في معركة طريف ٧٤١ه)، فهو لم يعد يرى في الدنيا ما يسره ويبهجه، ولم يعد يرى معنىً للعيش ولا غاية، يقول[٢]:

لا حُسْنَ للدُّنيا لديَّ ولا أرَى	في العيشِ بَعْدَ أبي وصِنْوِي مَأْرَبا

تلك كانت حال الرجل الأندلسي وهو يقوم بدوره كأب لأبنائه وربٍّ لأسرته، وأما دوره كزوج فقد كان يتمتع بسلطة مطلقة على نسائه وأولاده وخدمه الذين يقطنون منزله الذي كان يحكمه وفق القوانين التي توافق طبعه، والتي يستمدها من العادات المتوارثة المستوحاة من

---

(١) الخلع: القديد المشوي أو اللحم يطبخ بالتوابل.
(٢) لسان الدين بن الخطيب، ديوانه، ص٢٥١.

الدين، فيغدو بيته عالماً مقفلاً، وفي غيابه يتحرّر البيت ويخرج عن سمته، وأحياناً تدبّ الفوضى ويمتلىء البيت ضجيجاً وصياحاً، وإذا عجزت ربة البيت عن فرض هيبتها لا تجد حلاً إلاّ في انتظار عودة رب الأسرة الذي يعيد الهدوء ويحكم النظام(١).

حمل الزوج الأندلسي هموم الحياة عن زوجته وأكرمها، وكان يقوم نحوها بأكبر الواجبات الزوجية من إعالة وحماية ورعاية، كما كان منهم من يحمل العجين إلى الأفران، ومنهم من يقوم عنها بواجب جلب المواد وضرورات الحياة من السوق(٢).

وقد عبر الزوج عن إعجابه بزوجته وخصالها الكريمة وحسن إدارتها لشؤون بيتها، وتحملها معه هموم الحياة ومصاعبها، يقول أبو حيان الأندلسي (٣) مادحاً زوجته بحسن آدابها، وقد شبهها بالغراس الطيب الذي لا يخرج إلا طيباً، كما أنه يتزود من طيب آدابها كمثل تلميذ يأخذ من أستاذه أفضل الآداب والعلوم، وهذه صورة الزوج المتواضع الذي يتلطف مع زوجه ويقدر عطاءها(٤):

وأقطفُ من آدابه الزَّهْر يانعاً   وأشتمُ ريحاناً بخَدٍّ مُوَرَّدِ

وها أنذا قد رحتُ منه مودعاً   فيا ليتَ شعري هل له بعْدُ أغتدي

ويعاود الحديث عنها في مقطوعة أخرى واصفاً حسن أخلاقها، ولين كلامها، وحلمها، وبعدها عن بذيء الكلام، ومساعدتها لكل محتاج، ومعاونتها له في تدبير أمور الحياة وشؤون البيت والأبناء من خلال معرفتها بأمور البيع والشراء، فيقول (٥):

---

(١) انظر: فرحات، غرناطة في ظل بني الأحمر، ص١٢٠.
(٢) انظر: النوش، التصوير الفني للحياة الاجتماعية، ص١٣٢.
(٣) محمد بن يوسف بن حيان، أثير الدين (٦٥٤– ٧٤٥هـ)، أصله من قبيلة نفزة بالمغرب الأقصى، ولد ونشأ بغرناطة، ثم رحل إلى المشرق واستقر بمصر، وكان ممن طال عمره وحسن عمله، وكان عالماً باللغة وإماماً في النحو والتفسير والحديث والفقه، صنف كتاب "البحر المحيط" و "تحفة الأريب"، وكان له شعر جيّد، توفي بمنزله خارج باب البحر بالقاهرة. انظر: الصفدي، خليل بن أيبك (ت٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م)، أعيان العصر وأعوان النصر، ط١، ٦م، (تحقيق علي أبو زيد وآخرين)، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٨م، ج٥، ص٣٢٥؛ والمقري، نفح الطيب، ج٢، ص٥٣٥؛ ولسان الدين بن الخطيب، الكتيبة الكامنة، ص٨١– ٨٦.
(٤) أبو حيان، محمد بن يوسف الغرناطي (ت٧٤٥هـ/ ١٣٤٤م)، ديوان أبي حيان، (تحقيق أحمد مطلوب وخديجة الحديثي)، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٦٩م، ص١٦٢.
(٥) المصدر نفسه، ص ١٦٨.

وزينةُ حلمٍ عقلُها ثابتٌ فلا　　　تأثّرُ من إيهام كلِّ مشْعوذِ

وحازتْ لحسن الخلق خلقاً مُدَمّثاً　　　ولينَ كلامٍ طاهرٍ ليس بالبَذي

فما دنَّستْ فاها بغيبة غائبٍ　　　ولا منعَتْ رِفْداً لمن جاءَ يحْتَذي

وتعرفُ أجناس المبيع جميعهِ　　　وأثمَانَهُ من فحمِهِ للزمرّدِ

ولما كانت عليه علاقة الزوج بزوجته، وبما اتصفت به من طيب العشرة وحسن الصنيع في مشاركته أعباء الحياة وهمومها، فقد أبدى الزوج كثيراً من التعلّق بزوجته، ومن ذلك ما كان يبديه من أسىً للمفارقة الأبدية بوفاتها، ثم ما كان يأخذ به نفسه من ألوان الحرمان من متع الحياة بعد رحيلها وفاءً لذكراها وإخلاصاً لها(١)، فهذا ملك غرناطة يوسف الثالث يتحسر على وفاة زوجته، ويبين مدى حرقته وألمه لفراقها، ويؤكد بأن ذكراها في قلبه لن تفارقه أبداً رغم مماتها، فيقول (٢):

أحقاً يعودُ الشملُ بعد شتاتهِ　　　جميعاً ويحيى الأنس بعد مماتهِ

وينعم بالسّلوانِ قلبٌ مقلّبٌ　　　ويألفُ جفنُ العينِ بعضَ سناتِهِ

إذا جالت الذكرى بقلبي بعدها　　　يضيقُ نطاق الصبرِ عن زفراتهِ

لئن أودعوها في الثرى فمحلُّها　　　من القلبِ محميٌّ بطولِ حياتهِ

وهيهات يمحو الدهرُ ثابتَ ودِّها　　　ما رسمت أيدي الهوى في حُصاتهِ

ولكنَّها رُجعى إلى الله كلما　　　تنَبَّهَ جفنُ الفكرِ من غَفَلاتِهِ

ولا يرجو أبو حيان الحياة بعد موت زوجته زمرّد، فهي غذاء روحه ولذتها، وقد أعقبه فراقها حزناً كبيراً عمّ نفسه وأذبلها، فقد كانت بمثابة الغذاء للروح، وخلّف فراقها حزناً عظيماً في نفسه، فيتساءل قائلاً(٣):

---

(١) انظر: النوش، التصوير الفني للحياة الاجتماعية، ص١٣٥.
(٢) يوسف الثالث، ديوان ملك غرناطة، ص١٥-١٦.
(٣) أبو حيان، ديوانه، ص١٦٧.

أأرجو حياةً بعد فَقْدِ زُمَرَّدِ وكانَتْ بها روحي تَلَذُّ وتَغْتَذي

زُمرَّدُ قد خَلَّفْتِ للصَّبِ لوعةً وَحُزْناً بقلبي آخذاً كُلَّ مَأخَذِ

وكانت زوجة لسان الدين ابن الخطيب تعينه على تحمّل الأهوال، وتقف بجانبه إذا تقلّبت الأحوال، فحزن حزناً شديداً لوفاتها، فهي له العدة والذخيرة، وقد دفنها في البستان المتصل بداره في مدينة سلا، ورثاها في أبيات قليلة كانت أقرب إلى النثر، فقال(١):

رَوّعَ بَالِي وَهَاجَ بَلْبَالي(٢) وسَامَني الثُّكْلَ بَعْدَ إقبال(٣)

ذَخِيرَتي حِينَ خَانني زَمَنِي وَعُدَّتي في اشْتِدادِ أهْوَالِ

حَفَرْتُ في داري الضَّريحَ لَها تَعَلُّلاً بالمُحَالِ في الحَالِ

قد كنتِ مالي لما اقْتَضى زَمَني ذهابَ مالي وكنتِ آمالي

ومما لا شك فيه أن الأزواج لم يكن كلهم على شاكلة واحدة من الوفاق والاتفاق مع زوجاتهم، وهذا من مقتضيات طبيعة الإنسان، فالاختلاف ديدن البشر وسجيتهم، إلا أن الزوج الأندلسي، وإن قرر الافتراق عن زوجته، فإنه حضاري في ذلك، لا يسف ولا يقذع، ومن أمثلة ذلك، ما قام به أبو البركات بن الحاج البلّفيقي(٤) حين أوقع الطلاق على زوجته الحرّة العربية أم العبّاس (عائشة بنت الوزير محمد بن إبراهيم الكتاني) عام ٧٥١ه. وكتب رسالة جليلة يحلّل فيها أسباب دوام العشرة وانقطاعها بعقلية متفتحة لقيم الدين والكرامة، والحضارة في أسمى مظاهرها. وقد أنصف زوجه حين فارقها بإحسان(٥). فمما قال: " إنّ الله جلّت قدرته، لما أنشأ خلقه على طبائع مختلفة وغرائز شتّى، ففيهم السخي والبخيل، والشجاع والجبان، إلى غير ذلك

(١) لسان الدين بن الخطيب، نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، (تحقيق أحمد مختار العبادي)، دار الكاتب العربي، القاهرة، (د.ت)، ص٢٠٥.
(٢) البَلْبَالُ والبَلْبَالةُ: شدة الهم والوسواس، المعجم الوسيط، مادة (بَلبَلَ).
(٣) الثُّكْل: فقد الحبيب. المعجم الوسيط، مادة (ثكل). سامني: ذهب في ابتغاء الشيء. المعجم الوسيط. مادة (سامَ).
(٤) هو محمد بن محمد بن إبراهيم البلّفيقي، أبو البركات (٦٨٠- ٧٧١هـ)، يعرف في بلده بابن الحاج وخارجها بالبلّفيقي، من أعلام الأندلس في الحديث والأدب، تولى القضاء بمالقة سنة (٧٣٥هـ)، ثم تولى القضاء والخطابة بألمرية، واستعمل في السفارة بين الملوك، والتقى بابن خلدون بفاس سنة (٧٥٦هـ)، وكان ابن خلدون عظيم الإجلال له لا يقدم عليه أحداً، وذكره بين مشايخه الذين أخذ عنهم. انظر: ابن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً، ج١٤، ص١١٣٠؛ وابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٤، ص١٥٥؛ والمقري، نفح الطيب، ج٥، ص٤٧١؛ ولسان الدين بن الخطيب، الإحاطة، ج٢، ص١٤٣.
(٥) انظر: النوش، التصوير الفني للحياة الاجتماعية، ص١٤٤- ١٤٥.

من الصفات المعروفة من الخلق، كانت العِشْرَة لا تستمر بينهم إلاّ بأحد أمرين: إمّا بالاشـــتراك في الصفات أو في بعضها. وإمّا بصبر أحدهما على صاحبه إذا عُدم الاشـــتراك، ولمـــا علـــم الشارع أنّ بني آدم على هذا الوضع، شرع لهم الطلاق ليستريح إليه من عِيــلَ صـــبره علـــى صاحبه، توسعة عليهم وإحساناً منه إليهم، فلأجل العمل على هذا طلّق كاتب هذا عبـــد الله بـــن محمد المذكور زوجه الحرّة العربية المصونة عائشة ابنة الشيخ الوزير الحسيب النزيه الأصـــيل الصالح الفاضل الطاهر المقدّس المرحوم أبي عبد الله محمد المغيلي، طلقة واحدة، ملكت بها أمر نفسها دونه، عارفاً قدره، قصد بذلك إراحتها من عشرته، طالباً مـــن الله أن يغنـــي كُـــلاً مـــن سعته"[١].

وبهذا تتجلى بوضوح تلك العلاقة المتحضرة بين الزوج وزوجته في الاتفاق والافتـــراق، يجتمعان على ود وتشارك وتعاون ومحبة، ويفترقان _ إذا انعدمت سبل الحياة بينهمـــا _ علـــى احترام ينم عن رقي الحضارة التي ينتمي إليها الطرفان.

الأم والزوجة:

أرسى العرب في الأندلس أسس حضارة راقية، تمتلك من عناصر الأصالة التـــي تـــشكل بنياناً حضارياً متفرداً متميزاً، ومنذ أن نزل المسلمون الأندلس حملوا معهـــم ديـــنهم وأخلاقهـــم ومثلهم التي تعلي من شأن المرأة وتقدر لها دورها في المجتمع، إذ تعدّ المرأة ركيزة أساسية في كل مجتمع من المجتمعات لما تقوم به من دور مهـــم فيهـــا، فهـــي الأم والمربيـــة، والأخـــت، والزوجة، والابنة. فضلاً عن مساهمتها في أدوار اجتماعية واقتصادية وثقافية.

وعلى الرغم من أن موضوع المرأة في العصر الأندلسي قد نال حظاً وافراً من الدراســـة والبحث[٢]، إلا أنه يجدر بهذه الدراسة أن تعرج _ بشيء من الإيجاز _ على الحديث عن المرأة الأندلسية ومكانتها في المجتمع، ودورها في تنميته قبل الحديث عن المرأة كأم وزوجـــة إتمامـــاً للفائدة.

---

(١) المقري، نفح الطيب، ج٥، ص٤٧٩.

(٢) انظر مثلاً: ظاهر، حمزة (٢٠٠٢)، صورة المرأة في الشعر الأندلسي في ظل بني الأحمر، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن. والشعيري، سناء(٢٠٠٩)، المرأة في الأندلس، منشورات مركز دراسات الأندلس وحوار الحضارات، سلسلة المعرفة الأندلسية، العدد٣، مطبعة الأمنيـــة، الربـــاط. وســـلمان، سلمى(١٩٨٦)، المرأة في الشعر الأندلسي عصر الطوائف، رسالة ماجستيرغير منشورة، الجامعة المستنصرية، بغداد، العراق. وأبو حسين، محمد صبحي(٢٠٠٣)، صورة المرأة في الأدب الأندلسي فـــي عـــصر الطوائـــف والمرابطين، عالم الكتب الحديث، إربد.

لا يستطيع أحد أن ينكر أن المرأة الأندلسية شغلت مكانا فسيحاً في المجتمع، وحظيت المرأة الغرناطية تحديداً بمكانة مرموقة تميّزت بها عن كثير من نساء البلدان الأخرى آنذاك. يقول هنري بيرس في كتابه الشعر الفصيح في القرن الحادي عشر الميلادي: "إنّ المرأة الأندلسية كانت تتمتع بوضعية أكثر ليبرالية من وضعية أخواتها في المشرق. وقد لاقت المرأة الأندلسية تكريماً عزّ نظيره في المجتمعات الأخرى"[١].

ولم تعامل المرأة أبداً معاملة المستخف بها، المذل لإنسانيتها، المتحامل على ضعفها، بل عوملت المرأة معاملة كريمة مهذّبة، وقد لحظ هذا ليڤي بروفنسال في سلوك كثير من الأندلسيين الذين هاجروا إلى المغرب حاملين معهم هذه الصورة الطيّبة من المعاملة للمرأة، ومشاركتها في الأمور العائلية. يقول: "إنّ نمط حياتهم داخل بيوتهم قد بقي محافظاً على طابعه الأندلسي، وإنّ زوجاتهم يعاملن معاملة أفضل، ويدخلن في المناقشات العائلية، ولا يعانين – أكثر الأوقات– من وجود ضرّة إلى جانبهن. وطريقتهن في تهيئة أنواع الطعام تختلف اختلافاً بيّناً عن طرائق سائر البلاد"[٢].

لقد تمتعت المرأة في المجتمع الأندلسي بقسط واسع من الحريّة لم تصل إليه مثيلتها المشرقية، إذ بلغ الأمر بنساء غرناطة أن يخرجن وحدهن دون أن يصحبهن أحد، فكنّ يذهبن إلى الحمام الذي كان له أهمية خاصة لديهن، فلم يقتصر مجيئهن إليه على الاغتسال والتدليك وصبغ الشعر فقط، بل كان لهن بمثابة مكان يمكنهن من لقاء صديقاتهن في فضاءاته، والاستمتاع بلحظات جميلة من الأنس والضحك، وتبادل الأحاديث الطويلة[٣].

ويتبدى تحرّر المرأة الغرناطية جليّاً في وصف ابن الخطيب رحلة السلطان يوسف الأول أبي الحجاج التي تفقد فيها أحوال المدن والقرى في مملكته؛ إذ خرجت نساء وادي آش للمشاركة في استقبال السلطان وقد اختلطن بالرجال. قال: " واختلط النساء بالرجال، والتقى أرباب الحجا بربات الحجال، فلم تفرّق بين السلاح والعيون الملاح، ولا بين حمر البنود وحمر الخدود"[٤].

---

(١) نقلاً عن بيرس، هنري، الشعر الفصيح في القرن الحادي عشر الميلادي، انظر: الجيوسي، سلمى الخضراء(١٩٩٨)، الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، ط٢، ٢م، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ص٩٨٠.

(٢) بروڤنسال، حضارة العرب في الأندلس، ص٢٦.

(٣) انظر: الدوسري، الحياة الاجتماعية في غرناطة، ص٣٢٩.

(٤) لسان الدين بن الخطيب، مشاهدات لسان الدين بن الخطيب، (تحقيق أحمد مختار العبادي)، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٣م، ص٥٠.

إلا أن المرأة الغرناطية _ وعلى الرغم من هذه الحرية التي تمتعت بهـا _ كانـت تمـضي أوقاتها مستقرة في منزلها لا تخرج إلاّ في مناسبات معينة كالأعياد والصلوات وارتيـاد الحمّامـات الخاصة بالنساء[١].

نالت المرأة الغرناطية ولا سيما ابنة الطبقة المترفة الغنية حظاً وافراً من حسن التربيـة والتعليم والرعاية والتثقيف على غرار ما كانت تتلقاه المرأة القرطبية أيام بني أمية، والإشـبيلية أيام بني عباد[٢]، ومما يدل على هذه الحظوة التي حازتها المرأة الغرناطية في هذه المجالات ما أشار إليه ابن الخطيب في الإحاطة من أنّ محمد بن علي بن محمد الفخار[٣] كان يـدرس فـي مسجد مالقة وكان يخصّص فترة ما بعد العصر لتعليم النساء[٤].

وكانت الأسر الميسورة توفر لنسائها من يقوم عنهن بأعباء المنزل، ويريحهن من عنـاء العمل فيه، وترتيب شؤونه، ولذلك أتيح المجال لها لأن تنام حتى الضحى، فنعمت المـرأة فـي ظلالها بحياة رغدة ناعمة، يقول الشاعر الملك يوسف الثالث في معرض تغزّله فـي إحـداهن مشيراً إلى ترفها ودلالها وطول راحتها ونومها[٥]:

طَرَقتُ حِماهُم على غِرَّةٍ * وكم سرَّ ليلٌ وسَاء الصَّباح**

وكَمْ مِنْ كَسُولٍ نؤومِ الضُحى * تصبّحها وهي دونَ اصطباح**

ويشير عبد الكريم القيسي إلى المعنى ذاته في قوله[٦]:

أفدي التي لمْ تَزَلْ تُبدي مَحَاسِنَها * للناظرينَ إليها مَنْظراً عَجَبا**

جسمٌ من الفضّةِ البيضاءِ مُعْتَدِلٌ * تخالُه مُشْرَباً من حُسنهِ ذَهَبا**

إذا يدٌ لمَسَتْهُ مِنْ غَضَاضَتِه * وحُسنِ نِعْمَتِه أبقَتْ بِهِ نُدَبا**

---

(١) انظر: النوش، التصوير الفني للحياة الاجتماعية، ص١٣٠.

(٢) انظر: فرحات، غرناطة في ظل بني الأحمر، ص١٢٢.

(٣) هو محمد بن (علي) عبد الرحمن بن الفخار، الجذامي، يكنى أبا بكر، عالم بالفقه والعربية، ولد ونـشأ فـي أركش، وتعلم بشريش وروّى بها عن علمائها، ثم انتقل إلى الجزيرة الخضراء فدرس بها، وعبر البحر إلى سبتة ثم عاد واستوطن مالقة وتوفي بها عام (٧٢٣هـ)، وكانت جنازته مشهورة، له تآليف كثيرة في فنون مختلفـة، وشعره غريب النزعة. انظر: لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة، ج٣، ص٩١؛ وابن حجر العـسقلاني، الـدرر الكامنة، ج٤، ص٨١.

(٤) انظر: لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة، ج٣، ص٩٢.

(٥) يوسف الثالث، ديوان ملك غرناطة، ص٢٥.

(٦) القيسي، ديوانه، ص٣٩٦.

فمحبوبته مدللة منعمة، غدا جسمها كالفضّة البيضاء لعدم قيامها بالأعمال التي تتعبها، ولطول راحتها غض جسمها وطري حتى إذا ما لمسته الأيدي أحدثت فيه ندباً.

وعلى الرغم من حال المرأة المنعمة المترفة، إلا أن مجتمع بني الأحمر قد عرف عدداً من النساء خفقت أسماؤهن مثل الرايات في ميادين السياسة والعلم والأدب والفن، وبرعن في كثير من العلوم والمعارف، ومنهن _ على سبيل المثال لا الحصر _ عائشة الحرة زوجة أبي الحسن علي ابن الأحمر، مما أوقع الخلاف بين طلاّب العرش ودفع ملك بني الأحمر نحو الهاوية [١]، ومريم أم إسماعيل محظية يوسف الأول وصاحبة الدور البارز في خلع السلطان محمد الخامس.

وممن اشتهرن في اللغة والأدب: أم الحسين بنت أبي جعفر الطنجالي[٢] الطبيب المشهور التي لمع اسمها في حقل الطبّ والأدب[٣].

وتفوقت زوجة أحد قضاة لوشة على علمائها في معرفة الأحكام والنوازل، حتى إنها كانت تشير إليه فيما يحكم عندما تحتدم النوازل في مجلس قضائه، مما جعل بعض أصحابه يرسل إليه مداعباً بقوله[٤]:

بلُوشة قاضٍ لهُ زَوْجةٌ **وَأحْكَامُها في الورى ماضيهْ**

فَيا لَيْته لَمْ يَكُنْ قاضِياً **وَيا لَيتَها كانتِ القاضيهْ**

وعرض القاضي على زوجته هذه الأبيات، فما كان منها إلا أن كتبت رداً بليغاً مهددة ومتوعدة هذا الصاحب الساخر[٥]. تقول[٦]:

هو شيخُ سُوءٍ مُزْدرَىً **لهُ شيُوبٌ عاصيَهْ**

كلاَّئنْ لَمْيَنْتهِ **لنسفعاً بالناصيهْ**

---

(١) انظر: فرحات، غرناطة في ظل بني الأحمر، ص١٢٢.

(٢) وهي أم الحسن بنت القاضي أبي جعفر الطنجالي، من أهل لوشة نبيلة حسيبة، تجيد قراءة القرآن، أخذت علوم الطب عن أبيها ففهمت أغراضه وعلمت أسبابه وأعراضه، وكانت تنظم أبياتاً من الشعر. انظر: لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص٤٣٠.

(٣) انظر: لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص٤٣٠.

(٤) المقري، نفح الطيب، ج٤، ص٢٩٤.

(٥) انظر: النوش، التصوير الفني للحياة الاجتماعية، ص١٣٤.

(٦) المقري، نفح الطيب، ج٤، ص٢٩٤.

فقد كانت محط استشارته، وموئل استنجاده حين يفصل في قضايا النـــاس يــؤوب إليهـــا مستعيناً برأيها فتشير عليه بما يحكم.

ولم تقتصر مشاركة المرأة الغرناطية على ميادين العلوم والآداب، فقد ساهمت مـــساهمة غنية في الميدان الاقتصادي، فقد كانت النساء في الأسر الفقيرة يعـــنَّ أزواجهـــن ويـــساعدنهم، فيغزلن الصوف ويحكن الملابس داخل البيوت[١]، وكان منهن من يعملـــن كمربيـــات للأطفـــال ومعلمات لهم [١].

وخلاصة القول إنّ المرأة الغرناطية لم تعتزل الحياة في مجتمعها بشكل عام، بل امتلكـــت نوعاً من الحرية النسبية، غدت بها عنصراً فعالاً ونشيطاً في المجتمع. وقد ولجت ميادين العلـــم والمعرفة، وأظهرت جدية في معاونة زوجها ومساعدته في تدبير شؤون حياتهما، واســـتطاعت بذلك أن تحظى بمكانة مرموقة في مجتمعها.

وأدت المرأة الغرناطية بوصفها أمّاً دوراً بارزاً في حياة أسرتها، فقـــد اهتمـــت بتربيـــة أولادها وتوفير الغذاء والراحة الجسدية لهم، فهي كما صوّرها أبو حيان أم حنـــون رؤوم علـــى أولادها وأحفادها، تحضّر لهم ما لذ وطاب من الطعام، يقول[٢]:

وكانت لهم أماً حنوناً وجدّة　　　شَفُوقاً تُشَهِّيهم بكُلِ تلذذ

وقد حرصت المرأة الغرناطية على تعليم أولادها خصوصاً في المرحلة الأولى من حياتهم لما لهذا التعليم من دور أساسي في التكوين العقلي للأبناء، ولكن الشعر الذي يصوّر لنا دور الأم وعلاقتها بأبنائها في الأسرة الأندلسية في هذه الحقبة الزمنية قليل جداً، فلم أجد إلاّ بيتـــين رثـــى فيهما ابن الأزرق أمه، بين من خلالهما مرارة الوداع وحرارة الدموع المنهمرة إثـــر وفاتهـــا، فقال[٣]:

تَقولُ ليْ وَدُمُوعُ العينِ واكفةٌ　　　ما أَقْطَعَ البينَ والتَّرْحالَ يا ولَدي

فقُلتُ أينَ السُّرَى قالَتْ لِرَحْمةِ مَنْ　　　قد عَزَّ في المُلكِ لم يُولدْ ولم يَلِدِ

ويستدل من هذين البيتين أنّ الأم كانت تحبّ أولادها وتخاف عليهم. وهـــي تبكـــي لـــيس لمجيء الموت بل لفراقها فلذات أكبادها.

---

(١) انظر: فرحات، غرناطة في ظل بني الأحمر، ص١٢١.
(٢) أبو حيان، ديوانه، ص١٧٠.
(٣) المقري، نفح الطيب، ج٢، ص٧٠٣.

وأما المرأة الغرناطية بوصفها زوجة، فقد استمدت موقعها المتميز هذا من تكريم الإسلام لها، فقد رفع الإسلام شأنها، وميز مركزها، وقرنها بالرجل في معظم الآيات القرآنية، يقول جلّ وعلا: " يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منها رجالاً كثيراً ونساءً " [١] وقوله تعالى: " هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها "[٢] فالمرأة والرجل من نفس واحدة لا ينبغي أن يتباينا ويطغى أي منهما على الآخر.

وكان الزواج في المجتمع الأندلسي يتم في سن مبكرة، وللفتاة الحق في اختيار زوجها، ويؤخذ رأيها في هذا الزواج وتتم استشارتها وتؤخذ موافقتها عليه[٣]. فالمرأة جارية كانت أم حرّة صاحبة الأمر في قبول الزواج أو رفضه[٤].

وفي الأسر الميسورة كانت المرأة تقبع في منزلها الزوجي ولا تغادره إلا للضرورة، وكانت تقضي الساعات الطويلة في التبرّج، ولا يتبدّل نمط العيش داخل المنزل إلاّ عند استقبال الزائرات. وكانت تنحصر تسليتها ونزهها في أوقات قليلة تزور فيها الأهل والأقرباء، وترتاد الحمامات العامة مرة أو مرتين في الشهر، وفي زيارتها المقابر نهار الجمعة. وعلى النقيض كان حال الزوجة الغرناطية في الأسر الفقيرة وطبقات العمال والحرفيين، فكانت فيها الزوجة تساعد زوجها في تحمّل أعباء المنزل، فتغزل الصوف وتحيك الملابس[٥].

وأحبّ الرجل الغرناطي زوجته حباً شديداً، وعاملها معاملة حسنة كريمة، وشاركها في أمور حياته كلها[٦].

ويتجلى ذلك في غزل أبي حيان وحبه لزوجه زُمرُّده، فقد بثّ لوعته وحبّه لها في أشعارها، وتحدّث عنها وجنّ بها، فقال[٧]:

جُنِنْتُ بها سَوْداءَ لَونٍ ونَاظِرٍ	**ويا طَالما كانَ الجنونُ بسوداءِ**
وَجدْتُ بها بَرْدَ النَّعيم وإنْ يَكُنْ	**فُؤادِيَ مِنْها في جَحِيمٍ ولأْواءِ[٨]**

---

(١) النساء، الآية ١.
(٢) الأعراف، الآية ١٨٩.
(٣) انظر: ابن حزم، طوق الحمامة، ص٩٥.
(٤) انظر: أبو حسين، صورة المرأة في الأدب الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين، ص٣٩٠.
(٥) انظر: فرحات، غرناطة في ظل بني الأحمر، ص١٢١.
(٦) انظر: بروﭭنسال، حضارة العرب في الأندلس، ص٢٦.
(٧) أبو حيان الغرناطي، ديوانه، ص٤٢٣.
(٨) اللأواء: الشدّة وضيق المعيشة، لسان العرب، مادة (لأي).

وشَاهَدْتُ مَعْنى الحُسْنِ فيها مُجَسّداً   فأعجبْ لمعنىً صَارَ جَوْهرَ أشياءِ

أطاعنةً من قدِّها بمثقفٍ   أصَبْتِ وما أغنى الفتى لبسُ حصداءِ

لقد طعنتْ والقلب ساهٍ فما درى   أبالقدِّ منها أم بصعدةِ سمراءِ

لقد كانت زوجه أنيسته في غربته، وسميرته في وحشته، وصاحبته في حله وترحاله، وما ذلك إلا لحبه إياها وهيامه بها، ولذا اختلط غزل بها بالمديح والإعجاب في هذه الأبيات، يقول[١]:

كانت أنسِي في وَحْدَتي واغْتِرابي   ومَنامي ويَقَظَتِي وسِفارِي

ونَدِيمي في رحْلَتِي ومُقامي   وزَميلي في حِجَّتي واعْتِماري

ومثلت الزوجة لزوجها سكن نفس، وراحة روحه، واهتمت بتوفير الأمان والاطمئنان لزوجها. والحال كذلك فقد كان لموتها أبلغ الأثر وأقسى الوقع على قلوب الشعراء، فبفقدهم زوجاتهم فقدوا بهجة الحياة وسرورها. فقد بكى الشاعر الملك يوسف الثالث زوجته– وهو الملك، وله غيرها من الأزواج وما شاء من الجواري – بدموع حرّى ورثى طويلاً هذه الفقيدة[٢]، يقول[٣]:

جفا أجفانَ مُقلتي السُهادُ   فهلاً سَاعدَتْ يوماً سُعادُ

توادَعْنا فعزَّبها لقاءٌ   وأحْكمَ عَقْدَ فُرقتنا البعادُ

فوا أسَفَا على سكنٍ صفيّ   سجيتُهُ خُلوصٌ واعتقادُ

فغُيِّبَ في الثرى نَجْمُ الثرَّيا   وأقفَرَتْ الروَابي والوِهَادُ

فقد صير موت زوجته حياته جدباء مقفرة موحشة، وجفاه النوم لأنه فقد أنيسته ورفيقة دربه ولصيقة روحه.

(١) أبو حيان الغرناطي، ديوانه، ص١٩٣.
(٢) انظر: الطرابلسي، حياة الشعر في نهاية الأندلس، ص٣٢١.
(٣) يوسف الثالث، ديوان ملك غرناطة، ص٥٥. وانظر أيضاً: ص٢٦.

ويتبين من خلال ما وصل إلينا من نصوص شعرية أنّ الزوجات قد حظين بشعر كثير قيل في رثائهن. وكأن هذا الشعر هو بمثابة عزاء الشعراء ممن صدقوا في حبهم زوجاتهم اللائي غيبهن الموت وغدون تحت الثرى، فلم يبق للزوج إلاّ ذكر خصال زوجته الحميدة كالعفاف والخلق الحسن والتقوى. فقد كانت زوجة أبي حيان زمرده رزينة العقل، دمثة الأخلاق، عفيفة اللسان، راوية للحديث النبوي، وقد أخذت العلم من علماء مصر والشام والعراق، وتتلمذ طلبة العلم عليها، وكانت حسنة الصورة، ماهرة في الطهي، عطوفة على أولادها وأحفادها، قال في رثائه لها [١]:

وحازَت لحُسنِ الخَلْق خُلْقاً مُدَمَّثاً	**ولينَ كلامٍ طاهِرٍ ليسَ بالبذي**
جميلةُ خَلْقٍ سَهْلةُ الخُلْقِ لينةٌ	**رقيقةُ قلبٍ ثاقِبِ الذهنِ أحْوذَي[٢]**
ورَوَّتْ ببيتِ اللهِ والقدسِ ما رَوَتْ	**لِمصريٍّ أو شاميٍّ أو مُتَبغْدِدِ**
وكانتْ لهم أمّاً حنوناً وجدَّةً	**شفوقاً تُشَهِّيْهِم بكُلّ تَلذُّذِ**

كذلك رثى ابن الخطيب زوجته التي توفيت سنة (٧٦٢هـ) في مدينة (سلا) التي كان مغترباً فيها، فتركته وحيداً في منفاه، ولهذا فقد حزن عليها حزناً عميقاً، وساق إلينا الخبر عبر رثاء محزن تتضح منه لوعة الزوج المفجوع المغرَّب الذي يكاد يموت حسرة وأسىً على زوجته، فهي ذخيرته في الدنيا وعدّته يوم اشتداد الأهوال، وهي صفوة آماله، ولهذا لن يسلوها الشاعر حتى يلحق بها، يقول [٣]:

رُوِّع بالي وهاجَ بَلْبالي	**وسامني الثُّكْلُ بعدَ إقبالِ**
ذخيرتي حين خانني زمني	**وعُدَّتي في اشتدادِ أهوالِ**
قد كنتِ مالي لما اقتضى زمني	**ذهابَ مالي وكنتِ آمالي**
أما وقد غاب في تُراب سلا	**وجهُكِ عنّي فلسْتُ بالسَّالي**

---

(١) أبو حيان الغرناطي، ديوانه، ص١٦٨- ١٧٠.

(٢) الأحوذي: المشمر في الأمور القاهر لها الذي لا يشذ عليه منها شيء، وهو الذي يحسن سياق الأمور، انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (حوذ).

(٣) لسان الدين بن الخطيب، نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، ص٢٠٥.

ويظل الزوج وفياً لذكرى زوجته، ويبقى مسكنها في قلبه ما دام حيّاً وإن أودعها الثـرى، يقول الملك يوسف الثالث[(١)]:

لَئِن أودَعُوها في الثَّرى فَمَحَلُّها **منَ القَلبِ محميٌّ بطُولِ حَياتِه**

وهيهاتَ يَمْحو الدهرُ ثابتَ وُدها **وما رَسَمَتْ أيدي الهَوى في حَصَاتِه**

ولم يزل الزوج في ذلك العهد حافظاً لكرامة زوجته حتى بعد موتها، فهو في رثائه يتجنب ذكر اسمها ووصف خِلْقتها، وتعداد مفاتنها المادية، بل كان يأتي على ذكر محاسـنها وخلالهـا فقط، وبدل أن يذكر اسمها أورد جملة من الأسماء، فهي سلمى وسعاد وليلـى، وكلهـا أسـماء وهمية أرادَ بها زوجته، فقد رثى الشاعر الملك يوسف الثالث زوجته واستعار لها اسـماً غيـر اسمها، فهي تارة سعاد وأخرى سلمى[(٢)]، يقول[(٣)]:

جفا أجفان مُقلتيَ السهادُ **فهلاّ ساعدَتْ يوماً سُعادُ**

ويقول في موضع آخر [(٤)]:

أعيذ الحمى أن لا يُخيّبَ راجيا **تذكّر من سلمى حبيباً مُناجيا**

الأبناء:

كان ميلاد الطفل في الأسرة الأندلسية أياً كان جنسه – ذكراً أم أنثى– يشكّل حدثاً سـعيداً وعيداً حقيقيّاً يبعث البهجة والسرور في محيط الأسرة، ويتيح قدومه مجالاً أكبر للحفـلات فـي نطاق العائلة، وتتقبّل الأسرة – وعلى رأسها الأبّ – التهنئة المقرونة بالأماني المتفائلة [(٥)].

وقد شهدت غرناطة في عصر بني الأحمر اضطرابات سياسية خطيرة، مما جعل الآبـاء يفرحون بالمواليد الذكور أكثر من الإناث، وذلك لحاجتهم إلى مَنْ يقـف فـي وجـه تهديـدات النصارى[(٦)]. إلا أن ذلك لم يجعل الأسرة الأندلسيّة تهمل تربية ابنتها، فقد اهتمت بتربية البنـات

---

(١) يوسف الثالث، ديوان ملك غرناطة، ص١٦.
(٢) انظر: الطرابلسي، حياة الشعر في نهاية الأندلس، ص٣٢٦.
(٣) يوسف الثالث، ديوان ملك غرناطة، ص٥٥.
(٤) المصدر نفسه، ص١٦٥.
(٥) انظر: النوش، التصوير الفني للحياة الاجتماعية، ص١٤١.
(٦) انظر: ظاهر، حمزة، صورة المرأة في الشعر الأندلسي في ظل بني الأحمر، ص٨٧.

اهتماماً بالغاً، وربتهن تربية صالحة، وحرصت على تنشئتهن نشأة عربيّة إسلاميّة، كان من أثرها أن صارت فيما بعد أمّاً صالحة وعالمة فاضلة وأديبة بارعة.

ولم تفرق الأسرة الأندلسية عندما كانت الأندلس في أوج ازدهارها وقوّتها بين الذّكر والأنثى من أبنائها، فكلاهما سواء، فقد هنّأ ابن عمّار[١] الأندلسي المعتمد بن عبّاد وقد ولد له مولودان ذكر وأنثى، فقال[٢]:

إهْنأ بِنَجْلَيكَ مِنْ أنثى ومِنْ ذكرِ   لا تَعْدَم الضوءَ بين الشَّمسِ والقمر

إلا أن النظرة العامة في هذا العصر _ عصر ملوك الطوائف وما بعده_ أصابها تغيّر في الحظوة التي لاقتها الأنثى، ولا سيما بين الفئات الفقيرة؛ إذ إنّ ما حصل من صراعات ونزاعات بين الممالك، وما كان يهدّد الأندلس من خطر خارجي، قد دفع كثيراً من الآباء إلى الخوف على بناتهم والخشية من وقوعهن بيد الأعداء وانتهاك حرماتهن، فكان الآباء يفضلون الذكور على الإناث[٣]، وكانت البنت في نظرهم عنصر الضعف في الأسرة، ومصدر قلقها وخوفها.

ويهنئ ابن فركون السلطان يوسف الثالث ببنت ولدت له، مبيناً أن شرف قدومها وصل إلى أقاصي البلاد لسمعة أبيها الطيبة، يقول [٤]:

هنيئاً هنيئاً إمام الهدى   وغيث الوجود وغيث الندى

وبشرى بوافدة قد أتت   لها شرفٌ حازَ أقصى المدى

لقد طلعت هذه عندما   رأتْ سيفه في الثرى أغْمِدا

فأيْمِنْ وأسْعِدْ بها طلعةً   وأعظِمْ وأكرمْ به مولدا

---

(١) هو محمد بن عمّار المهدي الأندلسي، الشلبي، أبو بكر وزير، وشاعر هجاء، يلقب بذي الوزارتين، جعله المعتمد ابن عباد وزيراً له ومشيراً وجليساً، ثم خلع عليه خاتم الملك ولقبه بالإمارة، واستنابه على مرسية فعصى بها وتملكها، فتحيل المعتمد عليه وسدّد سهام المكايد له حتى قتله في قصره ليلاً بيده وذلك سنة (٤٧٧هـ)، ودفن بإشبيلية. انظر: ابن خلكان، أحمد بن محمد (٦٨١هـ/ ١٢٨٢م)، وفيات الأعيان، ٨م، (تحقيق إحسان عباس)، دار الثقافة، بيروت، (د.ت)، ج٤، ص٦٦٩.

(٢) الشنتريني، أبو الحسن علي بن بسام (ت٥٤٢هـ/ ١١٤٧م)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، (تحقيق إحسان عباس)، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٩م، ق٤/ م١، ٢٩٨.

(٣) انظر: المشهداني، محمد مولود (١٩٩٠م)، الشعر الاجتماعي في الأندلس من الفتح إلى نهاية عصر الطوائف، رسالة دكتوراه غير منشورة، الجامعة المستنصرية، بغداد، العراق، ص٦٦.

(٤) ابن فركون، ديوانه، ص ١٣٧.

واختار بنو الأحمر لأبنائهم أسماء الآباء والأجداد ممن بنوا مجد الدولة وأسسوا عظمة الأسرة، لهذا كثرت بينهم أسماء محمد وإسماعيل ونصر ويوسف، أمّا بناتهم فحملن أسماء عربيّة مشهورة في الإسلام كفاطمة وعائشة وخديجة، وجاء هذا الاختيار لحرص الأسرة الأندلسية على إبقاء الأصالة والحفاظ على طوابع موروثة من شأنها إعلاء قدر الأسرة.

ومما يذكر في عناية الأسرة الغرناطية بأبنائها أنهم يحرصون على تطبيق السنة النبوية، فهم يذبحون العقيقة له في اليوم السابع لولادة المولود، ويحلق شعره لأوّل مرة، ويُسمى في هذا اليوم، وكثيراً ما كان يمنح الابن اسم الجد من جهة الأب، مع الكنية المناسبة، ومن عاداتهم في تسمية المولود أنّ من يسمّيه يهب له هبة، فقد طلب ابن فركون من الملك يوسف الثالث تسمية أبنائه راجياً أن ينعم عليه بجزيل عطائه.

يقول ابن فركون: "كتبت لمقامه الكريم بالحضرة معْلماً بولادة ولدي أبي الطّاهر هداه الله وذلك يوم الأحد فسمّاه أيّده الله ووهبه مثل أخيه شكر الله نعمته، وأبقى عنايته وحُرمته"[١]:

أمَوْلايَ إنَّ العَبْدَ قدْ زادَ عندَهُ	**خديمٌ لِمَا شاءَتْ عُلاك أعدَّه**
أتى وافِداً من عَالَمِ الكَوْنِ راجياً	**ندَاكَ الذي تسْتَمْطِرُ السُّحْبُ عهْدَهُ**
يُثيرُ سُروراً في النّفوسِ بِكَوْنِهِ	**يُوَثِّرُ مِنْكَ الجاهُ والعِزُّ مَهْدَهُ**
بتَسْمِيةٍ يبْقى مَدَى الدّهْرِ ذِكْرُها	**يُشَرِّفُ مَوْلانا بذلِكَ عَبْدَهُ**

ومن عاداتهم أيضاً تعليق التّعاويذ والتمائم الوقائيّة بعد فطام المولود.

وغني عن البيان أن الختان سنة إسلامية متبعة، يحرص عليها المسلمون في المشرق أو المغرب، وكان الأب الغرناطي يحتفل باختتان ابنه بعد سنّ متأخّرة من عمره، وتقام الاحتفالات والمهرجانات، وتقدّم الولائم بهذه المناسبة، ويُدعى إليها النّاس من كل حدب وصوب.

---

(١) ابن فركون، ديوانه، ص٢٤٢ – ٢٤٣.

وللبهجة التي يحدثها قدوم المولود اعتاد شعراء الأندلس على تقديم التهنئة للآباء السعداء بأبنائهم وبناتهم، مع إضفاء الصفات المحبّبة لدى مجتمعهم على حديثي الولادة، كالسيادة والوسامة والشجاعة. وقد هنّأ ابن سهل الإسرائيلي[١] أحدهم بمولود له [٢]:

هي طلْعةُ السَّعدِ الأغرِّ فمَرْحَبا	وَسَنا الرئاسةِ قدْ أضاءَ فلا خَبا
فرعٌ أزاهِرُهُ المناقِبُ نابتٌ	في المعلُوات[٣] الشُّمِ[٤] لا شُمَّ الرُّبى
هَشّتْ لِمَطْلَعِهِ الأسِرَّة والأسِن	نةُ والمحافلُ والجَحَافِلُ والظُّبى
لا تحْمِلوه على المُهودِ فإنّهُ	لَيرَى ظُهورَ الخَيلِ أوطأ مَركبا
ولتفْطِمُوه عَن اللِّبانِ فإنَّهُ	لَيرَى دَمَ الأبطالِ أحلى مَشْرَبا

فهو فرعٌ أصيل من أصل كريم سامق، سعدت بولادته أسنّة الرماح، وابتهجت بقدومه السّيوف، وسرّت بمجيئه مجالس الرجال؛ لأنه الفارس المقدام الذي لا يتبوأ إلاّ ظهور الخيل، وهو الشجاع الذي لا يرتوي إلاّ من دمّ الأبطال.

وكان لأهل الأندلس رغبة كبيرة في التعليم، ولذا فقد اهتم الآباء بتعليم أبنائهم وتربيتهم، وجاء في العديد من المصادر أنّ الأندلسيين أولوا تعليم أبنائهم في سن مبكرة اهتماماً بالغاً، كان سبب نبوغ عدد منهم ووصوله إلى درجة عالية من العلم ومراتب راقية في المجتمع[٥].

وتأسست علاقة الابنة بأبيها في الأسرة الأندلسية على أسس متينة من الودّ والاحترام. وعني الأب في تنشئة ابنته على الصّلاح والخير، وغرس فيها مكارم الأخلاق واعتنى بتعليمها، ومن نماذج هذا الاهتمام الحثيث نضار ابنة أبي حيان، فقد كانت عالمة معربة ومؤدبة حضرت على الدمياطي، وسمعت من شيوخ مصر، وكانت تقرأ وتكتب،

---

(١) هو إبراهيم بن سهل الإشبيلي، أبو إسحاق (٦٠٥- ٦٤٩هـ)، شاعر، كان يهودياً وأسلم، وتلقى الأدب وقال الشعر فأجاده، أصله من إشبيلية وسكن سبتة بالمغرب الأقصى، وكان مع ابن خلاص (والي سبتة) في زورق فانقلب بهما فغرقا، له "ديوان شعر" صغير. انظر: الصفدي، خليل بن أيبك، (ت٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م). الوافي بالوفيات، ٣٠م، باعتناء هلموت ريتر،(تحقيق مجموعة محققين)، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، بيروت، ١٩٦٢م، ص٥؛ الكتبي، محمد بن شاكر (٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م)؛ فوات الوفيات، ٦م، (تحقيق إحسان عباس)، دار الثقافة، بيروت، (د.ت)، ج١، ص٢٠.

(٢) ابن سهل الإسرائيلي، أبو إسحق إبراهيم بن سهل (ت٦٤٩هـ/ ١٢٥١م)، ديوان ابن سهل الإسرائيلي، (جمع وتحقيق محمد قوبعة)، الجامعة التونسية، تونس، ١٩٨٥م، ص٥٥- ٥٦.

(٣) المعلُوات: من العُلا أي الرفعة والشّرف، انظر: المعجم الوسيط، مادة (علا).

(٤) الشُّم، جمع شَمَّ، وشَمَّ الرجل أي ترقّع وتكبّر، انظر: المعجم الوسيط، مادة (شَمَّهُ).

(٥) انظر: الدوسري، الحياة الاجتماعية في غرناطة، ص٣٣٦.

وقد خرّجت لنفسها جزءاً من الأحاديث ونظمت شعراً، وكانت تعرب جيداً[١]. وقد أشاد أبو حيان بعلمها وفطنتها وذكائها، فقال[٢]:

ذاتُ ارتياحٍ إلى القُرآنِ تَسْرُدُهُ … طوْراً وتَسْرُدُ طوراً بعدَها السُّنَنا

فقهٍ ونحوٍ وتاريخ ومعرفةٍ … ولحظِ فكرٍ إلى نيلِ العلومِ رَنا

قد نوَّرَ اللهُ بالتقوَى بصيرتَها … فلم يُضيّعْ لها في غَيرها الزَّمنا

فَصيحَةٌ ثقّفَتْ بالنَّحوِ مَنطِقَها … فلنْ ترَى فيه لا لَحنا ولا لَكنا

وكانت نضار مصدر فخر لأبيها إذ يقول: " ليت أخاها حيان مثلها "[٣].

وليس لأحد من الناس حب في قلب الأب يعدل حبه لأولاده، ولذلك فما من أمر أقسى على الأب من فقدانه لبنيه، وترسخ في أذهاننا كثير من عيون الشعر التي قيلت في رثاء الأبناء من مثل عينية أبي ذؤيب الهذلي وغيرها، ويتبدى حبّ الآباء لأبنائهم وبناتهم وتعلقهم بهم من خلال الشّعر الذي نظم في رثائهم. فقد أفقدهم موت الأبناء بهجة الحياة وزينتها، فيتساءل أبو حيان بعد موت ابنته نضار، وتكدّر عيشه كيف ستصفو له الحياة مرة أخرى[٤]:

أبَعْدَ نُضارٍ أبتغي صفوَ عِيْشَةٍ … وقد كُدِّرَتْ، يا بُعْدَ عيشي من الصفْوِ

فقد كانت أنيسه وحبّه وحياته وروحه، يقول [٥]:

ونُضارٌ كانت أنيسي وحُبِّي … ونُضارٌ كانتْ حَياتِي ورَوحي

---

(١) انظر: أبو حيان الغرناطي، ديوانه، مقدمة الديوان،ص٦٩.
(٢) المصدر نفسه، ص٤٠٠– ٤٠١.
(٣) المصدر نفسه، مقدمة الديوان، ص٦٩.
(٤) المصدر نفسه، ص٤٠٨.
(٥) المصدر نفسه، ص١٤٣.

وبفقد القيسي توأميه الحسن والحسين تغيّرت الحياة، وانتزعت بهجتها، فأصبح حلوها مراً وحسنها مستقبحاً، فقال[١]:

أوْدَى حسيْنٌ وأودَى بَعْدَه حَسنُ	فَطارَ بَعْدَهما عنْ مُقلتي الوَسَنُ
تَغيّرَتْ عِنْديَ الدَّنيا لِفَقْدِهِما	تغيُّراً جَبْرُهُ ما إن له سَنَنُ
فحُلُوها في فمي مُرٌّ وفي نظري	مُسْتَقْبَحٌ من سنَاها المنظرُ الحسنُ

ويعمق الإحساس بألم الفقد ومرارة الفراق اتصاف المرثي بمناقب تفوق أقرانه، وتميزه عن بقية صحبه، مما يجعل حزن الأب عليه مضاعفاً[٢]، فابن الجياب[٣] يرى في ابنه أبي القاسم حُسن الأدب، ورجاحة العقل، والسماحة، والأمانة، والمروءة، والفطنة؛ مما يزيد في حرقته ووجعه على فراقه، فيرثيه قائلاً[٤]:

لله ذاكَ القبرُ ماذا ضمَّ من	فَضْلِ الحِجى ومحاسِنِ الآدابِ
وسماحةٍ ورجاحةٍ وأمانةٍ	وَصيانةٍ وَطَهارةِ الأثوابِ
وَشَمائلٍ مرضيّةٍ مَعْسولَةٍ	كالشَّهدِ ممزُوجاً بماءِ سحابِ

وليس له إلاّ التسليم بالقضاء والقدر والصبر عليهما، فالمكتوب حتمي لا مفر من لقائه، ولا مرد من استردَاد الله لما وهب، فيقول[٥]:

وعليَّ حَتْماً بَعْدَكَ التّسليمُ في	ما قدْ جَرَى للمُنعِمِ الوَهَّابِ
فَهُوَ الذي أعْطى وَمَتَّعَ بُرْهةً	ثُمّ استردَّكَ مُنعماً بثوابِ

---

(١) القيسي، ديوانه، ص٣٢٨- ٣٢٩.

(٢) العبد اللات، فاطمة (٢٠٠٢م)، شعر الرثاء في الأندلس في ظل بني الأحمر، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن، ص٣٨.

(٣) وهو علي بن محمد بن علي، يكنى أبا الحسن، ويعرف بابن الجياب (٦٧٣- ٧٤٩هـ)، شاعر أندلسي من أهل غرناطة وأحد شيوخ لسان الدين بن الخطيب وجمع لسان الدين شعره، وهو يشتمل على أغراض متعددة من المعشرات النبويات، والقصائد السلطانيات، والإخوانيات والمقطوعات الأدبية والألغاز والأحجيات، توفي بالطاعون عام (٧٤٩هـ)، ودفن بباب إلبيرة. انظر: لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة، ج٤، ص١٢٥؛ المقري، نفح الطيب، ج٥، ص٤٣٤.

(٤) الحبازي، مشهور عبد الرحمن (١٩٨٣م)، ديوان أبي الحسن بن الجياب، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن، ص١٥٧.

(٥) ابن الجياب، ديوانه، ص١٥٨.

وموجز القول إن الشعر الأندلسي في عصر بني الأحمر يمثل وثيقة مهمّة دالــة بجــلاء ووضوح على طبيعة العلاقات الأسرية القائمة على الود والاحترام والتعاون وعلى عظــم دور الآباء والأمهات في تربية أبنائهم وتنشئتهم على الأخلاق والقيم العربية الإسلامية.

الجواري:

إن الجواري أحد مكونات نظام الأسرة الأندلسية وأحد عناصرها، لا سيما في الأسر الغنيّة منها. فقد تعدّدت في بيوت الملوك والأمراء والأثرياء وذوي الجاه، وشكلت مظهراً من مظــاهر الغنى والترف والأبهة(١).

ويعرف عبد النور جبور الجارية بأنها: كل امرأة أو فتاة أُخذت أسيرة في الحرب أو نقلت قسراً من بلاد العدو(٢). وتناسب عدد الجواري في الأندلس طردياً مع قوّة أو ضــعف الحكــام هناك، فإذا كان الحاكم قوياً استطاع أن يصدّ هجمات الفرنجــة، وأن يغــزو أرضــهم ويــسبي نساءهم، أمّا إذا كان الحاكم ضعيفاً فإنه يبقى داخل حدود مملكته، ولا يغزو العدو فيقــل عــدد الجواري في زمنه.

وقد عرفت الأندلس نوعين من الجواري هما الأسود والأبيض(٣)، فالجواري السود كــن حبشيات الأصل، وكان يؤتى بهن من المشرق، وكنَّ قلة في الأندلس. وكان أوّل من مهّد لهــنّ السبيل في الأندلس عبد الرحمن الداخل، وذلك عندما جلب إليها عدداً منهنّ من المدينة المنورة، وأفرد لهن حجرات في قصره عُرفت ب "دار المدنيات"(٤). أمّا الجواري البيض فكنّ من الأرمن والصقالبة واليونان وفرنسا، وعلى العكس من الجواري السود فقد انتشرن بكثرة في الأندلس عن طريق السبي أو الشراء(٥).

وأصبحت الجواري من الحاجات الملحّة التي لا غنى عنها لكثير من الرّجال، حتــى بلــغ الأمر بلسان الدين ابن الخطيب _الذي عرف عنه حبّه الشديد لزوجته وأم أولاده وحزنه البــالغ لوفاتها_ أن يبعث بأبيات شعريّة إلى سلطان المغرب في ذلــك الوقــت "أبــي عمــر تاشــفين

(١) انظر: أبو صالح، وائل(١٩٨٥)، الجواري في الأندلس، ط١، دار القلم، رام الله، ص١٧.
(٢) انظر: عبد النور، جبّور(١٩٤٧)، الجواري، دار المعارف، القاهرة، ص١١٠.
(٣) انظر: المصدر نفسه، ص١٩.
(٤) انظر: المقري، نفح الطيب، ج٣، ص١٤٠؛ وأبو صالح، الجواري في الأندلس، ص٢٠.
(٥) انظر: أبو صالح، الجواري في الأندلس، ص٢٠.

الموسوس" يطلب إليه جارية إسبانيّة ممن اشتمل عليهن قصره، ولم يمض على وفاة زوجته سوى شهرين[١]. يقول[٢]:

قصدْتُ إلى المَوْلَى أبي عُمرَ الرِّضا	**غَدَتْ بالّذي يُرْضِي المشيئةَ جَاريهِ**
وَطُوفَانُ همِّي قدْ طغى لِيُجيرَني	**وتُرْكِبَني آلاؤُهُ فَوْقَ جَاريهْ**
وإنّي لراضٍ بالذي يَرْتَضيهِ لي	**ولو عَبدَتْ آباؤُها شَنْتَ ماريهْ[٣]**

ولعلّ ابن الخطيب رمى من وراء ذلك ملأ بعض الفراغ الذي تركه موت زوجته، إضافة إلى حاجته الملحّة إلى امرأة تشرف على خدمته وخدمة أولاده الصغار[٤].

ويتكرّر الأمر نفسه مع صديق ابن الخطيب الحميم ابن خلدون، فعندما زار ابن خلدون غرناطة سنة (٧٦٤هـ) تسرّى هناك بجارية إسبانية تدعى "هند". وعندما عاد إلى المغرب بعث إلى ابن الخطيب يطلبها.

وقد خاطب لسان الدين ابن الخطيب سلطان المغرب (أبا الحسن المريني) عن الأمير "أبي الحجاج" في شأن جارية اسمها زيتونة، فقال[٥]:

يا دُرَّةً للمَجْد مَكْنُونهْ	**حَاجةُ مثْلي مِنْكِ مَضْمُونَهْ**
ومن يَجُدْ بالخُبْزِ مِنْ حقّهِ	**أن يُودِمَ الخُبزَ بزَيتُونهْ**

ويبدو أنّ " زيتونة " هذه كانت من جواري سلطان المغرب، وأرادها الأمير أبو الحجّاج لنفسه، فبعث ابن الخطيب بهذه الأبيات يطلبها منه.

وتباينت درجات الجواري ومنزلتهن، فقد قسّمت الجواري حسب وظيفتهنّ في البيوت إلى قسمين: جوار شعبيّة أو جواري الخدمة، وهؤلاء كان ينقصهن الجمال أو العلم أو صغر السن. وانحصرت مهمتهن بالخدمة في البيوت، وابتياع حاجيات البيت من السوق. وتفاوت عددهن في

---

(١) انظر: أبو صالح، الجواري في الأندلس، ص٣٦.
(٢) لسان الدين بن الخطيب، نفاضة الجراب، ص٢٨٢.
(٣) شنت مارية: المقصود بها مريم العذراء، أي حتى لو كانت الجارية نصرانية.
(٤) انظر: لسان الدين بن الخطيب، نفاضة الجراب، مقدمة الناشر، ص٣٥.
(٥) لسان الدين بن الخطيب، ديوانه، ط١، ٢م، (تحقيق محمد مفتاح)، دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٩٨٩م، ج٢، ص٦١٤.

القصور والبيوت حسب مستوى ربّ البيت الاقتصادي، وتشرف عليهن واحدة منهن يطلقون عليها اسم "قهرمانة"، وهؤلاء كن يعرضن للبيع في الأسواق(١).

أما القسم الآخر فهن جوار خاصة أو جواري اللذة، وهؤلاء تميزن بصغر سنهن وتمتعن بدرجة من الجمال والعلم. وكان تجّار الرقيق يهتمون بتعليمهن(٢)، فالجارية المتعلمة أغلى ثمناً من الجارية الأميّة(٣). وكنّ يتلقين مختلف ضروب العلم والمعرفة وفنون الأدب حتى صار منهن "عالمات حكيمات منطقيات فلسفيات هندسيات موسيقاويات نحويات أديبات خطاطيات" (٤)، وهؤلاء كنّ يعرضن للبيع في بيوت التجار الخاصّة. وكان الملوك والأثرياء يختارون المعلّمة والمربيّة والمغنيّة والحبيبة وحتى الزوجة من هؤلاء الجواري (٥).

وأضفت الجواري الصغيرات السنّ الجميلات السحر والروعة على مجالس اللهو والشراب والغناء؛ لما يتميزن به من جمال فتّان، ولما عُرف عنهن من جودة العزف، وجمال الرقص، وقد وصف ابن الخطيب إحداهنّ في مجلس لهو، وقد عمت فيه أجواء اللهو والرّقص والسّرور من حولها، فقال(٦):

وَفَاتِنةِ اللّحَاظِ إذا تثنّتْ	**رَأيْتَ الغُصْنَ يمْرَحُ في البُرُودِ**
غزالةُ رَبْرَبٍ(٧) وَمَهَاةُ قفْرٍ	**تَعَوَّدَ طرْفُها صَيْدَ الأُسُودِ**
إذا ما اسْتَنْطَقتْ نَغمَ المَثاني(٨)	**ثنَيْنَا هِزَّ ةَ قُضُبَ القدودِ**
حَمدْتُ يدَ الزَّمانِ عَلَيّ لمّا	**نَعِمتُ بهَا عَلى رَغْمِ الحَسُودِ**

وتطلّعت الجارية دوماً إلى الحرية، وشغف قلبها أن تكون في مصاف العتيقات النجيبات، ولذا فقد شكّلت الجواري في الأندلس خطراً على وحدة الحياة الاجتماعية في نطاق الأسرة الصغيرة. لمحاولتها المستمرة الحثيثة التمكن من قلب سيدها والسعي الدائم إلى إنجاب الولد منه،

---

(١) انظر: أبو صالح، الجواري في الأندلس، ص٢٠.
(٢) انظر: المصدر نفسه، ص٢٠.
(٣) انظر: أمين، ظهر الإسلام، ج٣، ص٣٠.
(٤) الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ق٣، م١، ص٣٢٠.
(٥) انظر: المصدر نفسه، ص ٢٠.
(٦) لسان الدين ابن الخطيب، ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام، ص٤١٤.
(٧) ربرب: الربرب هو القطيع من بقر الوحش، وقيل من الظباء، ولا واحد له، انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (ربب).
(٨) المثاني: من أوتار العود، الذي بعد الأول، واحدها مَثنى، انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (ثني).

لكي تصبح به حرّة يطلقون عليها "أم ولد"[١]. حتى إذا ما شبّ ولدها حاولت أن تمكّنه من قلب أبيهِ، وتجعله المفضّل لديه على إخوانه الآخرين، وهي في سبيل تحقيق هذا لا تتورّع عن استخدام أحطّ الأساليب وأخسّها، وهذه الأعمال من شأنها غرس بذور العداوة والبغضاء بين أفراد الأسرة الواحدة؛ إذ يحقد الأخ على أخيه، والوالد على ولده، فتصاب الأسرة هنا بالتفسّخ والانحلال.

وشاكل خطورة دورها في الحياة الاجتماعية خطورته في الحياة السياسية، فالمتتبع الدارس لتاريخ الأندلس يرى أنّها لم تنتقل من فترة سياسية سيئة إلى أخرى أسوأ إلاّ وكان للجواري دور بارز في ذلك الانتقال.

حتى إنّ الفتنة التي قامت في الأندلس وأدّت إلى هذه النهاية المؤلمة كانت الجواري من أسبابها المباشرة. فقد تزوّج أمير غرناطة أبو الحسن بجارية نصرانية اسمها "ثريا"، وكان اسمها النصراني "إيزابيلا" وأنجب منها سعداً ونصراً، وكانت قد أسرت واتخذت مولاة في دار أبي الحسن. وهو بهذا الزواج قد سطر نهاية الأندلس بعد أن مزّق وحدة شعبه، وذلك لأنه مال إلى جاريته وفضّلها على زوجته الحرة وابنة عمه عائشة وأولادها أبي عبد الله، وأبي الحجاج يوسف. فما كان من " ثريا " إلاّ أن أقحمت نفسها في شؤون الدولة، وعرفت بالدّهاء وسعة الحيلة، فغرست بذور الشّقاق بين أفراد العائلة، وأصبح البيت الحاكم بذلك قطعة من نار؛ الزوجة تكره ضرّتها، وأولاد كل زوجة يعادون أولاد الزوجة الأخرى. وما لبثت غرناطة نفسها أن انقسمت انقسام البيت الحاكم، حتى أصبح أبو عبد الله يعادي أباه، ويعمل لمناهضته، وكذلك يفعل الأب، وكل يستنصر بملوك النصارى ليعاونوه على خصمه. ولكثرة الدسائس التي قامت بها الزوجة النصرانية "ثريا" لا يستبعد أحمد أمين في كتابه "ظهر الإسلام" أنها كانت جاسوسة على البيت الغرناطي الحاكم للنصارى المحاربين حناناً منها إلى أصلها[٢].

يقود كل ما تقدم إلى القول بأن للجواري دوراً مؤثراً في حياة المجتمع الأندلسي عامة وفي حياة الأسرة الأندلسية خاصّة.

---

(١) انظر: أبو صالح، الجواري في الأندلس، ص٣٣.
(٢) انظر: أمين، ظهر الإسلام، ج٣، ص٤٦.

المثل والأخلاق:

تشتمل جبلّة الأندلسي على عدد من المثل والأخلاق العربية والإسلامية، وقد اعتد بها واستمسك بعراها. ووصفها الشعر الأندلسي وعبر عن كثير منها.

وأول هذه المثل الرفيعة والأخلاق الحسنة صفة الصدق. وقد حثّ الشعراء الأندلسيون الناس على قول الصدق في كلّ الأوقات، والتزامهم إياه بصرف النظر عن نتائجه، لأنه الحقّ الذي يعلو وإن كثر اللائمون[١].

ومن هؤلاء الشعراء ابن ليون التجيبي[٢] فهو يدعو إلى الصدق الذي يحفظ للنفس عزتها وهيبتها، ويحذر من عواقب الكذب وأوزاره، فيقول[٣]:

الصِّدق عِزٌّ فلا تعدلْ عن الصدق	**واحذر مِنَ الكَذبِ المَذْمُومِ في الخَلْقِ**
مَنْ لازَمَ الصِّدقَ هابَتْهُ الورى وَعلا	**فالْزَمهُ دأباً تَفُزْ بالعِزِّ والسَّبْقِ**

ومن بين تلك المثل والقيم أيضاً خصلة الكرم، التي تعد من أبرز صفات المجتمع العربي منذ القدم، وقد رفدها دعم الإسلام لها، وحثه على الإنفاق في سبيل الله، ووعد صاحبها بالأجر العظيم يوم القيامة، وبالعطاء الجزيل في الدنيا.

---

(١) انظر: الهرامة، عبد الحميد عبد الله(١٩٩٩)، القصيدة الأندلسية خلال القرن الثامن الهجري: الظواهر والقضايا والأبنية، ط٢، دار الكاتب، طرابلس، ج١، ص٥٠٠.

(٢) وهو سعد بن أحمد بن ليون التجيبي، أبو عثمان شيخ مولع بالتأليف والتدوين، يلخص ويوجز، كان شديد التخلق، شهير الإيثار، له شعر يلم بالإجادة أحياناً، وهو أحد أشياخ لسان الدين ابن الخطيب، كان مولعاً باختصار الكتب، فاختصر "بهجة المجالس" لابن عبد البر، واختصر "المرتبة العليا" لابن رشد القفصي، وكتاب في الهندسة وآخر في الفلاحة وغيرها من الكتب، وترك مؤلفات عديدة، وأورد له المقري في النفح مجموعة كبيرة من مقطعاته الشعرية تتضمن نصائح متنوعة. انظر: المقري، نفح الطيب، ج٥، ص٥٤٣؛ ولسان الدين بن الخطيب، الكتيبة الكامنة، ص٨٦.

(٣) المقري، نفح الطيب، ج٥، ص٥٦٥- ٥٦٦.

ويرى ابن خاتمة الأنصاري[١] في الكرم خلقاً نبيلاً يتخلد به ذكر الإنسان بعد مماته؛ ولذا يدعو إليه يقوله[٢]:

إذا وَجَدْتَ فَجُدْ للنَّاسِ قاطبةً   فالحالُ تَفْنى ويَبْقى الذِّكْرُ أحوالا

لا سِيَّما ورسُولُ اللهِ ضَامِنُهُ   أنفِق ولا تَخْشَ من ذِي العرْشِ إقلالا

ويفتخر ابن زمرك[٣] بالكرم، ولا يرى في الشح تخليداً للإنسان، بل هو منقصة له، يقول[٤]:

ألائمةً في الجودِ والجودُ شِيمَةٌ   جُبِلْتُ على إيثارها يومَ مَوْلدي

ذريني فلو أني أُخَلّدُ بالغِنى   لَكُنْتُ ضَنيناً بالذي ملكتْ يدِي

---

(١) وهو أحمد بن علي بن محمد بن خاتمة، أبو جعفر الأنصاري الأندلسي، يعرف بابن خاتمة (ت بعد ٧٧٠هـ)، طبيب، ومؤرخ، وأديب محدّث، من الأدباء البلغاء من أهل ألمرية بالأندلس، تصدّر للإقراء فيها بالجامع الأعظم، وزار غرناطة مرات، وكانت بينه وبين لسان الدين بن الخطيب مراسلات، ذكرها المقري في النفح، من كتبه "مزية ألمرية على غيرها من البلاد الأندلسية"، و "رائق التحلية في فائق التورية"، وله ديوان شعر. انظر: لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص٢٣٩؛ وابن الجزري، أبو الخير محمد بن محمد (ت٨٣٣هـ/ ١٤٢٩م)، غاية النهاية في طبقات القرّاء، ط٣، ٢م، (عُني بنشره ج. برجستر اسر)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٢م، ج١، ص٨٧.

(٢) المقري، نفح الطيب، ج٧، ص١٥٩.

(٣) وهو محمد بن يوسف بن محمد الصريحي، أبو عبد الله، المعروف بابن زمرك (٧٣٣- بعد ٧٩٧هـ)، وزير من كبار الشعراء والكتّاب بالأندلس، ولد ونشأ في روض البيازين بغرناطة وتعلم على شيوخها ومنهم لسان الدين بن الخطيب، تولى الكتابة لسلاطين غرناطة الغني بالله وابنه يوسف الثاني، وكتب عن السلطان أبي سالم المريني في المغرب، أظهر جرأته على أولي الأمر فاضطر يوسف الثاني إلى سجنه، وعندما تولى محمد السابع الحكم أبقى على ابن زمرك وزيراً لفترة قصيرة ثم عزله، وأرسل رجالاً دهموه في بيته وقضوا عليه، وكان قد وشى بأستاذه لسان الدين بن الخطيب فلقي جزاء عمله، وقد جمع السلطان ابن الأحمر شعر ابن زمرك وموشحاته في مجلد ضخم. انظر: المقري، نفح الطيب، ج٧، ص١٤٥- ٢٨١؛ ولسان الدين ابن الخطيب، الإحاطة، ج٢، ص٣٠٠؛ وابن القاضي، أحمد بن محمد المكناسي (ت١٠٢٥هـ/ ١٦١٦م)، جذوة الاقتباس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٣م، ج١، ص٣١٢.

(٤) المقري، نفح الطيب، ج٧، ص١٥٩.

وذم الأندلسيون البخل وأهله. فهذا ابن خاتمة ينعى على البخلاء حبّ المال، وإنفاق عمرهم في جمعه، فيقول[(١)]:

يا منْ غدا يُنفِقُ العُمْرَ الثمينَ بلا　　جدْوى سِوى جَمْع مالٍ خيفةَ العدَمِ

ارْجِعْ لِنَفْسكَ وانْظُرْ في تَخَلُّصِها　　فقدْ قذَفْتَ بها في لُجّةِ العَدَمِ

ينضاف إلى تلك الأخلاق التي تحلى بها أبناء المجتمع الغرناطي سمة التواضع، فهو سبب الرفعة في الدنيا والآخرة، فما تواضع أحد لله إلاّ رفعه، يقول ابن خاتمة الأنصاري [(٢)]:

دِنْ بالتَّواضُع والإخبات[(٣)] محتسباً　　تَفُقْ علاءً على أهلِ السِّياداتِ

فالتُّرْبُ لما غَدا للرّجْلِ مُتَّطئاً　　تَمَسّحَ النّاسُ مِنْهُ في العباداتِ

وما أروع مثال ابن خاتمة الذي ضربه في هذين البيتين للدلالة على أهمية خلق التواضع، الذي يسمو به الإنسان ويحتسب به الأجر عند الله.

ورعاية حق الجار وحسن معاملته والإحسان إليه من المثل الأخلاقية التي صانها الإسلام وحض عليها، واستوصى بها الأندلسيون وتمسكوا بعراها. فقد وصّى الله سبحانه وتعالى بالجار ودعا إلى الإحسان إليه، قال تعالى: {واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب}[(٤)]. وعملاً بأمر الله سبحانه وتعالى حث ابن ليون التجيبي على حُسْن الجوار، وتحمّل أذى الجار، والتغاضي عن زلاته وسقطاته، فقال[(٥)]:

للجَار حَقٌّ فاعْتَمدْ برَّهُ　　واحْمِلْ أذَاهُ مغضياً ساترا

فاللهُ قدْ وَصّى بهِ فاغْتَفرْ　　زَلَلَهُ الباطنَ والظاهرا

---

(١) ابن خاتمة الأنصاري، ديوانه، ص١٥٦.

(٢) المصدر نفسه، ص١٥٤.

(٣) أخبت: خشع وتواضع، انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (خبت).

(٤) النساء، الآية ٣٦.

(٥) المقري، نفح الطيب، ج٥، ص٥٤٨.

فالمجتمع الغرناطي اعتد بجملة من القيم العليا والمثل السامية وتقلدها في سلوك أبنائه وتصرفاتهم وتعاملاتهم، وتزيّنت بها نفوس النّاس وتهذّبت بها طباعهم.

النّقد الاجتماعي:

قادت الحضارة والترف التي بلغها المجتمع الأندلسي في عهد بني الأحمر المجتمع إلى الانحلال وفساد الأخلاق، "فالترفُ مفسدٌ للخَلَق بما يَحْصُلُ في النّفس من ألوان الشّر والسفسفة[١] فألوان المفاسد أذهبت منهم خلالُ الخير، وما تدب تلك الشرور بمجتمع حتى تكون علامةً على الإدبار والانقراض وتأخذ الدولةُ مبادىءَ العطب وتتضعضعُ أحوالها وتَنْزِلُ بها أمراضٌ مزمنةٌ من الهرم إلى أن يُقضى عليها"[٢].

ولم يقف الشاعر الأندلسي وقفة المتفرج العاجز أمام هذه المفاسد وتلك الرزايا، بل نقد مظاهر الفساد الاجتماعي، وحاول تعيين مكامن الخطأ ومواطن الخلل أياً كان مصدرهما. ولما كان الشاعر الأندلسي في كثير من الأحيان قريباً من الحياة الاجتماعية فقد تضمنت أشعاره ما يوضح صورة النقد الاجتماعي[٣].

ومن مظاهر الفساد الاجتماعي التي ظهرت في المجتمع الغرناطي ونقدها الشعراء، ما يأتي:

انقلاب القيم:

انقلبت موازين الناس فأصبح الجاهل عندهم في منزلة العالم[٤]، كما جاء في قول عبد الكريم القيسي[٥]:

قدِ استَوى في بَسْطةٍ جاهلٌ   فَدْمٌ[٦] مع الحَبْر[٧] الذّكيّ اللبيبْ

---

(١) السفسفة: سَفْسَفَ العمل: لم يبالغ في إحكامه، انظر: المعجم الوسيط، مادة (سفسف).

(٢) انظر: ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص١٦٩.

(٣) انظر: المشهداني، الشعر الاجتماعي في الأندلس من الفتح إلى نهاية عصر الطوائف، ص٨٤.

(٤) شيخة، جمعة (١٩٩٥)، النقد السياسي والاجتماعي في الشعر الأندلسي، ديوان القيسي نموذجاً، حوليات الجامعة التونسية، العدد(٣٧)، ص٣٩.

(٥) القيسي، ديوانه، ص٢١٢.

(٦) فَدْمٌ: العَيِيُّ عن الحجة والكلام مع ثقل ورخاوة وقلّة فهم، انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (فدم).

(٧) الـحَبْر: العالم، انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (حبر).

وأضحى الفاسق من الورى عزيزاً رفيع المستوى، وعُدَّ الورع منهم ذليلاً ضعيفاً[١]، يقول القيسي متعجباً من انقلاب الموازين عند الناس[٢]:

عَجَبَاً لمادِحِ بَسْطَةٍ من جاهلٍ عَمّا بِهِ في النّاسِ عَيْبَةٌ لاهِ

وَعَزيزُ هذا الفِسْقِ عزَّ لفسقِهِ وذَليلُها تالٍ كتابَ اللهِ

ولذلك الانقلاب القيمي أصبح غير الكفء من العدول مسؤولاً الأحكام، وبقي ذو الكفاءة معزولاً عنها[٣]، قال الشاعر القيسي[٤]:

رأيتُ عَظيمةً أشْفَقْتُ مِنْها وشيمةُ سَيِّدي دَفْعُ العَظائمْ

عُدولُكَ في حوانيتِهم قُعودُ وغيرُ العدْلِ بالتحليفِ قائمْ

وما أشبه الليلة بالبارحة، إذ غدا الدرهم المقياس في تقييم الناس[٥]، يقول الشاعر[٦]:

أنا للنّاسِ أخٌ ما دَامَ عِنْدي وابنُ عمِّ

وإذا لم يكُ عِنْدي هجُروني دُونَ جُرْمِ

فساد الأخلاق:

ويتبع انقلاب القيم فساد الأخلاق وضياع المثل العليا، ومن صور فساد أخلاق المجتمع الغرناطي تكالب أفراده على اللذة والانغماس فيها، وما ينتج عن ذلك من انحلال في الأخلاق، وخور في العزيمة، وجبن في مواجهة العدو[٧].

---

(١) انظر: شيخة، النقد السياسي والاجتماعي في الشعر الأندلسي، ص٥٠.
(٢) القيسي، ديوانه، ص٣١٢.
(٣) انظر: شيخة، النقد السياسي والاجتماعي في الشعر الأندلسي، ص٥٠.
(٤) القيسي، ديوانه، ص٣٤٤.
(٥) انظر: الطرابلسي، حياة الشعر في نهاية الأندلس، ص٥٤٧.
(٦) القيسي، ديوانه، ص٦٢.
(٧) انظر: ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص١٦٨.

ويرى الشاعر السلطان يوسف الثالث في تلك المفسدة الخطر كله على مصير الإسلام في الأندلس؛ ولذا فهو يبدي تبرُّمةً وضجره من هذه الآفة، فيقول[١]:

قدْ أشْربوا حُبَّ الحيَاةِ فَهُمْ لَهَا	يَسْعونَ للإسْلامِ بالإتلاف
كمْ أسْهرُوا الجَفْنَ الصَريحَ بِفِعْلِهم	كَمْ أرْسَلُوا منْ دَمْعِيَ الوَكّافِ[٢]
مَا مِنْهُمُ منْ أرتضيه لِخُطّةٍ	إلا وَقابَلَني بفعلٍ جافِ
جاهدتُ جُهدي في سبيلِ صَلاَحهم	ورضيتُ منهم بالمُطِيع الوافي

ومن صور الفساد الأخلاقي أيضاً؛ انتشار الحسد والبغضاء والعداوة بين أبنـــاء المجتمـــع الغرناطي، إذ أصبحت العلاقات الاجتماعية مقامة أساساً على التحاسد والتباغض[٣]. قال القيسي يهجو أهل بسطة، وهم نموذج من المجتمع الأندلسي في عصره[٤]:

بَلْدةٌ فيها الهوى مُنحرفٌ	كَمِزاجِ النّاسِ فيها انْحَرَفا
حَسَدٌ صاحبه البغيُ بها	ذا على هذا بهَا قد وَقفا
أكثرُ النّاسِ بها منْ تَلْقَهُ	بِكِلا الوصفين فيها عُرِفا

ونتيجة لفساد الأخلاق انعدم الاحترام، وحل مكانه الاحتقار والازدراء لشخصيات لا ينظر إليها إلا نظرة الاحترام والتقدير، مثل؛ الفقهاء والعلماء، وتدلل بجلاء هذه المقارنة التي أقامهـــا القيسي – وهو من الفقهاء – بين فقيه وكلب على مدى الانخـــرام الاجتمـــاعي الـــذي أصـــاب المجتمع الأندلسي، يقول[٥]:

الكلبُ صارَ ببسطةٍ	أعلى وأشْرفَ مِنْ فقِيهْ
أنّى فَقيهٍ يعْتلي	لمحلّه أو يَرتقيهْ

---

(١) يوسف الثالث، ديوان ملك غرناطة، ص١٤٤.

(٢) الوكاف: وكف الدمع أي سال، انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (وكف).

(٣) انظر: شيخة، النقد السياسي والاجتماعي في الشعر الأندلسي، ص٥١.

(٤) القيسي، ديوانه، ص٤٦٨.

(٥) عبد الكريم القيسي، ديوانه، ص٣١١.

الكلبُ مالِكُه بها   مِنْ كلِّ ما يخشى يَقيه

وفقيهُها مِنْ أهلها   ما ساءَ مِنْهم يتّقيهْ

فتراهُ عِنْد خُروجِهِ   يَرْتاعُ مِمِّنْ يلتقيهْ

وطال الفساد الأخلاقي طبقة القضاة، الذين يجدر بهم أن يكونوا قدوة المجتمع وأنموذجه الأمثل، فقد أشار عبد الكريم القيسي إلى فساد القاضي ابن الأحول الذي قبل الرشوة مقابل تحليل ما حرّمه الله، وتحريم ما أحلّه، فقال[١]:

أيُّ لَيْثٍ ببسطةٍ قد تقضّى   لِرعايا بَهائمٍ في مَفَازَه

منع الجائِزَ المُباحَ رياءً   والحرامَ المحظورَ شَرعاً أجازَهْ

ومَضى حُكمُه بذاكَ مَضاءً   ليسَ مِنْهُ في نَفْسِهِ مِنْ حزَازَهْ

يرتشي دائماً ويُبدِي لِمُرْشٍ   عِنْدَ لُقياهُ هشّةً واهتزازه

وينعى القيسي على ابن الأحول إباحته زواج الرجل من بنات زوجته أو حفيداتها[٢]:

نَقَدَ ابنُ الأحْوَلِ ما رآه شَيخُنا   مسْتَعْمِلاً ومُتَمِّماً عَقْدَ الهبهْ

سُحقاً له فَنكِاحُ بنتِ رَبيبهِ[٣]   بَعْدَ الدُّخولِ بالامِّ أضحى مَذْهَبهْ[٤]

ويتعجب القارئ من الحال التي وصل إليها القضاء في عهد بني الأحمر حين يجد القاضي ابن مفضل يبيح نكاح المحلل، وهو أن يتزوج الطفل الصغير مثلاً المطلقة ثلاثاً زواجاً شكلياً، ثم يطلقها حتى يتمكن زوجها الأول من البناء بها ثانية[٥]، وفيه يقول الشاعر[٦]:

---

(١) المصدر نفسه، ص٣١٤.

(٢) المصدر نفسه، ص٤١٧.

(٣) ربيبه: ربيبة الرجل بنت امرأته من غيره، انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (ربب).

(٤) شرعاً يحرم على الرجل الزواج من بنات الزوجة أو حفيداتها من غيره، حتى بعد موتها أو طلاقها.

(٥) انظر: عبد الكريم القيسي، ديوانه، هامش، ص٢٤٥.

(٦) المصدر نفسه، ص٢٤٥.

أمَبْتوتةً[١] تَهْوى الرُّجوعَ لِزَوجِها	**عليكَ[٢] بقاضي بسطة ابن مُقَضَّل**
تَجِدْ قاضياً ذا مَذْهبٍ غيرِ ضيِّقٍ	**يُجيزُ بلا تَقْوى نِكاح المُحلِّلِ**

النّظافة والحمّامات:

يأتي حديث المقري عن أهل الأندلس بمثابة دليل واضح على اهتمامهم بالنظافة، يقول: "وأهل الأندلس أشدُّ خلق الله اعتناءً بنظافة ما يلبسون وما يفرشون، وغير ذلك ممّا يتعلّق بهم، وفيهم من لا يكون عنده إلاّ ما يقوته يومَه، فيطويه صائماً ويبتاع صابوناً يغسل به ثيابه، ولا يظهر فيها ساعةً على حالة تنبو العين عنها"[٣].

الأندلسيون محبون للنظافة مهتمون بها أبلغ اهتمام، حتى بلغ بهم الأمر تفضيلهم لها على الطعام والشراب.

وقد انتشرت الحمّامات في قصور الأندلس، كما اهتم الناس ببنائها قرب الأسواق والمساجد[٤]، وهم في ذلك يقتفون أثر المسلمين في سائر مدنهم، وهذا مما عهدته غالبية الدول في المشرق، وقد لقي بناء الحمامات الخاصة في القصور والمساجد والأماكن العامة اهتمام الخلفاء والأمراء.

وتعد الحمّامات ظاهرة اجتماعية تقليدية لدى الأندلسيين، حيث يجتمع فيها عدد من الناس يتسامرون ويتعارفون. ويعود اهتمام الأندلسيين بالذهاب إلى الحمّامات إلى اتصالها بالإسلام الذي يدعو إلى النظافة، لذلك كانت الحمّامات عادة ما تكون بالقرب من المساجد حتى يتيسر للمسلمين التطهّر قبل الدخول إلى المسجد[٥].

وبنيت في مساكن الأمراء وأبناء الطبقة الأرستقراطية في مملكة غرناطة حمّامات خاصّة، كما بنيت حمامات أخرى عامّة في الأماكن العامة التي يرتادها الناس، ومثال ذلك الحمّام الذي

---

(١) المبتوتة: هي المطلقة ثلاثاً. انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (بتت).

(٢) هناك التفات. إذ انتقل الشاعر من مخاطبة المرأة إلى مخاطبة الرجل.

(٣) المقري، نفح الطيب، ج ١، ص٢٢٣.

(٤) انظر: القاسمي، جاسم (١٩٩٩)، تاريخ الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، القاهرة، ص٧٠.

(٥) انظر: الدوسري، الحياة الاجتماعية في غرناطة: ١١٠.

أنشأه السلطان محمد الثالث وأوقفه على مسجد الحمراء[١]. ومن الحمّامات العامّة أيضاً حمّام أبي العاص[٢]، وحمّام باب الفخارين[٣] في غرناطة. وفي الحمّة شاهد ابن بطوطة في رحلته حمّاماً للرجال وآخر للنساء، يقول: "ثمّ سافرنا إلى الحمّة وهي بلدة صغيرة وهنالك بيتٌ لاستحمام الرجال وبيت لاستحمام النساء"[٤]. وحمّام بسطة الذي لا يضاهيه حمام آخر في اعتدال هوائه كما يرى عبد الكريم القيسي، يقول[٥]:

حمّامُ بَسْطَةَ في اعتِدالِ هَوَائِهِ ... مَا مِثْلُهُ في بَلْدَةٍ حَمَامُ

ماءٌ ونارٌ عَنْهُما اعتدلَ الهوى ... فتنعّمَتْ بِدُخُولِهِ الأجْسامُ

وتروي المصادر الأندلسية أنه كان في كل مدينة وقرية في المملكة حمّامات عامّة[٦].

ويحلو الذهاب إلى الحمام برفقة الأصدقاء حتى يتسامروا ويتبادلوا أطراف الحديث، وكانت هذا من عادة أهل غرناطة عند الذّهاب إلى الحمّام. وقد دعا الشاعر عبد الكريم القيسي أحد أصدقائه لمرافقته إلى الحمّام[٧]:

يا مُخْجِلاً نورَ الصَّبَاح بوَجْهِهِ ... والبَدْرَ والأزهارَ في الأكْمامِ

إنّي عَزَمْتُ على التَّحَمُّمِ في غدٍ ... فعَسى تُصَاحِبُني إلى الحمّامِ

ولم تقتصر الحمّامات العامّة على الاستحمام، بل كانت تقدّم خدمات متنوعة محققة لأوجه النعمة والرفاه، فكان فيها "الحجّام" الذي يقوم بتنظيف الجسم وإزالة الدماء الفاسدة منه، إلى جانب الموسى الحادّة لغرض الحلاقة، إضافة إلى وجود "المُدلّك" الماهر الذي يدلك جسم المستحم حتى تسترخي عضلاته وتتفتح مسام جلده، وأحياناً كان يستخدم الحنّاء في التدليك [٨].

---

(١)انظر: لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص١٣٧؛ اللمحة البدرية، ص٦٣.

(٢) انظر: لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة، ج ١، ص٤٨٣.

(٣) لوثينا، لويس سيكودي (١٩٦١)، وثائق عربية غرناطية من القرن التاسع الهجري، ط١، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، ص١٣٠.

(٤) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ج٤، ص٢٢٠.

(٥) عبد الكريم القيسي، ديوانه، ص٤٥٨.

(٦) انظر: الطوخي، مظاهر الحضارة في الأندلس في عصر بني الأحمر، ص١٠٧.

(٧) القيسي، ديوانه، ص٢٤٦.

(٨) انظر: النوش، التصوير الفني للحياة الاجتماعية، ص٢١٤.

كما كان من عادة الرجال والنساء صبغ شعورهم بالحنّاء[١]. وكل ذلك كان يدور خلال الأحاديث التي يجتمع عليها كرام الملتقين في الحمّام، أمّا التلذذ بالماء الساخن فهو بطبيعة الحال قوام الحمّام كلّه. وقد استعرض ابن ليون التجيبي في قوله _ الذي اتكأ فيه على حرف الحاء وسيلة للأداء الفنّي[٢] _ هذه الألوان الحضارية الرائقة، فقال [٣]:

وللحَمّام حاءَاتٌ إذا ما ... ظَفرْتَ بها عَثَرْتَ على النَّعيم

فَحِنّاءٌ وحَكّاكٌ مُجيدٌ ... وقُلْ حَجرٌ يمرُّ على الأديمِ

وحوضٌ مفعمٌ ماءً لذيذاً ... وحَجَّامٌ على النَّهج القويمِ

وللحَلَق الحديدةُ حينَ تنمى ... وأطيَبُها حَديثُ أخٍ كَريمِ

وكان المرضى والمعلولون يقصدون الحمّام، ويبقون فيه إلى أن تستقل عللهم ويشفوا من أمراضهم[٤]. لأن بعض الحمّامات _ مثل حمّام الحمّة _ كانت تحوي عيناً ينبع منها ماء حار تشفى به العلل.

وكانت النساء يرتدن هذه الحمامات الخاصة، وكن يخرجن فيها عن الحياة الرتيبة التي كانت تسود حياتهن في المنزل[٥].وكن يمضين الساعات في الحمّامات على الرغم من كراهية بعض فقهاء المسلمين في الأندلس لارتياد النساء الحمّامات العامة دون حاجة ملحّة من مرض أو نفاس خوفاً على أعراضهن، وقد تغزّل أبو البقاء الرُّندي[٦] بإحداهن وهي خارجة من الحمّام مشبهاً احمرار وجنتيها وشدّة سواد شعرها بشمس الضّحى المنيرة التي تخرج من بين السحاب الأسود. فقال[٧]:

---

(١) انظر: الدوسري، الحياة الاجتماعية في غرناطة، ص٣٢٧.

(٢) انظر: النوش، التصوير الفني للحياة الاجتماعية، ص٢١٤.

(٣) المقري، نفح الطيب، ج٥، ص٥٨٧.

(٤) انظر: الدوسري، الحياة الاجتماعية في غرناطة، ص١١١.

(٥) النوش، التصوير الفني للحياة الاجتماعية، ص٢٠٤.

(٦) هو صالح بن يزيد (شريف) بن صالح، يكنى بأبي الطيب وأبي البقاء، الرُّندي (٦٠١- ٦٨٤هـ)، شاعر أندلسي من قبيلة نفزة البربرية، كان فقيهاً حافظاً متفنناً في النثر والنظم، له معرفة وعلم بالحساب والفرائض، كان كثير التردّد على غرناطة لطلب الاسترفاد، اجتمع بلسان الدين ابن الخطيب، له تآليف أدبية وقصائد زهدية، وله كتاب اسمه الوافي (أو الكافي) في نظم القوافي. انظر: لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة، ج٣، ص٣٦٠؛ والمقري، نفح الطيب، ج٤، هامش ص٤٨٦؛ والصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٦، ص٢٧٧.

(٧) لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة، ج٣، ص٣٧١.

بــرَزَتْ من الحَمّامِ تَمْسَحُ وَجْهَها عَنْ مِثْلِ ماءِ الوَرْدِ بالعُنَّابِ

والماءُ يَقطُرُ مِن ذوائبِ شَعرِها كالطّلِ يَسقُطُ مِنْ جَناحِ غُرابِ

فكأنها الشَّمسُ المُنيرةُ في الضُّحَى طَلَعَتْ عَلَينا مِنْ خِلالِ سَحابِ

وقد كان للنصارى واليهود حمّامات خاصّة بهم. إلا أن النصارى حرموهم من استعمالها بعد سقوط غرناطة في يدهم، وأغلقت الكنيسة غالبية الحمّامات فيها[١].

التّهادي بالورد:

لقد شغف الأندلسيون بالأزهار، وذكروا أنواعها وألوانها، وجاءوا على أوصافها، وهذا مما يدلل على رقي حضارتهم وترفهم، وهم يتهادونها مرفقة بالأشعار التي تزيدها جمالاً على جمال، فتبادل الهدايا، ولا سيما الأزهار من أخصّ خصائص هذا العصر [٢].

إنّ طبيعة حياة الأندلسي وتقدم حضارته جعلته ولوعاً بالأزهار، ولم يقتصر ذلك الولع على طبقة دون أخرى، فالغني يستمتع بها في حدائقه، ويشتريها الفقير بالمال ليجمّل بها بيته[٣]. ولذا كانت الأزهار عند القيسي بمثابة حاجات بيته اليومية التي لا غنى له عنها، يقول[٤]:

وَدِقيقٍ أشتريه مَعْ مِلْحٍ ثُمَّ لَحمْ

ثُمَّ عَسَلٍ مَعْ سَمْنٍ ثُمَّ خَلْعٍ[٥] مع شحَمْ

ثُمَّ صابُونٍ لِغَسْلٍ ثُمَّ أزهارٍ لشمٍّ

ولطالما كانت الأزهار بشتى أنواعها وأشكالها دليلاً على المحبة والمودة، وهذا ما رآه فيها أهل الأندلس، فتهادوا بها تأكيداً للمحبة فيما بينهم. وقد زاد تلك الورود بهاء على بهائها

(١) انظر: الدوسري، الحياة الاجتماعية في غرناطة، ص١١٥.

(٢) انظر: الطرابلسي، حياة الشعر في نهاية الأندلس، ص٥٤٩.

(٣) انظر: المصدر نفسه، ص٥٣٨.

(٤) عبد الكريم القيسي، ديوانه، ص٦١.

(٥) خَلْع: القديد المشوي واللحم يطبخ بالتوابل، انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (خلع).

الشعر الذي كان يرفق بها، يقول ابن خاتمة أبياتاً "بعث بها مع مطيب خيري[(١)] إلى سيد سري"[(٢)]:

ودُونَكَهُ أذْكَى نديمٍ مُساعِدٍ ... على الأُنْسِ في جَوْفِ الدُّجُونِ وأكْتَما

يُناجيْكَ ما امْتَدَّ الظلامُ بِسرِّهِ ... فإنْ لاحَ واشِي الصُّبحِ أبدى تَكَتُّما

قدْ احْمَرَّ ثُمَّ [اصفرّ] [(٣)] لا عنْ ضغينةٍ ... ولكنهُ هَابَ العُلا إذ تَقدْما

فَمَهِّدْ لهُ جَنْبَ السُّرور تَفُزْ به ... على قِلَّةِ النّدْمَى نديماً مُسلّما

إن زهر الخيري لا تتفتح أكمامه ولا يفوح شذاه إلاّ ليلاً. وهو بذلك من أحسن الندماء، لأنه يبدد وحشة الظلام بأنسه، وهو في الوقت ذاته كتوم للسرّ، تنقبض أزهاره، ويختفي عطره حالما يتبدّى نور الصبح، فهو يشبه العشّاق الذين يخشون الوشاة والرقباء[(٤)].

وأهدى الأندلسي أصدقاءه الوردة المحببة إليه، ليعبر لهم من خلالها عن صادق مودته لهم وتزداد قيمة هذه الورود وألقها إذا كانت من البواكير. يقول ابن خاتمة مع باكورة ورد أهداها أحد أصدقائه[(٥)]:

حَيّتكَ بِكْرٌ مِنْ بنا ... تِ الرَّوْضِ أعْجَلَها ابْتِكَارُ

طَلَعَتْ لِغَيرِ أوَانِها ... فلِذَاكَ ما اصْفرّ البَهارُ[(٦)]

جَاءَتْكَ مُنْبئةً بإقـ ... ـبَالِ الرّبيع لها ابتدارُ

مَحْفُوفةً بالآس مِنْـ ... ـهُ على مَحَاسِنَها خِمارُ

فَكَأنّها ما بينه ... خدٌّ أحاط به عِذَارُ

---

(١) خيري: نبات يعرف في المشرق بالمنثور، وله زهر مختلف الألوان إمّا أبيض أو أصفر. انظر: ابن خاتمة الأنصاري، ديوانه، الهامش، ص١٢٥.

(٢) ابن خاتمة الأنصاري، ديوانه، ص١٢٦.

(٣) انظر: الطرابلسي، حياة الشعر في نهاية الأندلس، ص٥٤٩.

(٤) انظر: المصدر نفسه، ص٥٤٩.

(٥) ابن خاتمة الأنصاري، ديوانه، ص١٢٦.

(٦) البَهارُ: زهر طيب الريح، ينبت أيام الربيع ويقال له العَرارَ، المعجم الوسيط، مادة (بهرة).

وقد اصفرّ البهار غيرةً وحسداً من جمال هذه الباكورة التي شبهها ابن خاتمة، وقد حقها الآس الأخضر، بالخدود الحمر التي أحاط بها العذار.

ولرفعة منزلة الورود لدى الأندلسيين فقد وجدوا فيها هدية تليق بمقام السلاطين والملوك، فابن زمرك يقدم للسلطان الغني بالله أزهاراً، وقد كتب له معها هذه الأبيات[١]:

أمَوْلايَ تَقْبيلي ليُمْناك شَاقني	**ولا يُنْكِرُ الظمْآنُ شوْقاً إلى البَحْرِ**
ولَمّا رَأيتُ الدَّهْرَ مَا طلنِي بها	**وشَوَّقني مِنْ حَيثُ أدْرِي ولا أدْرِي**
بَعَثْتُ لك الزّهْرَ الجَنيَّ لَعَلَّها	**يُقبِّلُها عنِّي ثُغُورٌ مِنَ الزّهْرِ**

ولم تقتصر الهدايا بين الأندلسيين على الأزهار والورود، بل تنوّعت هداياهم لبعضهم، فمنها التفاح[٢]، وألوان الفواكه والطعام[٣]، والملابس[٤] وغيرها.

وختام القول إن هذه المظاهر الحضارية التي تجلت في حياة المجتمع الغرناطي الاجتماعية تعكس بوضوح رقيهم، ورفعتهم وأنماط معيشتهم، وما فيها من تنظيم وجد حيناً، ولهو ومرح حيناً آخر، كما أن هناك تجليات حضارية أخرى ستهدف الفصول اللاحقة لبيانها ودراستها.

---

(١) ابن زمرك، محمد بن يوسف الصريحي (بعد ٧٩٧هـ/ ١٣٩٥م)، ديوان ابن زمرك الأندلسي، ط١، (تحقيق محمد توفيق النيفر)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٧م، ص٤٢١.

(٢) انظر: المصدر نفسه، ص٧٥.

(٣) انظر: المصدر نفسه، ص٨٨، ١٠٢، ٢٤٥.

(٤) انظر: المصدر نفسه، ص٤٢١.

الفصل الثاني

التجليات الحضارية في الصناعات والمهن والحرف

الصناعة في عصر بني الأحمر:

ازدهرت الصناعة في غرناطة بشكل كبير، حتى إن المشرق العربي في تلك الفترة لم يكن ليضاهيها في هذا الجانب، وقد ساهم في ذلك عاملان رئيسان، أولهما: هو تلك االثروات من المعادن التي كانت بلاد الأندلس تزخر بها، مثل؛ الحديد، والنحاس، والذهب، والفضة، والرصاص، والرخام، أما العامل الثاني فيعود إلى هجرة الكثير من أصحاب الحرف والمهن من مدنهم التي سقطت في يد الإسبان إلى غرناطة على وجه الخصوص، حاملين معهم إليها خبراتهم ومهاراتهم الحرفية والصناعية [1]، فقد كان من المعروف أن كل مدينة أندلسية تفوقت بنوع من الصناعات [2]مما ساهم في تنوع الصناعات في غرناطة.

وقد أشار ابن خلدون إلى الصناعة في غرناطة ممتدحاً إياها في مقدمته، وذكر أنه تجمّع فيها الكثير من رواسب الحضارة السابقة وبقيت فيها، يقول: " أن رسوم الصنائع قائمة وأحوالها مستحكمة راسخة في جميع ما تدعو إليه عوائد أمصارها " [3]، وهذا قد يفسر تنوّع الصناعات وتعددها في عهد المملكة النصرية.

وكغيرها من مظاهر الحضارة الأندلسية، كانت الصناعة واحدة من المظاهر والتجليات الحضارية التي عبر عنها الشاعر الأندلسي، واصفاً بعض ملامحها، متحدثا عن طبقة كانت وما زالت تمثل شريحة لا يستهان بها من شرائح المجتمع، فقد كان الصّناع والحرفيون وأصحاب المهن من الطبقات التي صبغت المجتمع الأندلسي بصبغة خاصة؛ نتيجة لتنوع الصناعات التي سادت في غرناطة في تلك الفترة، إلا أنّ الشعر المتوفر عن وصف الصناعات وأصحاب المهن في تلك الفترة ليس بالقدر المطلوب، لربما كان ذلك بسبب طول الفترة الزمنية مما أدى إلى ضياعه.

وستتناول الصفحات القادمة موضوع الصناعات في ذلك العصر من خلال الحديث عن الصناعات ذاتها، وكذلك من خلال تناول أصحاب هذه الصناعات كما عبّر عنهم الشعراء.

---

(١) انظر: فرحات، غرناطة في ظل بني الأحمر، ص ١٢٣.
(٢) انظر: المقري، نفح الطيب، ج١، ص ١٦٣.
(٣) ابن خلدون، المقدمة، ص ٤٠٢.

صناعة النسيج:

اشتهر هذا النوع من الصناعة في غرناطة شهرة واسعة وحقق تقدماً كبيرا فيها، وقيل: إن عدد النساجين في غرناطة وحدها بلغ مئة وثلاثين ألف نسّاج [١]، وقد ظهر هذا الأمر في الشعر، وإن كان بطريقة غير مباشرة، فالشعر هو القلب النابض للحياة في ذلك العصر كغيره من العصور، فهذا الشاعر محمد غالب الرصافي المتوفى سنة (٧٥٢ ه) يصف أحد العاملين في هذه الصناعة من الفتيان، ذاكراً أسلوب عمله بإشارات خاطفة، فيقول[٢]:

وبنفسي مَنْ لا أُسَمّيه إلا	**بعضَ إلمامةٍ وبعضَ إشارهْ**
هو والظبْيُ في المجال سواءٌ	**ما استعار الغزالُ منْه استعارهْ**
أغيدٌ يمسك الحريرَ بفيهِ	**مثلما يُمسكُ الغزالُ العرارهْ**

فالرصافي يصف ذلك العامل الذي يقبل على صنعته متقناً لها، إلا أن البعض يرى أن هذا الشاعر خرج على التقليد المألوف سواء في الغزل أو الوصف، فهو لم يصف مظهراً في الطبيعة كما المعروف عندهم على الغالب، ولم يتغزل بفتاة أو امرأة كما كان شائعاً، بل بعامل نسيج مبتذل، إلا أن الشاعر يرد على نقاده بأن مكانة هذا العامل، وأداة الصناعة في يده، وأسلوبه هي ما دفعته لذلك، فيقول [٣]:

قالوا، وقد أكثروا في حبِّه عَذْلي	**لو لمْ تَهِمْ بمُذالِ القدْر مبتذلِ**
فقلت لو أنّ أمريْ في الصّبابةِ لي	**لاخترتُ ذاك ولكنْ ليس ذلك لي**
علّقتُهُ حببيّ الثغر عاطرُهُ	**ألمي المقبلِ أحوى ساحر المقلِ**
جذلان تلعب بالمحواك أنْمُلُهُ	**على السّدى لعب الأيام بالأجلِ**
جذباً بكفيه أو فحصا بأخمصهِ	**تخبُّط الظبْي في أشْراكِ مُحْتَبَلِ**

---

(١) انظر: بول، لين (١٩٤٧)، قصة العرب في إسبانيا، (ترجمة علي الجارم)، دار المعارف، القاهرة، ص ١٣٨.

(٢) المقري، نفح الطيب، ج ٥، ص ٣٣– ٣٤، والقرارة: نبت بري.... ويسمى البهار.

(٣) الضبي، أبو جعفر أحمد بن يحيى (ت ٥٩٩هـ)، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، (تحقيق صلاح الدين الهواري)، المكتبة العصرية، بيروت، (د.ت)، ص ١٠٩_ ١١٠، والمقري، نفح الطيب، ج٤، ص ١٩١.

النسخ والوراقة:

عُرف عصر بني الأحمر بازدهاره الحضاري ومكتباته العظيمة، والتنافس الشديد بين أفراده في اقتناء الكتب القيمة [١]، ومن هنا تبرز مهنة الوراقة بوصفها وسيلة لنسخ القرآن الكريم من جهة، وأداة لحفظ العلوم من جهة أخرى، وقد عبّر الشعراء في عصر بني الأحمر عن هذا النوع من الصناعة من خلال وصف جودة خطوط الوراقين وبراعتهم في مهنتهم، وقد عبّر الشاعر عبد الكريم القيسي عن إعجابه بخط أحد العاملين بهذه الصناعة حيث يقول مفتتحاً إحدى قصائده [٢]:

هكذا يُعتنى بكتبِ العلومِ ... في حديثِ الزّمانِ أو في القديمِ

وتُحلّى المهارقُ [٣] البيضُ منها ... بحلى خطّ فاقَ وشْيِ رقيمِ

ويقول في موضع آخر معبراً عن إعجابه ببراعة هذا الصانع وجودة ما يصنع [٤]:

خطّه كاتبُ البيانِ مجيدُ ... ذو اختراع لما يشأ مستقيمِ

ساحرٌ بالذي يقيّد منْهُ ... كلّ ذي إدراكٍ وعقلٍ سليمِ

ويقول مصرّحاً باسم هذا الصانع، رافعاً من شأنه وكأنه مخترع عظيم [٥]:

ما كعبْد المليكِ كاتبُ خطٍّ ... بارع النوع في الخطوط قِديمِ

فاق خطَّ ابن مُقْلَة [٦] وابن باقٍ ... وابنَ جبيرٍ عند أهل الفهومِ

ما تبدّى لناظرِ العينِ حرفٌ ... منْه إلا دعا له بالنّعيمِ

---

(١) النوش، التصوير الفني للحياة الاجتماعية في العصر الأندلسي، ص ٣٩٥.
(٢) القيسي، ديوانه، ص١٧١.
(٣) المهارق: جمع مهرق وهو ثوب من حرير أبيض يُسقى الصمغ ويصقل ثم يكتب فيه، انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (هرق).
(٤) المصدر نفسه، ص ١٧١.
(٥) المصدر نفسه، ص١٧١.
(٦) ابن مقلة و ابن باق وابن جبير من مشاهير الخطّاطين الأندلسيين، انظر: محمد بن شريفة (١٩٨٥)، البسطي آخر شعراء الأندلس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ص١٥٦.

ولم يكن هذا النوع من الصناعة حكراً على الرجال بل كان للمرأة الأندلسية نصيب منها، فقد عرف في قرطبة، مثلاً، مئة وسبعون امرأة عاملة في نسخ القرآن بالخط الكوفي[١]، ويطالعنا أبو حيان في قصيدة يرثي فيها ابنته نضار التي برعت في نسخ القرآن والسنّة فيقول [٢]:

وما أعملتُ يوما إلى شغل يداً ... سوى قلمٌ تُثنى عليه الأصابعُ

تخط ّبه القرآنَ والسننَ التي ... أتتْ عن رسول الله والخط ُّبارعُ

غير أن تصوير الشعراء لم يقتصر على وصف المهنة أو من يمتهنها، بل كانوا يعمدون إلى وصف الأدوات اللازمة لهذه المهنة، فهذا ابن زمرك يصف دواة وخرطب[٣] قدمها إليه السلطان الغني بالله على أنها هدية منه، يقول [٤]:

أهديتني مشمولة ًبمحاسنٍ ... كالشمس عند طلوعها بالأسعد ِ

موشيّة الأعطاف رائقة َالحُلى ... فاقتْ محاسنُها التي لم تعهَدِ

لله منها قبّة ٌمرفوعة ... قد مُوّهت أرجاؤها بالعسْجد ِ

أبوابُها قد فُتّحت من حولها ... لوفود ِسعد ٍبالبشائرِ مسعدِ

ومدادُها المسْك الفتيق لناشق ٍ ... يهدي الثناء إلى الإمام ِمحمّدِ

تمتارُهُ الأقلامُ ثمّ تمجّهُ ... فوقَ الطّروسِ لقارئ أو منشد ِ

ثم يذهب ابن زمرك إلى وصف الخرطب، ويصور حال الأقلام التي تعبت من الكتابة والنسخ ناشدة الراحة، يقول [٥]:

ومكلّل بالوشْي راق أديمُه ُ ... جُمعتْ محاسنُه بشكل ٍمفرد ِ

تهوي له الأقلامُ عند جمامها[٦] ... وتبيتُ منه براحة ِالمتوسدِ

وله أناملُ خمسةٌ قد صفّقت ... من ظهره للقاصدين بمرصدِ

---

(١) النوش، التصوير الفني للحياة الاجتماعية في العصر الأندلسي، ص ٣٩٦.
(٢) أبو حيان الغرناطي، ديوانه، ص ٢٦٧- ٢٦٨.
(٣) الخرطب: كلمة ليست عربية فلم أجدها في المعجم إلا أن المهنى يشير وكأنها ما توضع به الأقلام (المقلمة)، ديوان أبي حيان الغرناطي، الهامش، ص٢٤٢.
(٤) ابن زمرك، ديوانه، ص ٢٤٢.
(٥) المصدر نفسه، ص ٢٤٢.
(٦) جَمَامِها: راحتها، انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (جمم).

وقد تغنّى لسان الدين ابن الخطيب بقلمه، وكيف أن هذا القلم يساهم في إخراج الناس من ظلمات الجهل إلى نور العلم، يقول [١]:

ما رأت ْعيني عجيبا كيراعي في الدّواةِ

غايصا يستخرج الدّر ببحر الظّلماتِ

وقد ذهب الشاعر عبد الكريم القيسي إلى وصف الصحف التي كان يكتب فيها، يقول [٢]:

كاغدٍ[٣] لا يغوصُ فيه مداد ُ أبيضَ اللونِ أملسَ ذو مجسٍّ

تكتبُ الأقلامُ المجيدةُ فيه وهي ما عابها بنان بحبسِ

الجزارة:

عُرفت هذه المهنة في المجتمع الأندلسي منذ بداية نشأته، إلا أنه كان ينظر إليها على أنها من المهن الوضيعة في تلك الفترة، ففي سرقسطة عاب ابن هود _ وهو أمير سرقسطة_ على الشاعر يحيى السرقسطي (ت ٥٣٣ ه) أن يهجر الشعر ويتجه إلى مهنة الجزارة للتكسبب الشعر، فأرسل إليه وزيره أبا الفضل بن حسادي الذي كتب إليه مؤنباً ومحقراً من مهنة الجزارة،يقول [٤]:

تركتَ الشّعرَ من عدم الإصابة وعدتَ إلى الدناءة والقصابة

ويبدو أن هذه النظرة لمهنة الجزارة لم تختلف في عهد الدولة النصرية عما كانت عليه في سابقاتها من الأعصر الأندلسية، بيْد أن شعر هذا العصر لا يسعفنا كثيراً في تصوير هذه المهنة، فلم نجد إلا بعض أبيات لابن الخطيب يذكر فيها هذه المهنة ومهناً أخرى في سياق هجائه للنهمين، وذلك قوله[٥]:

---

(١) لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة، ج٤، ص ٥١٤.
(٢) القيسي، ديوانه، ص ٣٢٢.
(٣) الكاغد: القرطاس، المعجم الوسيط، مادة (كغد).
(٤) الجزار السرقسطي، يحيى بن محمد الأندلسي (ت٥٣٣هـ)، ديوان الجزار السرقسطي الأندلسي، (تحقيق العربي سالم الشريف)، دار شموع الثقافة، ليبيا، ٢٠٠٣م، ص٩٧.
(٥) لسان الدين بن الخطيب، ديوان لسان الدين بن الخطيب، ج١، ص ٢١٨.

فكأنني بكَ قدْ نَبَذْتَ مُهرْقِما[1] وقصدْتَ في أعقابِهِ سقّاجا[2]
وصحبْتَ جزّاراً للحْمٍ طيّبٍ وخدمْتَ غيرَ مقصّر دجّاجا

وتظهر في بيتَي ابن الخطيب الإشارة إلى بعض المهن الأخرى غير الجزارة، مثل؛ بيع الإسفنج، وبيع سقط الذبائح، إلا أن الشعر في هذه الفترة الزمنية لم يتحدث عن هذه المهن بشيء من الوصف أو التفصيل.

البناء والعمارة:

شهدت الأندلس نهضة عمرانية واسعة، كما تنامت هذه النهضة في عصر بني الأحمر على وجه الخصوص سواء على مستوى المساجد، أم القلاع والحصون، أم على مستوى قصور الأمراء والولاة، وراح الشعراء يجيدون في وصفها والتغني بإبداعات العمران فيها، ولكن المفارقة تكمن في أن الشعراء لم يلقوا بالاً كثيراً على من كان يقف وراء هذه الإبداعات الفنية ليخرجها في أبهى حلة، فالباحث في الشعر الأندلسي عامة والشعر في عصر بني الأحمر خاصة، يكاد لا يجد إلا النزر القليل من الشعراء الذين تحدثوا عن هذه الطبقة العاملة الكادحة من البنائين، وفي هذا السياق نجد الشاعر أبا البركات بن الحاج البلفيقي يقدم لنا شيئاً من ملامح هذه المهنة، ولعل تفرّده بهذا الوصف يعود إلى أنه كان ممن مارس هذا النوع من الحرف من تلقاء نفسه تطوعاً [3]، يقول [4]:

في احْتِفارِ الآسَاسِ والآبارِ وانْتِقالِ التُّرَّابِ والجَيّارِ
وقُعُودي مَا بَيْنَ رَمْلَ وآجُر وَجَصٍّ والطّوبِ والأحْجَارِ
وامْتهاني بُرْدَيّ بالطّين والما ءِ ورأسي ولِحْيَتي بالغُبارِ
نَشْوَةٌ لمْ تمرَّ قطُّ على قلبِ خليع وما لَهَا مِنْ خُمَارِ
مِنْ غريبِ البناءِ أنّ بَنِيْهِ متْعَبونَ يَهْوونَ طُولَ النّهارِ
يبْتَغُونَ الوصَالَ مِنْ صانِعيهِ والبدارَ إليهِ كُلَّ البِدارِ
فإذا حلّ في ذرَاهُمْ تَرَاهُمْ يشْتهُون منهُ بعيدَ المَزَارِ
مَنْ عذيريَ من لائمٍ في بنائِي وَهُوَ لِي التُّرجُمان عن أخْباري

---

(١) المهرقم: بائع بقايا الحيوانات مثل؛ الأمعاء والكبد والأرجل، انظر: دوزي، تكملة المعاجم العربية، ج١١، ص٤٠.
(٢) السّقاج: بائع الإسفنج وهو نوع من الحلويات سبق التّعريف به.
(٣) النوش، التصوير الفني للحياة الاجتماعية، ص ٣٩٩.
(٤) المقري، نفح الطيب، ج٧، ص ٣٩٢-٣٩٣.

لیسَ یبني معناهُ مَنْ لیس یدْري أنّ ما عنْدَهُ على مِقْدارِ
أقتدِي بالّذي یقولُ بناهَا ذلكَ الخالقُ الكریمُ الباري
وبمَن یرْفعُ القواعِدَ مِنْ بيْ تٍ عتیقٍ للحجِّ والزُّوّارِ
وبمَنْ كانَ ذا جدارٍ وَقدْ كانَ أبُوْهُ مِنْ صَالحِي الأبْرارِ
وبمَنْ قدْ أقامَهُ الخَضْرُ المخْصوصُ علْما بباطِنِ الأسْرارِ
كانَ تحْتَ الجِدارِ كنْزٌ وَ ما أدر اكَ ما كان تحْتَ الجِدارِ

فالشاعر یشعر بهذه النشوة وهو یحفر الآبار وینقل التّراب والجیار والطوب، ویكسو الغبار بردیه ورأسه ولحیته، ویبدو أنّ شاعرنا قام بهذا العمل حتى یشبع روحه الظامئة إلى الصوفیّة الصّادقة، المتطهرة بالأعمال الشاقة في إقامة دور العبادة، ثم یصور لنا علاقة العمّال والصنّاع العاملین في هذه المهنة بأصحاب البناء، وكیف أنهم بعد أن ینتهوا من أعمال البناء باذلین التعب والجهد والإتقان یقابلهم أصحاب المباني والملاك بالإعراض وإبداء عدم الرغبة حتى في رؤیتهم، دون أن یلقوا بالاً لعظم صنیعهم، وكبیر جهدهم.

التعلیم:

عُرف عن الأسر الأندلسیة اهتمامها بتعلیم أبنائها في سنيّ حیاتهم الأولى، فظهرت مهنة التعلیم أو التأدیب وظهر معها (المؤدب)، الذي كان یجمع أبناء الحي الواحد لیعلمهم القراءة والكتابة إلى جانب العلوم الدینیة بحفظ القرآن الكریم والسنّة النبویة [(١)].

وقد عرف عندهم نظام الشرط، إذ یتشارط أهل القریة أو الحي مع من هو حافظ للقرآن، عارف بمبادئ الدین، على أن یقوم بتعلیم أبنائهم القراءة، ویؤم الناس مقابل أجرة معینة [(٢)]، كما أن أهل القریة كانوا یعمدون إلى توفیر المسكن والطعام اللائق إلى المؤدب، ویظهر ذلك في قول الشاعر القیسي [(٣)]:

بِخمْسینَ دیْنارا وَمَا هُوَ تابعٌ لَها مِنْ فِراشٍ لائقٍ وَطَعامِ
أؤُمُّ بها في مَسْجِدٍ بجماعَةٍ مُقیْمینَ للخَمْسِ الفُروضَ كِرامِ
بهُمْ تُضْرَبُ الأمثالُ في حفْظِ دیْنِهِمْ فما مِثْلُهم في مَوْصلٍ وشآمِ

---

(١) فرحات، غرناطة في ظل بني الأحمر، ص١٥٨
(٢) محمد بن شریفة، البسطي آخر شعراء الأندلس، ص٢٦
(٣) عبد الكریم القیسي، دیوانه، ص ١٢٣.

وقد ظهر في هذا العصر عدد من المدارس التي أنشأها سلاطين بني الأحمر في إشـــارة إلى أنهم كانوا مهتمين بالعلم والتعليم، فقد أنشأ يوسف الأول المدرسة اليوسفية التـــي أهتمــت بتدريس العلوم على اختلافها، فكان الطلاب يقصدونها من كل مكان من داخل مملكـــتهم، وقـــد كانت هذه المدرسة زاخرة بالمعلمين الذين كانت لهم شهرة واسعة ومنهم: فرج بن لب التغلبـــي [١] وأبوزكريا يحيى بن هذيل التجيبي الذي كان يقرئ الأصول والفرائض والطب لطالبي العلــم عنده [٢]، وكذلك ابن الفخار الذي كان ملازما للتدريس فيها [٣]، وفي هذه المدرسة يقـــول ابـــن الجياب [٤]:

يا طالِبَ العلْمِ هذا بابُهُ فُتِحَا	**فادْخُلْ تُشاهِدْ سَنَاهُ لاحَ شمْس ضُحَى**
واشْكُرْ مُجِيْرَكَ مِنْ حِلٍّ ومُرْتَحِلٍ	**إذْ قرّبَ اللهُ مِنْ مَرْماكَ ما نَزَحا**
وشَرَّفَتْ حضْرَةُ الإسْلامِ مَدْرَسَةً	**بها سَبيلُ الهُدى و العلْمِ قدْ وَضُحا**
أعمالُ يُوسُفَ مَوْلانَا ونِيّتِهِ	**قدْ طرَّزَتْ صُحُفًا ميزانُها رَجُحا**

وقد أظهر بعض المعلمين الشعراء رضاهم عن عملهم في مهنة التعلـــيم، معبـــرين عـــن فرحتهم بتلاميذهم، فهذا أبو عبد الله اليتيم [٥] يقول [٦]:

ففيهم حَرفَتي وَقَوَامُ عيْشِي	**وأحْوالِي بخلطَتِهِمْ نَجيْحَهْ**
وأمْري فيْهِمْ أمْرٌ مُطاعٌ	**وأوْجُهِهمْ مَصابيحٌ صَبيْحَهْ**
وتعلَمُ أنّني رَجُلٌ حَصُورٌ	**وتعْرِف ذاك معْرِفةً صحيْحهْ**

ومن الملاحظ أن هذه المهنة قد لاقت تشجيعاً من قِبل السلاطين والملوك والـــولاة، فقـــد أجروا الجرايات والعطايا على العلماء والمعلمين، لكي يقوموا بتعليم الناس والناشئة [٧].

(١) لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة، ج٤، ص٢٥٣.
(٢) المصدر نفسه، ج٣، ص ٣٩٠.
(٣) المصدر نفسه، ج٣، ص ٣٥ _ ٣٧.
(٤) المقري، نفح الطيب، ج٥، ص٤٥٧.
(٥) هو محمد بن علي العبدري، المالقي، يكنى أبا عبد الله، ويعرف بأبي عبد الله اليتيم، عرف عنه حبّه للدعابة والفكاهة، عمل خطيباً في المسجد الأعلى بمالقة، كما عمل في التعليم والتأديب، تـــوفي فـــي الطـــاعون ســـنة (٧٥٠هـــ). انظر: المقري، نفح الطيب، ج٦، ص٩٦.
(٦) المقري، نفح الطيب، ج٦، ص٩٥.
(٧) الدوري، رفاه تقي الدين (١٩٩٩)، الحياة العلمية والثقافية في غرناطة في عصر بنـــي الأحمـــر، رســـالة ماجستير غير منشورة، جامعة مؤتة، الكرك، الأردن، ص٦١.

الخبّاز:

عرفت هذه المهنة في المجتمع النصري كغيرها من المهن التي تعد من متطلبات الوجــود البشري تلبية لحاجة الإنسان للطعام، ولذا انتشرت الأفران في مدن المملكة النصرية كغيرها من الممالك، وقد كانت هذه الأفران تضم فيمن تضم من طاقم العمل فيهـــا، الخبـــازين والعجـــانين، بالإضافة إلى بعض الصبية الذين تكون مهمتهم إيصال الخبز إلى البيوت، لذلك كان " لكل فرن صبي معين يمر بالبيوت في ساعة معينة يحمل الخبز عجيناً ويعود به مستوياً " [١]، وكغيرهـــا من المهن التي كان يمتهنها العامة من أهل غرناطة، لم يكن الشعر الذي يــصف هـــذه المهـــن وأصحابها شعراً غزيراً، ولم يكن اهتمام الشعراء بهذا الجانب من مظاهر الحضارة في مجتمعهم اهتماماً كبيراً فلم أعثر _فيما بحثت فيه من الشعر في هذه الفترة_ إلا على أبيات قليلة تعبر عن هذه المهنة وأصحابها، يقول ابن خاتمة الأنصاري [٢]:

رُبَّ فَرّانٍ جَلا صَفْحَتَهُ | **لَهَبُ الفُرْنِ جلاء العَسْجَدِ**
يُضْرِمُ النّارَ بأحْشاءِ الوَرى | **مثلما يُضرِمُ في المُسْتَوْقَدِ**
فكأنّ الوَجْهَ منْهُ خُبْزَةٌ | **فَوْقَها الشَّعْرَ كقِدْرٍ أسْودِ**

فابن خاتمة الأنصاري يعبّر من خلال هذه الأبيات عن إعجابه بالفرّان صاحب هذه المهنة الذي راح يضفي جانباً من سحره على المهنة التي يمتهنها، وكأن هذا النوع من الشعر يدخل في باب التغزل بالغلمان، وهو ما رأيت مثيلاً له عند الحديث عن صناعات النسيج في هذا العصر.

بيد أن الشاعر أبا حيّان الجياني يعرّج في أبيات له على نوع آخر من الصناعة المرتبطة بمهنة الفران وهي صناعة الفحم، وذلك في معرض وصفه لغلام كان يعمل في هذه الـــصناعة، يقول [٣]:

وعلقْتُه مُسْودّ عَيْن ووفْرَة | **وثوْبٍ يُعانِي صِنْعَةَ الفَحْمِ عَنْ قصْدِ**
كأنّ خطوطَ الفحْمِ في وَجْناتِهِ | **لطافةُ مِسْكٍ في جنيّ من الوردِ**

---

(١) مكي، الطاهر أحمد (١٩٩٣)، دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة، ط٤، دار المعارف، القـــاهرة، ص٣٢.
(٢) المقري، نفح الطيب، ج٦، ص٣٨.
(٣) المقري، نفح الطيب، ج٣، ص ٣١٠.

الطب:

عرفت مهنة الطب في العصر الأندلسي منذ نشأته الأولى، إلا أنه في زمن بني الأحمر كان ثمة أطباء اشتهروا وذاع صيتهم حتى وصل إلى المشرق وأوروبا، مثل ؛ ابن السرّاج، الذي كان طبيباً خاصّاً للسلطان محمد الثاني، وقد عرف عنه أنه كان يقدم خدماته الطبية للفقراء المعوزين دون مقابل [(١)]، ومن الأطباء المعروفين البارعين آنذاك_ وهو استاذ ابن الخطيب _ يحيى بن هذيل التجيبي [(٢)]، وطبيب دار الإمارة زمن يوسف الأول وهو محمد الشقوري [(٣)]، والشاعر والمؤرخ والطبيب ابن خاتمة الأنصاري [(٤)] ولسان الدين بن الخطيب.

وقد وصل الطب أيّام بني الأحمر إلى درجة عالية من التقدّم والتطوّر، فقد أنشأ محمد الأول داراً للعجزة، ومأوى للعميان. كما بنى محمد الخامس سنة (٧٦٧هـ) مستشفى في غرناطة[(٥)].

وقد ابتدع أطباء غرناطة الكثير من العادات الطبية التي كانوا يستخدمونها في علاج بعض الأمراض، كعادة الفصاد (شقّ العرق وإخراج الدم الفاسد منه)، وهذا ابن زمرك يقول شعراً مهنئاً الغني بالله بعد افتصاده [(٦)]:

اهنَأْ بِها مِنْ سُنّةٍ نَبَويّةٍ	**تلْقاكَ بالبِرّ المُعَجّلِ والرّشَدْ**
فصَدَّ النّبيُّ مُحمّدٍ فلذاكَ مَا	**سَمَحَتْ لَهُ منّا النّفوسُ بأنْ فُصَدْ**
فاسْتقبلِ الصُّنْعَ الجَميلَ بِغِبْطَةٍ	**وابْشِرْ بعافِيَةٍ تَدومُ إلى الأبَدْ**

وقد برع الأطباء الغرناطيون في علوم الطب المختلفة، فقد أجادوا في طب العيون وطرق علاجها وكيفية مداواتها، ومن مؤلفاتهم التي كان لها بالغ الأثر في الشرق وأوروبا في هذا المجال كتاب (النهاية في الكحل) للحريري [(٧)]، فقد أسهموا في علم الكحالة، وأثروه بهذه المؤلفات التي لاقت شهرة واسعة.

---

(١) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٣، ص٢٨٧
(٢) لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة، ج٤، ص٣٩٠.
(٣) المصدر نفسه، ج٣، ص ص١٧٧– ١٧٩.
(٤) المصدر نفسه، ج٣، ص ص١٧٧– ١٧٩.
(٥) انظر :فرحات، غرناطة في ظل بني الأحمر، ص١٦٤.
(٦) ابن زمرك، ديوانه، ص٢٤٤.
(٧) الحمارنة، نشأت (١٩٩٢)، طب العيون في الأندلس، مجلة دراسات أندلسية، (العدد٨)، تونس، ص٣٥– ٥٠.

وقد حذر بعض الشعراء من بعض العادات الطبية التي كانت معروفة آنذاك، فهذا الشاعر عبد الكريم القيسي يحذر من عادة القدح في علاج العيون، وهي إخراج الماء الفاسد من العين، وكذلك حذر من الكحل وهو مادة توضع في العين لمداواتها، فقال [١]:

كلُّ مَنْ بالقَدْحِ والكُحْـــ ـــلِ تَراهُ حازَ علْما
لا تثقْ مِنْهُ بودٍّ إنّهُ يَهْواكَ أعْمَى

غير أن أطباء هذا العصر كانوا يعمدون إلى الاعتماد على النباتات في وصف العلاجات المختلفة لمرضاهم، فابن الخطيب يدعو الناس إلى تناول نبات يدعى (لحية التيس) إذا كانوا يشتكون من آلام البطن، فيقول [٢]:

رَعى عارضي ظبْي شَكا سُقْم بطْنِهِ وقالَ ولمْ تُرشِدْ لحذّقٍ ولا كيْسِ
ألمْ تَرَ أنّي عِلّةَ البطنِ أشْتكي وينفعُ منْ يشْكو بها لِحْيَةَ التَيْسِ [٣]

ولم يقتصر الأمر على ذلك بل وجد ابن الخطيب من خلال بحثه الذاتي الدؤوب في عين ماء موجودة في حصن نارجة آنذاك علاجاً لمرضى الحصا، ويقول في هذا [٤]:

انظُرْ إليهِ شَبيْهَ مُعْجِزَةِ العَصَا ماؤُهُ بِتَنْقِيَةِ المثانَةِ خُصّصَا
فإذا الطّبيبُ سَقاهُ أسْرَعَ نُجْحَهُ وتحدّثَ بالماءِ الزّلالِ مَعَ الحَصا

كما ظهرت بعض الموضوعات التي اختص بها شعر الأطباء في ذلك العصر، كموضوعات النصح والإرشاد المتعلقة بعادات الأكل والشرب، وكيف أنها تؤثر على صحة الأبدان والأجسام، وفي ذلك يقول ابن الخطيب [٥]:

خَفْ منْ غذاءٍ غَيْرِ مُعْتَدِلِ القُوى واحْذرْ طعاما يُفْسِدُ الأمْشاجَا[٦]
والمرْءُ من فمِهِ يُصابُ وَفَرْجِهِ فيَعودُ موْرِدُهُ الشَّروبُ أُجاجا [٧]

---

(١) عبد الكريم القيسي، ديوانه، ص ٤٢٩.
(٢) لسان الدبن بن الخطيب، الإحاطة، ج٤، ص٥٢٠.
(٣) لحية التيس: وهي بقلة جعدة ورقها كالكراث، لا يرتفع كورقه ولكن يتسطّح والنّاس يأكلونها ويتداوون بعصيرها، وهي تشفي من قروح الأمعاء وضعف المعدة، ويعرف بالأندلس بالسّوارص. انظر: ابن البيطار، الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، ج٣، ص١٠٤- ١٠٥.
(٤) لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة، ج ٤، ص ٥١٠.
(٥) لسان الدين بن الخطيب، ديوان لسان الدين بن الخطيب، ج ١، ص ٢١٧.
(٦) أمشاج: الأمشاج من البدن طبيعته، لسان العرب، مادة (مشج).
(٧) أجاجا: الماء المالح الشديد الملوحة، لسان العرب، مادة (أجج).

الفلاحة:

كانت الزراعة واحدة من أهم الموارد الاقتصادية في المملكة النصرية، فجغرافية البلاد ووفرة المياه ساعدت بشكل كبير على انتشارها، حيث اكتست البلاد باللون الأخضر حتى راح ابن الخطيب يتغنى بذلك [١]، ولذلك برع الغرناطيون في فلاحة الأرض، فكان لهذه المهنة شأن عظيم في العصر عندهم، فلعلنا لا نجافي الحقيقة إن قلنا: إن هذه المهنة هي أم المهن، وهي قاعدة الحضارة في ذلك العصر [٢]، غير أن الشعر زمن بني الأحمر لا يسعفنا كثيراً في رسم صورة واضحة لهذا المظهر الحضاري في تلك الفترة، فالباحث في شعر هذه الحقبة لا يقف على أبيات تصور حياة العمال، ومظاهر الكد والتعب التي كانت تبدو على أصحابها، فهي لم تكن مهنة المترفين والأغنياء، وإنما كانت مهنة العامة من الناس، الذين كانوا يعملون في حدائق وقصور الأمراء والخلفاء، ولهذا ظل الفلاحون بعيدين عن اهتمامات الأدباء، الذين كان همهم إرضاء أبناء القصور [٣]، وفي هذا السياق يطالعنا ابن ليون بأبيات يعدد فيها أركان الفلاحة، فيقول[٤]:

وهي الأراضي والمياه ُوالزّبولُ   والعَمَلُ الّذي بيانُهُ يَطُولُ

ويستكمل ابن ليون تعداده لأركان مهنة الفلاحة، وهي الأرض، والماء، والزبل، والعمل، وغرس الاشجار، وغيرها. ويعدها أساساً لعملية الفلاحة، ولا يمكن الاستغناء لإتمام العملية برمتها، وهذا يدلل على وجود هذه المهنة في تلك الفترة.

---

(١) انظر: لسان الدين بن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٢٣- ٢٤.
(٢) انظر: النوش، التصوير الفني للحياة الاجتماعية، ص ٤٠٠.
(٣) ابن ليون التجيبي، أبو عثمان سعد بن أحمد بن إبراهيم (ت٧٥٠هـ)، اختصارات من كتاب الفلاحة، (تحقيق أحمد الظاهري)، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ٢٠٠١م، ص ١٠١.
(٤) المصدر نفسه، ص١٠٣.

ثم يختتم ابن ليون أرجوزته في الفلاحة مبيناً ترتيب البساتين ومساحتها وديـــار الباديـــة، فيقول[١]:

أو عوض البئر تكون ساقية بالماء من تحت الظلال جارية

وما له بابان فهو أستر وراحة الساكن فيها أكثر

ثم يلي الصهريج ما لا يسقط ورقه من كل ما ينشّط

ويقول أيضاً في الحديث عن الفلاحة [٢]:

فهذه الفلاحة المشتهرة منظومة أصولها منحصرة

لذا بإبداء الملاحة استمدت كما بإنهاء الرجاحة اعتلت

صناعة الملابس:

عرف العصر الأندلسي هذا النوع من الصناعة فاشتهرت صناعة الحرير في مالقـــة [٣]، فقد كان حريرها يصدر إلى المشرق والمغرب ويباع بأغلى الأسعار[٤]، أما غرناطة فقد اشـــتهر فيها هذا النوع من الصناعة أيضا [٥]، ويروى أن نساء غرناطة قد بلغن شأنا عظيما في احتراف مهنة التطريز [٦]، وقد كانت معظم الملابس تصنع فـــي وادي آش [٧]، واشـــتهر أهـــل مالقـــة بصناعة الأقمشة الحريريّة ذات الألوان المختلفة، وكانوا يطرّزون نوعاً خاصّـــاً منهـــا يـــسمّى "الحلل الموشية"[٨].

(١) المصدر نفسه، ص١٠٤.
(٢) المصدر نفسه، ص١٠٥.
(٣) انظر: أبو الفداء، إسماعيل بن علي بن محمود (ت ٧٣٢هـ)، تقـويم البلـدان، دار الطباعـة الـسلطانية، باريس، ١٨٤٠م، ص ١٧٥.
(٤) ابن سعيد المغربي، الجغرافيا، (تحقيق إسماعيل العربي)، المكتب التجاري، بيروت، ١٩٧٠، ص ١٤٠
(٥) المصدر نفسه، ص ٩٤.
(٦) انظر: الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد (ت٥٦٠هـ)، صفة المغـرب وأرض الـسودان ومـصر والأندلس، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٦٨م، ص ١٧٤.
(٧) الحموي، معجم البلدان، مج١، ج١، ص ١٦١ ؛ والحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص ١٩٢.
(١) انظر: شبانة، محمد كمال (٢٠٠٤)، يوسف الأول ابن الأحمر (سلطان غرناطة)، مكتبة الثقافـة الدينيـة، القاهرة، ص١٩٣.

ويذكر ابن الخطيب في رسالته (مفاخرات مالقة وسلا) أنّ مالقة كانت "طراز[١] الديباج المذهّب[٢]، ومعدن صنائع الجلد المنتخب، ومِقْصَر[٣] المتاع المشدود[٤]، ومضرب الدّست[٥] المضروب، وصنعاء[٦] صنائع الثياب"[٧].

وقد عبّر شعراء هذا العصر عن إعجابهم بصناعة الحرير في عصرهم مشيرين بذلك إلى مستوى الجودة الذي وصلت إليه، فهذا ابن فركون يقول أبياتاً شعرية واصفاً ثوب حرير أهدي إليه، فيقول [٨]:

إذا اللّونُ أشْرَقَ مِنْ ثوْبِها　　　حكَى الْوردُ في روْضِهِ النّاعِمِ

و فيها الّذي حُسْنُ ألوانِهِ　　　كزهْرِ الرّبى الرائق ِالباسمِ

فهو يظهر روعة ذلك الثوب الذي اشرقت الوانه، وهي تحاكي لبهجتها وروعتها وبراعة صنعها وجمال ألوانها الأزهار في الربى.

كما ذهب ابن فركون إلى وصف صناعة الحرير التي تزين جدران البيوت وكأنها حلي وضعت على هذه الجدران، بقوله [٩]:

تفتّحتِ الألوانُ منّي أزاهِراً　　　تلاعِبُها أيْدي جنوبٍ وشمألِ

فلحْت كمثْل ِالزّهر والزّهْي في الرّبى　　　فمَنْ مجتنٍ يأتي على إثْر مُجْتَلِ

---

(٢) الطّراز: الموضع الّذي تنسج فيه الثياب الجيّدة، المعجم الوسيط، مادة (طرزه).
(٣) الدّيباج: ضرب من الثياب سداه ولحمته حرير (فارسي معرّب)، المعجم الوسيط، مادة (دبج).
(٤) مِقْصَر: عصا القصار التي يدق بها الثياب، المعجم الوسيط، مادة: قصَر، وعرّفها أحمد مختار العبّادي نقلاً عن دوزي أنها آلة لغزل الأقمشة القطنيّة. انظر: لسان الدين بن الخطيب، مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب، ص٥٩.
(٥) المتاع المشدود: أي كلّ ما يشدّ به مثل العمائم والأحزمة كما عرّفه أحمد مختار العبّادي نقلاً عن دوزي. انظر: لسان الدين بن الخطيب، مشاهدات لسان الدين بن الخطيب، ص٥٩.
(٦) الدّست: اللباس، المعجم الوسيط، مادة (الدست).
(٧) صنعاء: عاصمة اليمن وكانت مشهورة بمنسوجاتها، والمعنى هنا مجازي.
(٨) لسان الدين بن الخطيب، مشاهدات لسان الدين بن الخطيب، ص٥٩.
(٩) ابن فركون، ديوانه، ص ١٤٩.
(١٠) المصدر نفسه، ص ٢٨٦.

وقال في أبيات أخرى واصفاً هذه الستائر الحريرية وقد أضفت على الأجواء الـــسرور، فقد وصفت تلك الستائر نفسها وهي تزهو، من خلال تشخيصها، فقال مرتجلاً [(١)]:

فيا طالمَا أزرت صفات بدائعي ... بنور الضُّحَى في أفقه المتهلل

إذا احتفلَ النّادي وراقتْ صدوره ... فلي رتْبةُ التّصْدير في كُلّ مَحْفَلِ

إذا سدلتْ حوْلي السّتورُ بمنزلٍ ... نظرت لها والشّهب دوني مِن علِ

ولم تظهر إجادة صناعة الحرير فقط في الستائر، وإنما ظهرت جلية فـــي ملابـــس أهـــل غرناطة، الذين كانوا يميلون إلى الأناقة في الملبس دون الابتذال فيه [(٢)]، وقد عدّ ابـــن خاتمـــة الأنصاري حسن اللباس دليلاً على نبل المرء ورفعته، وفي ذلك يقول [(٣)]:

تحرّ منَ الأثوابِ ارفعْها تنلْ ... أعزّ مَحَلّ ترْتَقي لالْتماسِهِ

ولا تبغ في أمْرِ اللّباس تواضُعا ... فعنفوان نُبْلِ المرْءِ حُسْنُ لباسِهِ

فهو يدعو إلى اختيار الملابس الفاخرة وعدم التهاون في هذا الأمر، وعلى هذا النحو كانت ملابس الناس عندهم، يغلب عليها طابع الأناقة والنفاسة [(٤)].

وقد عرف الأندلسيون أنواعاً متعددة من الصناعات المتعلقة بالملابس سواء أكانـــت مـــن الحرير أو غيره من المواد التي استخدموها في مثل هذا النوع من الصناعات، مثـــل؛ القطـــن، والصوف، والكتان، التي استخدمت في صنع ما كانوا يلبسون أو ما كانوا يزينون به أجـــسامهم، مثل؛ العمامة؛ وهي قطعة القماش وحدها التي تلفّ عدّة لقات حول الطاقيّـــة [(٥)]. وكـــان أهـــل الأندلس يجعلون للعمامة ذؤابة يسدلونها من تحت الأذن اليسرى، أمّا العلمـــاء فهـــم يرخونهـــا ويصرفونها بين الأكتاف [(٦)].

---

(١) المصدر نفسه، ص ٢٨٦.
(٢) انظر: الطوخي، مظاهر الحضارة في الأندلس، ص ٧٤.
(٣) ابن خاتمة الأنصاري، ديوانه، ص ١٦٢.
(٤) انظر: لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ١٣٩.
(٥) وكان يطلق عليها لفظ القُلَنسُوة. انظر: دوزي، رينهارت (١٩٧١)، المعجم المفصّل بأسماء الملابـــس عنـــد العرب، (ترجمة أكرم فاضل)، وزارة الإعلام، مديرية الثقافة العامة، بغداد، ص٢٥١.
(٦) انظر: المقري، نفح الطيب، ج١، ص٢٢٢.

وكان لسان الدين ابن الخطيب من الذين يتعممون، وفي ذلك أنشده محمد بن عبد الرحمن الكرسوطي الفاسي [(١)] محاولاً لوث عمامته [(٢)]، فقد استعان بمن يساعده على الإحكام بها، فقال الكرسوطي [(٣)]:

أمعمّماً قمَراً تكاملَ حُسْنُهُ	**أربى على الشّمْسِ المُنيْرةِ في البها**
لا تلتمسْ ممّنْ لَديْك زيادةً	**فالبدْرُ لا يمتار[(٤)] من حُسْنِ السّها[(٥)]**

وقد عرف أهل غرناطة نوعاً من الملابس كانت مادة الصناعة فيها غير ما كان متعارف عليه عندهم، فقد ورد أن السلطان يوسف الثالث كان يرتدي قناعاً من الذهب الخالص، وقد عبّر ابن فركون عن ذلك بقوله [(٦)]:

أحْسِنْ بهِ مِنْ قناع	**راقَ العيون جمالا**
من خالص التَّبر[(٧)] جلت	**صفاته أن تُنالا**

كما عرفوا صناعة الجلد في ملابسهم من خلال الوشاح، وهو نسيج عريض يرصّع بالجواهر تشدّه المرأة بين عاتقها وكشحيها[(٨)]. ويرى دوزي أنّه منطقة عريضة من الجلد مزركشة بالأحجار الكريمة تلبسه النّساء[(٩)]، وقد تغنى الشعراء بالمرأة ذات الوشاح، وكانوا يفضلونه فضفاضاً ؛ لأنه يدل على الخصر الضامر، الذي عدوه صفة من صفات الجمال عند المرأة، وفي ذلك يقول ابن خاتمة [(١٠)]:

خصيبةُ طيْ الأزْرِ جَدْبٌ وِشاحُها	**فردْفٌ لبغداد وعطْفٌ ليثْربِ**

(١) هو محمد بن عبد الرحمن الكرسوطي، الفاسي، يكنى أبا عبد الله (٦٩٠- بعد ٧٦٠هـ)، نزيل مالقة، فقيه محدث، متكلم، عروضي، ولد بفاس وقدم على الأندلس عام ٧٢٢هـ، ثم على مالقة وغرناطة، وله تآليف منها: "الغرر في تكميل الطرر" و "الدرر في اختصار الطرر". انظر: لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة، ج٣، ص١٣٠؛ وابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٣، ص٤٩٨؛ والمقّري، نفح الطيب، ج٦، ص٩٧.

(٢) لوث: لاث الشيء لوثاً أداره مرّتين كما تُدار العِمامة والإزار، ولاث العِمامة على رأسه أي عصبها، لسان العرب، مادة (لوث).

(٣) المقري، نفح الطيب، ج٦، ص ٩٦.

(٤) يمتارُ: من الميرة وهي الطّعام يمتاره الإنسان، أي يجلبه، انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة: مير. والمقصود هنا أنّ القمر لا يستمد نوره من نور السُّها.

(٥) السُّها: كويكب صغير خفي الضّوء في بنات نعش الكبرى، لسان العرب، مادة (السها).

(٦) ابن فركون، ديوانه، ص ٢٦٧.

(٧) التّبر: الذّهب، انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (تبر).

(٨) المعجم الوسيط مادة (وشَحَ). والكشح: ما بين الخاصرة والضلوع، المعجم الوسيط مادة (كَشَحَ).

(٩) انظر: دوزي، المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، ص٣٤٦.

(١٠) ابن خاتمة الأنصاري، ديوانه، ص ٧٢.

وقد ظهر عندهم عدد من الصناعات فيما ينتعلون، فالجوارب _مثلاً_ كانت إما صوفية أو قطنية[١]، أما الصندل فكان من الجلد، وكان القبقاب مصنوعاً من الخشب[٢]، وهذا ابن الخطيب يصف قبقاباً خشبياً أهدي له، فيقول [٣]:

قدْ قبلْنا جيادَكَ الدّهم لمّا — أن بَلَوْنا منْها العِتاقَ الحِسَانا

أقبلتْ خلْف كُلّ حجر[٤] تبيع — خلعَتْ وصْفَها عليه عيانا

وأردْنا امتطاءَها فاتّخذْنا — من شِراك الأديمِ فيها عِنانا

وقد تحوّلت قباقب الخشب تحت قلم ابن الخطيب إلى جياد دهم عتاق، وسيورها الجلديّة إلى أعنّة. ولعلّ الخيط الرّابط بين الجياد والقباقب ما تحدثه القباقب عند المشي من طرطقة ذكرته بوقع حوافر الخيل وهي تندفع إلى ميدان القتال[٥].

ومن هنا نجد أنّ المجتمع الغرناطي قد عرف صناعة الحرير بأنواعه المختلفة مثل الخز ويصنع من الحرير والصوف أو الوبر، ومثل الإبريسم وهو حرير خالص، والديباج وهو نسيج حريري موشى بخيوط من الذهب أو الفضة. وكان هذا بفضل عناية أهلها بتربية دودة القز ووفرة أشجار التوت التي تتغذى القز على أوراقها[٦]، وكذلك صناعة السجاد الذي كان يستخدم لتزيين الأرض والحوائط سواء في البيوت أو المساجد، وتكاد الدراسات تجمع على أن مدينتي غرناطة وبسطة هما المدينتان الأهم في مثل هذا النوع من الصناعات [٧]، كما عرفت في غرناطة صناعة الجلود ودباغتها ونقشها، فقد كان الغرناطيون يحولونها إلى أحزمة وأحذية وسروج وأغماد للسيوف والأوعية الجلدية المختلفة [٨] وتشير الدراسات إلى أنهم ورثوا هذه النوع من الصناعة من مدينتي قرطبة وألمرية [٩] ومن مالقة التي كانت متخصصة في صناعة الحزم والمدورات [١٠].

---

(١) انظر: نصر، ثريا سيد (١٩٩٨). تاريخ أزياء الشعوب، عالم الكتب، القاهرة، ص٣١٨.
(٢) انظر: فرحات، غرناطة في ظل بني الأحمر، ص١٢٩.
(٣) لسان الدين بن الخطيب، ديوان لسان الدين بن الخطيب، ج١، ص ٥٩٦.
(٤) حِجْر: الفرس الأنثى، انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (حجر).
(٥) انظر: الطرابلسي، حياة الشّعر في نهاية الأندلس، ص٥٤٠.
(٦) انظر: لسان الدين بن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ١٣.
(٧) انظر: شبانة، يوسف الأول ابن الأحمر، ص ١٩١.
(٨) انظر: فرحات، غرناطة في ظل بني الأحمر، ص ١٢٣.
(٩) انظر: المقري، نفح الطيب، ج١، ص ١٥٤.
(١٠) انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، ص ٢١٩.

الصناعات الحربية:

عرفت صناعة الأسلحة والسيوف والخناجر والدروع والرماح، وقد تقدمت تقدماً كبيـــراً، فقد عبر ابن سعيد عن ذلك بقوله: " وأما آلات الحرب من التراس والرماح والسروج والألجـــم والمغافر فأكثر همم أهل الأندلس كانت مصروفة إلى هذا الشأن " [١].

وقد ساهمت الحروب والمعارك التي خاضها بنو الأحمر في إطلاق قريحة الشعراء الذين هبوا يصفون انتصارات جيوشهم وأدوات الحرب التي كانت الجيوش تستعملها، فقـــد خـــصص ابن فركون مثلا جل شعره في مدح انتصارات يوسف الثالث والتغني بهذه الانتصارات، وابـــن فركون كغيره من الشعراء وصف المعارك الحربية التي حدثت في عـــصره، ولكونـــه شـــاعر البلاط النصري، فقد غلب على شعره طابع المدح للسلطان الغرناطي، والإشادة بأفعاله وصـــبره في ساحات المعارك وميادين القتال، ومن ذلك ما قاله في الإشادة بدور يوسف الثالث في معركة شقورة، وكيف كان لإرشاداته الفضل الأكبر في تحقيق النصر المؤزر، يقول[٢]:

لما التقى الجمْعانِ في أرْضِ العدى ... ورميتَ جمعَهُم ببأسٍ معجلِ

نادى بأبْطالِ الجِهادِ ألا اقدمُوا ... وأجَالَ فيْهم نظرةَ المتأمِّلِ

فتسارعوا [٣] إلى داعي الهُدى ... والرومُ عنْ سُبُلِ النّجاة بمعْزلِ

ضاقتْ عليْهم أرضُهُمْ فتوقفُوا ... والماءُ يجمَعُ نفسَه في الجدْولِ

وتجمّعتْ فِرَقُ العِدا ثمّ انثنتْ ... مابين منهزمٍ وبينَ مجدّلِ

وتسللوا طَوعَ الفِرارِ وجمعُهُم ... قدْ ريْعَ بيْن مُذلّل ومُضلّلِ

وقد تطرق ابن فركون إلى وصف أدوات الحرب التي كانت تساعد الجيوش الجرارة على تحقيق النصر المؤزر الذي كان يحالفهم، وفي ذلك إشارة إلى أنواع متعـــددة مـــن الـــصناعات الحربية غير التقليدية التي ارتبطت بالمعارك، فقد توصل الغرناطيون إلى أنـــواع جديـــدة مـــن الصناعات المرتبطة بالمعارك، مثل ؛ الأسلحة النارية، التي تدك الحصون وتهدمها، وهي غيـــر الأسلحة التي عرفها الإغريق، التي تقوم على الحرق باستخدام النار، وإنما كان سلاحهم الجديـــد عبارة عن خليط من النفط وملح البارود أو النشادر وحصى الحديد في درجة حـــرارة عاليـــة،

(١) المقري، نفح الطيب، ج١، ص ١٨٨.
(٢) انظر: ابن فركون، ديوانه ، ص١٩٧.
(٣) هناك خلل عروضي (فتسارعوا أسْداً الى داعي الهدى...). شقورة: وهي مدينة من اعمال جيان بالأنـــدلس تقع على الحدود الشمالية لمملكة غرناطة، انظر: الحميري، أبو عبد الله محمد بـــن محمـــد بـــن عبـــد المـــنعم (ت٩٠٠هـــ)، صفة جزر الأندلس، منتخبة من الروض المعطار في خبر الأقطار، (تحقيـــق ليفـــي بروفنـــسال وإيفارست)، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٣٧م، ص١٠٥.

تكون على شكل كرة فيلقى بها على الحصن فلا تبقي من آثاره شيئاً، محدثة دوياً متفجراً شـــبيه بصوت الرعد [(١)]، ويروى أن السلطان إسماعيل ابن الأحمر قد استخدم هذا السلاح في حـــصار مدينة أشكر جنوب الأندلس [(٢)]، وفي ذلك يقول ابن الخطيب [(٣)]: " وفي ســنة (٧٢٤هـ/ ١٣٢٤م) نازل السلطان بلدة أشكر ونشر عليها الحرب، ورمى بالآلة العظمى المتخذة بالنفط، كرة محمـــاة طاقة البرج المنيع، فعاثت عياث الصواعق السماوية، ونزل أهلها قسراً على حكمه، وفي ذلـــك يقول شيخنا ابن هذيل:

وظنّوا بأنّ الرعْدَ والصّعْقَ في السما فحاقَ بهِمْ مِنْ دونِها الصّعقُ والرّعْدُ

غرائبُ أشكالٍ سما هرمس[(٤)] بها مهندمة تأتي الجبالَ فتنهدُ[(٥)]

ألا إنّها الدّنيا تُريكَ عجائبا وما في القوى[(٦)]منها فلا بدّ أن يبدو

وابن فركون يصف البارود المستخدم في المعركة في دلالة على تطور الصناعة الحربية في زمن المملكة النصرية مبيّناً الأثر الذي يحدثه في المعركة بقوله [(٧)]:

وفي مَعْدَن البارودِ أعْظَمُ آية بَدَتْ فالنّهى فيها يَطولُ اعتبارُها

نصبتَ بها للنّفط أبراجَها التي يُضاهِي بُروجَ النّيْراتِ جِدارُها

فكيْفَ منْه اللهُ للحرْب عِدّة ففي القفْر منْه ما إليه افتقارها

(١) انظر: عبادي، أحمد مختار (٢٠٠٠)، صور من حياة الحرب والجهاد فـــي الأنـــدلس، منـــشأة المعـــارف، الإسكندرية، ص ٢٣٠.
(٢) المصدر نفسه، ص ٢٣١.
(٣) لسان الدين بن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٧٢.
(٤) هرمس: إله الفصاحة والتجارة والسرقة عند اليونان، ويسميه الرومان إلاه مركور، وهو يرمز إلى غرابـــة الاختراع.
(٥) إشارة إلى الهدم وليس الحرق كما عند الإغريق.
(٦) القوى هنا: بمعنى الطاقة.
(٧) ابن فركون، ديوانه، ص ١٤٤.

فهذه الأبيات إشارة تاريخية هامة تتمثل في أن المسلمين في هذا العصر قد عرفوا هذا المعدن كما استعملوا الأنفاط، والشاعر يصور هذا الحدث وكأنه آية من آيات الله سخرها على يدي هذا الملك، وبذلك أصبح البارود سلاحا للإيقاع بالأعداء، يقول(١):

عَمَرْتَ بِهِ ثغْرا كأنّ بعُداتِهِ	وقدْ أقفَرتْ أوطانُها وديارها
تَسُلُّ عليْها سيْفَ عزْمِكَ إذ لها	به حالتها قتْلُها أو إسارُها

ولم يكتف الشاعر بوصف البارود بوصفه أداة حربية، وإنما يأتي على ذكر الصناعات التقليدية للحرب، فتارة يصف القوس بقوله (٢):

لَئنْ أصبَحتْ كفُّ موْلايَ أفْقا	فإني أطْلعْتُ فيه هِلالا
وتنْقضّ فيْهِ سِهامي نُجُومَا	لِرَجْمِ العِدَى حيْثُ حُلْوا حلالا

فالقوس عنده أصبح مثل الهلال والسهام أصحبت مثل النجوم، ويد المقاتل التي تحمل هذا وذاك هي الأفق التي تحويها جميعاً.

وتارة أخرى يصف السيف مظهراً حالة الزهو التي يعيشها في سلطانه، فيقول(٣):

تُصِيبُ سِهامِي نُحُورَ العِدى	وتُدْني سَرِيعا بَعِيدَ المدى

ثم يبيّن لمعان السيف والبريق الذي يكتسبه من الانتصارات بقوله (٤):

وبارِقُ السّيْفِ مِنْ يُمْنى يَدَيْكَ إذا	تجَهّمَ الرَّوْعُ يَجْلُوهُ تَبَسّمهُ

وكذلك تظهر لنا الصناعة الحربية التقليدية من خلال السهام التي كانت من لوازم المعارك وأدواتها، حيث لم يكن لهم بدّ من استعمالها؛ لما تفعله في صفوف الأعداء، وفي ذلك يقول ابن فركون (٥):

فما فُوّقَ السّهْم إلا رَمَى	وَلاقلّدَ السّيْفَ إلا نَضَى

---

(١) المصدر نفسه، ص١٤٥.
(٢) المصدر نفسه، ص ٢٧٩.
(٣) ابن فركون، ديوانه،، ص ١٠٣.
(٤) المصدر نفسه، ص ٣٦٨.
(٥) المصدر نفسه، ص ١٩١.

ومن ثم يصف السيف الحاد وهو في يد المقاتل الذي يبادر بقتل عدوه، فيقول [١]:

سَعَى نَحْوَهُ السّيْفُ الصّقيلُ فرَاعَهُ   وجَدّ لَهُ الرّمْحُ الطّويْلُ فجدّ لَهْ

فيبدو من خلال ما سبق أن المملكة النصرية أظهرت تقدما في الصناعات الحربية سواء التقليدية منها أم الحديثة، وفي ذلك يقول القلصادي في رحلته: "ورثت مملكة غرناطة كثيراً من الصناعات المزدهرة عند الأندلسيين مثل صناعة الأسلحة التي مكنتها في مواصلة الدفاع" [٢].

ومن أهم الصناعات الخشبية في الأندلس، صناعة السفن الحربية وسفن الصيد وملحقاتهما، إذ قامت هذه الصناعة نظراً لطبيعة الموقع الجغرافي لبلاد الأندلس عامة، والمملكة النصرية على وجه الخصوص، فوقوعها على البحر جعل اهتمام أهلها ينصرف إلى صناعة السفن والأساطيل البحرية بوصفها أداة هامة من أدوات الحرب التي تستطيع نقل الجيوش العتية إلى أرض الخصوم، وقد وقف الشعراء أمام هذه الأساطيل منبهرين ومعظمين، وفي هذا دلالة على عظمة هذه السفن ومقدرتها العالية على حمل العدد الكبير من المقاتلين، يقول ابن فركون [٣]:

وأرْسلْتَ في البحْرِ الأساطِيلِ نُزَّعَا   تُراوِحُ أقطارَ العِدَى وتُبَاكِرُ

يُراوِغُ بعْضٌ بعْضَها مُتلاعِبا   كما لَعِبَتْ وَسْطَ الفَلاةِ جآذِرُ

وقد ظهرت وكأنها أعجوبة ليس لها مثيل، حيث حملت على متنها كل مقاتل باسل [٤]:

جَلَوْت لأهْلِ الأرضِ منْها عجائِبَا   لَها مَثَلٌ في الغرْبِ والشّرْقِ سائرُ

وقدْ حَمَلتْ مَنْ كُلّ أرْوَعَ باسِلٍ   نَمَتْهُ إلى العلْياءِ صَيْدُ أكابِرُ

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٠٣.
(٢) القلصادي، أبي الحسن القلصادي الأندلسي (ت ٨٩١هـ / ١٤٨٦ م) رحلة القلصادي، (تحقيق محمد أبو الأجفان)، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ١٩٧٨، ص ١٨.
(٣) ابن فركون، ديوانه، ص ١٩٩.
(٤) المصدر نفسه، ص١٩٩.

ووصف الأساطيل والغزوات البحرية منبع لا يغيض يستنبط الشعراء منه معانيهم وأوصافهم وتتسم هذه المعاني وتلك الأوصاف بضروب من المبالغة وهي مناسبة لهذا الغرض الحماسي، يقول ابن الأبار [(١)]:

سوْفَ تغْشاهُ الجَواري مُلوُّها	ملأً كالأسدِ ذاتِ اللّبدِ
كلّ شيْحانَ تمطى مَنْ مطى	أدْهم الصبْغة سهْل المقْوَدِ
يحْسَبُ البحْر طريْقا يَبِسا	فهْوَ يُجْريهِ كطرْفٍ أجْرَدِ

ولابد من الإشارة إلى أنه تم إنتاج أنواع من السفن الحربية التي عرفت بالحراريق، التي تستخدم على ما يبدو لقذف النار على أسطول العدو، أو على تحصيناته، أو لدكّ حصونه القريبة من الساحل، مثل تلك التي تم إنتاجها في الجزيرة الخضراء [(٢)]، وأيضاً في مدينة مالقة [(٣)]، وفي مدينة لقنت _ مع صغرها _ تصنع فيها المراكب السفرية والحراريق [(٤)]. كذلك وجدت دور صناعة في جزيرتي يابسة وميروقة [(٥)].

وكما وصف الشعراء صناعة السفن، فقد وصفوا أيضا الشراع في إشارة إلى نوع من الصناعات التي رافقت صناعة السفن عندهم، ولعل الشراع هو أهم جزء في السفينة لأنه أول ما يظهر لمن يترقب وصول السفينة، وقد جعل يوسف الثالث الشراع رمزا للسفينة، فقد يكتفي بذكره ليقصد به السفينة نفسها:

ولا تحْسَبي النكْباءَ يُبطِئ سيرُها	إذا ما شِراعٌ خاضَ بحْر المنكّبِ

كما يبتدع ابن الأبار صورة أخاذة ساحرة للشراع مستمدة من عالم الطيور والصيد، فيقول [(٦)]:

تطيّرُها الريْحُ غِرْبانا بأجْنِحَة الــ	حَمَائِم البيْض للإشْراكِ ترْزوهُ

---

(١) ابن الأبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر البلنسي (ت٦٥٨هـ)، ديوان ابن الأبار، (تحقيق عبد السلام الهراس)، الدار التونسية، تونس، ١٩٨٥م، ص ١٥٢.
(٢) الحراريق: نوع من السفن الحربية تقوم بإحراق سفن العدو بالنفط. انظر: ابن فضل الله العمري، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى (ت٧٤٩هـ)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ط١، (تحقيق محمد عبد القادر خريسات وعصام مصطفى عقلة ويوسف أحمد بني ياسين)، مركز زايد للتراث والتاريخ، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ٢٠٠١، الباب ٨ – ١٤، ص ١٦٢
(٣) المصدر نفسه، الباب ٨ – ١٤، ص ١٦١.
(٤) انظر: الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، م ٢، ص ٥٥٨.
(٥) انظر: الحميري، الروض المعطار، ص ١٨٩– ١٩٨.
(٦) ابن الأبار، ديوانه، ص ٤٢.

كما يذكر ابن الخطيب الشراع، ويلوح أن بياض هذا الشراع يخفـــي وراءه المـــوت للأعـــادي فيقول(١):

مِنْ كُلِّ مُنْصاعٍ كأنَّ شِراعَهُ   قِطَعُ السّحابِ سَرَتْ بنوْءِ المرزمِ

صناعة الخزف:

اشتهر الغرناطيون بصناعة الخزف، ولعل السبب في ذلك يعود إلـــى جـــودة تربتهـــا، ففخارها هو الأجود للطبخ، يقول ابن سعيد المغربي في ذلك (٢): " تختص بالفخار لجودة تربتها، فليس في الدنيا مثل فخارها للطبخ "، وقد راجت في المملكة النـــصرية هـــذه الـــصناعة، إلا أن صناعة الخزف عندهم لم تقتصر على فخاريات الطبخ مثل؛ الأباريق، والـــصحون، وقـــساطل المياه، فقد كانوا يستخدمون الخزف في صناعات البناء وتزيين واجهات ومداخل القصور (٣).

ومن خلال هذه الصناعة عرف المجتمع الغرنـــاطي الأقـــداح، والأطبـــاق، والأكـــواب، والدواني المفضضة، وكان هناك أقداح مصنوعة من الفخار المالقي الذي ذاع صيته في المملكة، وقد كان مزيناً بنقوش بديعـــة أمـــر بـــصناعتها يوســـف الثالـــث، وهـــي أقـــداح ذات لـــون أحمر، تتخللها زرقة نقش عليهـــا أبيـــات مـــن نظـــم ابـــن فركـــون وصـــفت تلـــك الأقـــداح نفسها كأنها الشمس المائلة إلى الحمرة في ساعاتها الأولى لبزوغ أشعة الشمس، يقول فيها (٤):

فَتَخالُ كلّمَا أبْصَرَتْنِي   شَفَق الفجْر بدا في الأفُقِ

وفي أبيات أخر وصفت الأقداح نفسها كأنها نهر حف بجوانبه الورد وطفا عليه الزهر، يقول ابن فركون(٥):

زُرْقةُ لونْي قدْ بَدَتْ   تُشْبهُ مَاءً في نَهرْ

حَفَتْ بِهِ الوَردُ وقدْ   طفَا بأعلاهُ الزّهِرْ

---

(١) لسان الدين بن الخطيب، ديوان لسان الدين بن الخطيب، ص ٥٨٥.
(٢) انظر: ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، ج١، ص٢٤.
(٣) انظر: المقري، نفح الطيب، ج١، ص١٦٣.
(٤) ابن فركون، ديوانه، ص ٢٩٧.
(٥) المصدر نفسه، ص ٢٩٧.

وقد تكون هذه الأقداح الخزفية حمراء يتخللها بياض وهي نوع من المذهب المالقي، يقولفيها[١]:

فحمْرَتِي في البَياضِ وَرْدٌ   أوْ زَهْرٌ في بِطاحِهِ

ويشبه بياض تلك الأقداح بالقمر لشدة نصاعتها وضيائها الفضي، يقول [٢]:

فكَأنّي قمَرٌ   فِكْرُهُ أطْلَعَنِي

ويصف لونها المذهب في أبيات أخرى يقول فيها [٣]:

فحُمْرتِي في ذهب   ورْدٌ بِهِ حُفَّ الزّهِرْ

صناعة الحلي:

عرف هذا النوع من الصناعة في المجتمع النصري، وارتبط بالمرأة الأندلسية ارتباطاً قوياً؛ نظرا لاهتمام المرأة الغرناطية بمظاهر الزينة والجمال، فالنساء في غرناطة اتخذن أنواعاً مختلفة من الحلي، ويصف ابن الخطيب مدى اهتمام المرأة الغرناطية بمظاهر الجمال والزينة فيقول [٤]: "وحريمهم حريم جميل، موصوف بالسّحر، وتنعم الجسوم، واسترسال الشّعور، ونقاء الثّغور، وطيب النّشر، وخفّة الحركات وقد بلغن من التفنّن في الزّينة لهذا العهد والمظاهرة بين المصبّغات، والتّنفيس بالذهبيّات والدّيباجات والتماجن في أشكال الحلي إلى غاية نسأل الله أن يغضّ عنهنّ فيها عين الدّهر".

ومما يلحظ أن هذا النوع من الصناعة قد راعى طبقات المجتمع المختلفة، فقد كانت الحلي المصنوعة من الذهب للطبقة الخاصة، والحلي المصنوعة من الفضة للطبقة العامة، أما الطبقة الخاصة فكانت الحلي المصنوعة لها ذات طابع خاص، فقد زينت حليها الذهبية بالأحجار الكريمة والياقوت والجواهر النفيسة [٥].

---

(١) المصدر نفسه، ص ٢٨٠.
(٢) المصدر نفسه، ص ٢٨٠.
(٣) المصدر نفسه، ص٢٨٠.
(٤) لسان الدين ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص١٣٩.
(٥) انظر: المصدر نفسه، ج١، ص١٣٩.

وقد وصف الشعراء هذه الحلي على تفاوت أنواعها من خلال وصفهم وتغزلهم بـــالمرأة الغرناطية، مظهرين في ذلك جمال الحضارة عندهم، فهذا ابن الخطيب يصف عقداً كانت تلبـــسه إحدى النساء، فيقول[١]:

ونَلْثِمُ مَا بيْنَ النُّحوْرِ إلى الطّلى وإنْ هِيَ غُصّتْ بالحُلَى والقلائِدِ

ويقول في موضع آخر [٢]:

ولَمْ أنْسَ إذ عانقْتُها لوَداعِنا فخالَطَ دُرُّ العِقْدِ جوْهرَ أدْمُع

ويصف ابن الخطيب صاحبته من خلال قرط ذهبي كانت تلبسه، فيقول [٣]:

بنفْسِي غزَالٌ قدْ غزتْني لِحاظهُ وَتَيَّمَ قلْبِي حُسْنُهُ وجَمالُهُ

هُوَ البدْر والجَوْزاءُ[٤] قرْطٌ مُعسْجَدٌ[٥] وجُنْحُ اللّيالِي فرْعُهُ ودَلالُهُ

ويذكرها ابن الخطيب أيضاً في موضع آخر، واصفاً سواراً مذهباً كانت تضعه مما زاد حـــسنها حسناً وجمالها جمالاً، فيقول [٦]:

حَسْناءُ قدْ غُنِيتَ بِحُسْنِ صَفائِها عَنْ دملَج [٧]وقِلادَةٍ وَوِشاح

ويبين الشاعر كيف أنه تعلق بصاحبة الأقراط، فيقول [٨]:

صبوْتُ وَما قلْبي بَأوّلِ مَنْ صَبَا لناطِقةِ القُرْطيْنِ صامِتَةِ القلْبِ

---

(١) لسان الدين بن الخطيب، ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام، ص٤٨٨.
(٢) المصدر نفسه، ص ٦١٧
(٣) لسان الدين بن الخطيب، ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام، ص ٥٧٣.
(٤) الجوزاء: برج من بروج السماء.
(٥) العسجد: الذهب، لسان العرب مادة (عسجد).
(٦) لسان الدين بن الخطيب، ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام، ص ٣٧٤.
(٧) الدملج: سوار يحيط بالعضد.
(٨) لسان الدين بن الخطيب، ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام، ص ٢٧٢.

ومن مظاهر صناعة الحلي في غرناطة صناعة الخلخال، الذي كانت تهتم به المرأة الغرناطية وتكمل به زينتها، ولم يكن الشعر بعيداً عن وصف هذا المظهر الجمالي الحضاري عند المرأة الأندلسية، فيقول أبو حيان الأندلسي (١):

لاحَتْ لنا ولها في ساقِها خُلْخالْ   وقد تَزيَّنَ منْها خَدّها بالخالِ

وقد وصف شاعر آخر الخلخال وهو صامت في ساق صاحبته في دلالة على اكتناز الساق عندها فقال (٢):

مابالُ خَلخاليْكِ قدْ صَمَتا وما   لوشاحِكِ الجَوّالِ في تَحْنينِ

غير أن هذا النوع من الصناعة في المجتمع النصري لم يكن يستهدف الناس فقط، بل كان للرجال نصيب منها، فقد عرف عن الرجال آنذاك لبسهم للخواتم، وقد ذكر ابن الخطيب أن قاضي قتوريّة أبن أبي خالد كان يختتم (٣).

صناعة العطور:

وكما ذكر ذكر آنفاً أن الأندلسيين قد اهتموا بمظهرهم الخارجي، سواء في اللباس الأنيق الفاخر المصنوع من أجود المواد، أو في التزين بأجود أنواع الحلي، كانوا يهتمون أيضاً بالعطور فاختاروا أجودها وأزكاها رائحة، وقد عملوا على تصنيعها واستخراجها من الليمون والأزهار والحشائش (٤).

وكان للعطور التي تضعها النساء دور كبير في إشعال نيران الهوى في قلوب الشعراء الذين راحوا يتغنون بطيب الرائحة المنبعة من صاحباتهم، فهذا ابن القيسي يتغنى برائحة محبوبته فيقول (٥):

وبي شادِنٌ أغْرى فُؤادي بالْهَوى   فأصْبَحَ عَنْ معْنَى الهَوى ليْسَ يَبْرَحُ
وتحْمِلُ عَنْ أنْفاسِهِ نفْحَةُ الصّبا   روائِحَ مِسْكٍ تهفو وتَنْفُحُ

---

(١) أبو حيان الغرناطي، ديوانه، ص ٣٥٩.
(٢) ابن خاتمة الأنصاري، ديوانه، ص ٦٨.
(٣) انظر: لسان الدين ابن الخطيب، مشاهدات لسان الدين بن الخطيب، ص ٣٦.
(٤) انظر: فرحات، غرناطة في ظل بني الأحمر، ص١٣٠.
(٥) عبد الكريم القيسي، ديوانه، ص ١٥٩.

بينما يرى ابن فركون أن حسن المرأة وجمالها لا يكتملان إلا بطيب الرائحة، وهذا فيه إشارة إلى انتشار التطيب بالعطور عندهم وتقدم هذه الصناعة في بلادهم، فيقول [(١)]:

إذ لها بهْجَةٌ وحُسْنٌ عَجيْبٌ   وجَمَالٌ بادٍ وعرْفٌ وطِيبُ

صناعة العاج:

واشتهر نوع آخر من الصناعة في غرناطة خاصة بعد سقوط قرطبة في القرن العاشر فقد اشتهرت صناعة العاج فيها، حيث انتقل إليها عدد من العاملين في هذا النوع من الصناعة حاملين معهم حرفتهم وفنهم، فقد كانوا يزينون مقابض السيوف وأغمادها والعصي مستخدمين العاج، وكما أنهم صنعوا منه الصناديق الصغيرة وعلب العطور وغيرها.

وقد عرفت غرناطة في عهد بني الأحمر نوعا آخر من الصناعات تمثل بالصناعات الغذائية، مثل؛ صناعة طحن الحبوب باستخدام طواحين الهواء [(٢)]، و صناعة عصر الزيتون[(٣)]، وصناعة الزبيب [(٤)]، وصناعة السكر، وتمليح السمك[(٥)].

صناعات أخرى:

يتجلى للباحث في الشعر في عصر الدولة النصرية، أن ثمة شعرا كان ذا طابع نقشي عُرف عندهم، إلا أن هذه النقوش كانت تنحى منحيين، الأول منهما كان ينقش على المباني والقصور والمساجد وغيرها من مظاهر العمارة التي سيأتي البحث عليها في الفصل الثالث، أما النقوش التي سيتناولها البحث ها هنا هي نقوش على أدوات مختلفة يستشف الباحث منها أنواعا من الصناعات المتفرقة التي عرفها المجتمع النصري، ومنها قول الشاعر القيسي في شعر له منقوش على مروحة [(٦)]:

أنَا بدْرٌ طَلَعْتُ في   كَفِّ غيْداءَ كالْقمَرْ
بلْ أنَا صُبْحٌ أقبَلتْ   قبْلَهُ نسْمَةُ الْبَحَرْ

---

(١) ابن فركون، ديوانه، ص ٢٥٧.
(٢) انظر: لسان الدين بن الخطيب، اللمحة البدرية، ص١٥.
(٣) انظر: لسان الدين بن الخطيب، أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت ٧٧٦هـ/١٣٧٤م)، معيار الاختبار في ذكر المعاهد والديار، مطبعة أحمد يمني، فاس، ١٩٠٧، ص ٨٤-٩٤.
(٤) انظر: لسان الدين بن الخطيب،اللمحة البدرية، ص ٢٨.
(٥) انظر: لسان الدين بن الخطيب، أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت ٧٧٦هـ/١٣٧٤م)، معيار الاختبار في ذكر المعاهد والديار، مطبعة أحمد يمني، فاس، ١٩٠٧، ص ٨٤-٩٤.
(٦) المصدر نفسه، ص ١٢٠.

وكذلك ما نظمه ابن الخطيب ليكتب على مروحة [١]:

كَأنَّيَ قُرْصُ الشّمْسِ عند طلوعِها وَقَدْ قَدِمتْ مِنْ قَبْلِها نَسْمَةُ الفجْرِ

كأنّ نَسيمي والهَجيرُ مُطنِّبٌ حديثُ وِصالٍ جاءَ في زَمَنِ الهجْرِ

وإلا كما هبّتْ بمُحْتَدِمِ الوَغى صَبا النّصْرِ لكنْ مِنْ بُنودِ بني نصْرِ

فمن الأبيات السابقة يظهر أن المجتمع النصري عرف هذا النوع من الأدوات التي كانت تصنع عندهم، وكأن ما هو معروف اليوم من شغف النساء الإسبانيات بالمراوح اللاتي يحملنها في أيديهن له جذور في تاريخ الحكم الإسلامي لهذه البلاد.

وقد عرف المجتمع النصري الصناعات الخشبية، ويظهر ذلك في أبيات لابن الخطيب كانت منقوشة على سفرة للطعام، قوله [٢]:

نَشَدْتُكَ هلْ أبْصَرْتَ قَبْلِيَ أو بَعْدِي مُقَوّرةً قوْراءَ كالقَمَرِ السّعْدِ

رحيْبَةَ أكْنافٍ ضميْنَةَ أنْعمٍ تَدُلُّ على الفخْرِ المُؤَثّلِ والمجْدِ

يُبشّرُ بالشّمْلِ الجميْعِ قُدومُها وتَأتي معَ العَيْشِ الخصيْبِ على وعْدِ

ولابن الخطيب أيضا أبيات نقشت على سريرين من الخشب اتخذا للسلطان محمد الخامس[٣]، إلا أن هذا النوع من الصناعة لم يلق من الشعراء ذلك الاهتمام الذي لاقته مظاهر أخرى من مظاهر الحضارة الغرناطية.

ومن الصناعات التي أتى الشعراء على ذكر أدواتها (المنكانة) التي يذكرها المقري فيقول: "وبالقرب من السلطان، خزانة المنجانة قد زخرفت كأنها حلة يمانية، لها أبواب مجوّفة على عدد ساعات الليل الزمانية، فمهما مضت ساعة وقع النقر بقدر حسابها، وفتح عند ذلك باب منأبوابها، وبرزت منه جارية صورت في أحسن صورة، في يدها اليمنى رقعة مشتملة على نظم فيه تلك الساعة باسمها مسطورة فتضعها بين يدي السلطان بلطافة، ويسراها على فمها كالمؤيدة بالمبايعة حق الخلافة [٤].

---

(١) لسان الدين بن الخطيب، ديوان لسان الدين بن الخطيب، ص ٢٩١.
(٢) المصدر نفسه، ص ٢٣٤.
(٣) المصدر نفسه، ص ٣٢١-٣٢٢.
(٤) المقري، نفح الطيب، ج٦، ص ٥١٣-٥١٤.

ويصفها ابن الخطيب في بعض تقديماته النثرية فيقول: " وقلت أبياتا تبرز بها يد من طاق خشبي لتمام ساعة من الليل في نهاية الإحكام وحسن الشكل لتنصب منكانها بين يدي السلطان ليلة اتخاذ المولد الكريم" [١].

وقد وردت ساعة المنكانة عند ابن الخطيب في غير موضع من أشعاره، إلا أن الباحث فيها لا يجد وصفا للمنكانة على وجه التحديد رغم أنه يعلن عن الوصف إذ يقول: " وقال يصف ساعة المنكانة " أو " وقلت أيضا في ساعات المنكانة "، بل إنه يتخذ منها مدخلا ينطلق منه للتأمل في حقيقة الوجود وصروف الزمان والدعوة إلى الاعتبار، يقول [٢]:

سَبَقَ القضاءُ وأبْرَمَ المحْتومُ	**والغيبُ عنّا سرّهُ مكتومُ**
حالُ الزّمان، إذا اعتبرْتَ غريبةٌ	**والحالُ في التّحقيق ليسَ تدومُ**
والّيْلُ سلْكٌ دُرُّهُ ساعاتُهُ	**إنْ حُلَّ مُعقدُهُ هوى المنْظومُ**
أكرمْ برابعةٍ تولّتْ بعدَما	**ثبَتتْ لها في الصّالِحاتِ رُسُومُ**

ومن الآلات الدالة على نوع آخر من الصناعات التي عرفها المجتمع الغرناطي ما يرد على لسان ابن الخطيب في وصف آلة كان الغرناطيون يستعملونها للري وهي الناعورة، يقول[٣]:

وقوْراءَ مِنْ قوْس الغَمام ابتَغَوا لها	**مثالا أدارُوها عَليْهِ بلا شكِّ**
فَبيْنَ الثُّريّا والثّرى سُدّ جِرْمُها	**ولِلْفلَكِ الدّوّار قدْ أصبحتْ تحْكي**
تصوغُ لُجيْنَ الماءِ في النّهر دائما	**دراهمَ نَوْرٍ قدْ خَلُصْنَ مِنَ السّبْكِ**
وتُرْسِلُ منْ شهْبانِها ذا ذؤابةٍ	**فتبْغي استِراق السّمع عنْ حوزةِ الملْكِ**
تَذَكَّرَتِ العهْدَ الذي اختُرعتْ بهِ	**وحنّتْ فلمّا تنفكُّ ساجِعَةً تبْكي**

ويظهر من خلال هذه الأبيات كيف أن الشاعر حاول أن يطوّع لغة الشعر ليصف هذه الآلة وما يتصل بها، ولكن يظهر في وصفه أنه ليس بعالم بها،فهو لم يصفها من الداخل ولم يفسّر آلية عملها بقدر ما يصف شكلها ومظهرها.

---

(١) لسان الدين بن الخطيب، ديوان لسان الدين بن الخطيب، ص ٤٩٢.
(٢) المصدر نفسه، ص ٤٩٢.
(٣) المصدر نفسه، ص ٤٠٦.

وعلى الرغم من أن الصناعة في غرناطة في عهد بنـــي الأحمـــر بلغـــت مـــن التقـــدم والازدهار الشيء الكثير، إلا أن الشعر لم يواكب هذا الازدهار في تلك الفترة، فلم ينقل لنا تلـــك الصورة على الوجه الذي كنا نأمل بحيث يصور لنا ماهية هذه الـــصناعات وظروفهـــا ومـــدى تطورها، ولعل السبب في ذلك يعود إلى ضياع الكثير من هذا الشعر، إلى جانب أنه لـــيس مـــن شأن الشاعر أن يخلص إلى مثل هذا الشأن أو يتفرغ إليه، فكل ما يأتي به من إشارات أو أبيات عابرة أو مقطعة يعبر فيها عن إعجابه بهذه المهنة أو احتقاره لتلك الحرفـــة، إلا أننـــا حاولنـــا جاهدين أن نقف على ما توفر لنا من الشعر الذي يتناول هذا الجانـــب مـــن حيـــاة المجتمـــع الأندلسي.

الفصل الثالث

التجليات الحضارية في العمارة

تميّز العهد الإسلامي في الأندلس بالنهضة العمرانية الهائلة، ولم تكن مجرد نهضة في البناء وحسب، وإنما جماليات هذا البناء وتفرده في ذلك الوقت هو الذي أعطاه هذا البعد الحضاري الذي بات ينقل لنا جزءا من الطابع العام للحياة التي كانت على مدار ثمانية قرون تزهو في تلك البقاع.

ومن هنا يُلْحظ أن كثيراً من المؤرخين والباحثين في هذا المجال اهتموا بالحضارة العمرانية في الأندلس، فتحدثوا عن مكونات البناء وأدق تفاصيله وتفرده الجمالي في ذلكالعصر.

إلا أن بعض الباحثين يرى وجهة نظر مخالفة لهذا الرأي الذي يرى تفرّد العمران وتميزه في العصر الأندلسي فيقول: "لم يُحدث الفتح الإسلامي للأندلس تغييرا واضحا في فن البناء والفنون الصناعية، ذلك لأن العرب شملوا رجال الفن من أهل الأندلس برعايتهم، وأسبغوا عليهم فيضا من حمايتهم، واصطنعوهم لخدمتهم وشجعوهم على متابعة إنتاجهم الفني في ظل العهد الجديد وفي مناخ يسوده المحبة والتسامح والوئام، ولهذا واصل الصناع وأرباب الحرف تقاليدهم الفنية بعد أن كيفوها وفقا لما يقتضيه الوضع الجديد، ولم يلبث هؤلاء الفنانون والصناع أن اندمجوا في المجتمع الإسلامي، فاقبلوا على الثقافة العربية وشاركوا بنصيب وافر في الحياة الاجتماعية، وتحققت بذلك النقلة في عصر الخلافة الأموية، وأمكن صياغة فن أندلسي إسلامي أخذ يتدرج في التطور في العصور التالية، معتمدا على الذاتية وما كان يغذيه في ظل عهود المرابطين والموحدين من موارد مغربية، إلى أن بلغ أوج التطور في عصر سلاطين بني نصر"[(١)]، فالتطور الحضاري بشكل عام والعمراني بشكل خاص في عهد الدولة النصرية لم يأت من فراغ وإنما كان امتدادا لفترات سابقة من الحكم العربي لتلك البلاد.

هذا وقد مر آنفاً في معرض الحديث عن الصناعات في عصر بني الأحمر كيف أن هجرة العمّال والحرفيين من مدنهم التي سقطت في يد الإسبان ساهم وبشكل كبير في تطور مظاهر الحضارة المتنوعة في هذا العصر[(٢)] سواء أكانت هذه المظاهر تتعلق بالحياة الاجتماعية أم الصناعية أم العمرانية. فلا عجب أن تبلغ المظاهر العمرانية عندهم أوجها خاصة، وأن الثقافة

---

(١) السيد عبد العزيز سالم (١٩٧٧)، العمارة الإسلامية في الأندلس وتطورها، مجلة عالم الفكر، المجلد الثامن، (العدد الأول)، مجلة تصدر عن وزارة الإعلام، الكويت.
(٢) انظر: فرحات، غرناطة في ظل بني الأحمر، ص ١٢٣.

الإسبانية عبر العصور راحت تتماهى في الحضارة الإسلامية وتتفاعل معها، ويؤكد ابن خلدون هذا المعنى بقوله معللا لهذه الحالة [١]: " بأن العوائد إنما ترسخ بكثرة و طول الأمد فتستحكم صبغة ذلك وترسخ في الأجيال، وإذا استحكمت الصبغة عسر نزعها، ولهذا نجد في الأمصار التي كانت استبحرت في الحضارة لما تراجع عمرانها وتناقص، بقيت فيها آثار من هذه الصناعة ليست في غيرها من الأمصار المستحدثة العمران وهذا كالحال في الأندلس لهذا العهد، فإننا نجد فيها رسوم الصنائع قائمة، وأحوالها مستحكمة راسخة، في جميع ما تدعو إليه من عوائد أمصارها، كالمباني والطبخ وأصناف الغناء واللهو من الآلات والأوتار والرقص وتنفيذ الفرش في القصور، وحسن الترتيب والأوضاع في البناء".

وقد اتسعت مظاهر الحضارة والعمران في الأندلس لتشمل جميع الفئات الاجتماعية، فأحاطت بكل أسباب الترف والتنعم، فوفرت للفرد حياة متنعمة مطمئنة إلى مدة طويلة من تاريخ حكم العرب والمسلمين في تلك الديار، ولكن بوادر الانحلال والضعف _ بعد عصر الموحدين_ ومن ثم تلك الحروب والمواجهات مع الأعداء في عصر بني الأحمر، جعل الأمة في محن، وأزال عنها نعيمها وترفها الذي شهدته من قبل، وفي ذلك يقول المقري نقلاً عن لسان الدين بن الخطيب[٢]: "خص الله بلاد الأندلس من الريع وغدق السقيا ولذاذة الأقوات، وفراهة الحيوان، ودرور الفواكه، وكثرة المياه، وتبحر العمران، وجودة اللباس، وشرف الآنية، وكثرة السلاح، وصحة الهواء، وابيضاض ألوان الإنسان، ونبل الأذهان، وقبول الصنائع، وشهامة الطبائع، ونفوذ الإدراك، وأحكام التمدن، والاعتمار بما حرمه الكثير من الأقطار مما سواها " وعلى أية حال فأسباب الحضارة، وقيام عوامل التمدن، وطغيان الحياة الرخية على الأندلس وأهلها عائد إلى المكان والبيئة اللذين ألهما شعراءها، وفتح قريحتهم وأطلق لسانهم.

وقد ازدهرت مظاهر الحضارة العمرانية في غرناطة أيام بني الأحمر ازدهاراً ملحوظاً، ولعل ذلك يعود إلى القوة الاقتصادية التي تمتعت بها الدولة، من خلال استثمارها لمواردها وصناعاتها وتطوير المعالم العمرانية فيها، وكانت امتدادا للنهضة العمرانية ذاتها، التي شهدتها العصور الأندلسية الخالية كما تبدى هذا الأمر في هذه الدراسة آنفا، وقد تمثلت هذه المظاهر بإنشاء القصور والحمامات والمدارس، والرياض والحدائق التي كانت تخلب الأنظار وتلهب القلوب والعقول.

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، ص ٤٠٢.
(٢) المقري، نفح الطيب، ج١، ص ١٢٦.

وسيتناول البحث في قادم الصفحات هذه المظاهر، وكيف راح الشعراء يتغنون بها، ويصفونها، ويعبرون عنها في موضوعاتهم الشعرية المختلفة التي نظموا شعرهم فيها، بحيث أصبح عندهم اندماج فريد من نوعه بين الفن المعماري والفن الشعري يشهد على حضارة كانت وما تزال مصدر إلهام للكثيرين، فالشعر في كل زمان ومكان هو صورة للمجتمع وآلة التصوير التي تعمل على تخليد الإنجازات على الصعد المختلفة، ومن هنا نجد أن الشعر في عصر بني الأحمر لم يتوان عن تأدية هذا الدور التاريخي في تخليد المظاهر الحضارية التي تمتع بها ذلك العصر، وقد وقف البحث على المظاهر الآتية:

أولاً: القصور:

كانت ظاهرة بناء القصور والتفاخر بها من العادات التي تميز بها سلاطين الأندلس، فنجد أن العصور الأندلسية المتعاقبة كانت زاخرة بالقصور التي تظهر الإبداعات الفنية والحضارية في شكلها وطريقة تصميمها وبنائها، وكذلك الحال فإن بني الأحمر ساروا على هذا النهج المعماري في دولتهم، فقد شيّدوا القصور الكثيرة التي تنوعت في أشكالها وطرائز العمران فيها، إلا أنها جميعا جمعت من حسن الصناعة وإتقان البناء وابداعاتهالكثير، فقد نجح سلاطين بني الأحمر في إحداث تأثير جمالي يصحب فن توزيع الخمائل من خلال مزج الطبيعة بالعمارة التي استحدثوها[١]، ومن هنا ظهر في ذلك العصر عدد من الشعراء الكبار الذين لم يتوانوا عن إظهار تلك المظاهر الحضارية العمرانية في أشعارهم، كما ظهرت في هذا العصر النقوش الشعرية [٢]، ولا بد من الإشارة هنا إلى أن النقوش الشعرية هذه عرفت في العصور السابقة لعصر بني الأحمر، إلا أنها في هذا العصر اتخذت أهمية أكبر كونها لم تعد مقتصرة على ذكر تاريخ البناء، واسم الخليفة الذي أمر بالبناء، وإنما أصبحت هذه النقوش تنظم خصيصا لتنقش على جدران تلك المباني [٣].

ومن هذه القصور، بل وأهمها قصر الحمراء الذي ما يزال حتى يومنا هذا تحفة فنية وآية دالة على العبقرية المعمارية، ففيه من الروعة والإبداع ما دفع عديد الشعراء إلى التغني بجماله والعبقرية المعمارية فيه، يقول ابن زمرك [٤]:

---

(١) انظر: سالم، العمارة الإسلامية في الأندلس وتطورها، ص ١٣٤.
(٢) انظر: شاك، أدولف فون (١٩٨٥)، الفن العربي في إسبانيا وصقلية، (ترجمة الطاهر أحمد مكي)، دار المعارف، القاهرة،ص ١٦٥.
(٣) انظر: الطرابلسي، حياة الشعر في نهاية الأندلس، ص ٤١٦.
(٤) انظر: ابن زمرك، ديوانه، ص ١٧١.

يا من يحنُّ إلى نجْدٍ وناديها	**غرناطة قد ثوت نجد بواديها**
قفْ بالسَّبيكة وانظر ما بساحتها	**عقيلة والكثيبُ الفرْد جاليها**
تقلّدت بوشاح النهر وابتسمتْ	**أزهارُها وهْي حَلْيٌ في تراقيها**
وللسبيكة تاج فوق مفْرِقِها	**تودُّ درّ الدراري لو تحاكيها**
فإن حمراءها والله يكلؤها	**ياقوته فوق ذاك التاج يعليها**
بروجها لبروج الأفق مخْجلة	**فشهْبها في جمالٍ لا تضاهيها**

فالشاعر يرى في قصر الحمراء وكأنه تاج على جبين غرناطة، في إشارة إلى الروعة التي تتبدى للناظر.

والحمراء مجموعة أبنية محاطة بأسوار طولها سبعمائة وأربعون مترا، وعرضها نحو مئتي متر، وهي ثلاثة أقسام: القصبة الجديدة أو القسم العسكري شمالي شرقي القصر، وهي عبارة عن قلعة تحرس الحمراء، ولها برجان عظيمان أحدهما يدعى برج الشمعة أو الحراسة الذي يسهر على رقاد المدينة، ثم القصر الملكي في الوسط، ثم الحمراء العليا المؤلفة من مجموعة بيوت متهدمة، ويشار إلى أن القسم الأخير هذا كان مخصصا للحرفيين والخدم الذين يؤمنون حاجيات القصر.

وقد اختلف المؤرخون حول اسم الحمراء فبعضهم أشار إلى أن الاسم جاء من اسم قلعة الحمراء القديمة التي بني عليها القصر، وقيل إن الاسم جاء من احمرار أبراجها الضاربة في عنان السماء، أو لون الآجر الذي بنيت منه الأسوار الخارجية، أو إلى لون تربتها الحمراء، وقد سميت لهذا السبب ب(تل السبيكة)[١] كما لاحظنا هذه التسمية في الأبيات السابقة، وقد عبر ابن مالك الغرناطي عن هذا المعنى فهو يأتي على التسمية ويربطها بلون التربة فيقول [٢]:

ترى الأرض منها فضة إذا اكتست	**بشمس الضحى عادت سبيكتها ذهبُ**

وسواء كان سبب التسمية علوّ الأبراج أو لون التربة أو النسبة لبني الأحمر فالارتباط بين هذا القصر و سلاطين ذلك العصر كان قوياً فعرفوا بالقصر وعُرف بهم.

---

(١) انظر: الطوخي، مظاهر الحضارة في الأندلس، ص ٦٢.
(٢) انظر، المقري، نفح الطيب، ج١، ص ١٦٥.

وكذلك يقول أبو جعفر القليوبي عند رحيله عن غرناطة، واصفا روعة المنظر الذي يظهر فيه قصر الحمراء متربعا على عرش غرناطة [١]:

ولمّا وقفنا للوداع وقدْ بدتْ ... قبابٌ بنجدٍ قلت علتْ ذلك الوادي

نظرتُ فألفيتُ السبيكة فضة ... لحسن بياض الزهر في ذلك النادي

فلمّا كستْها الشمسُ عاد لُجينها ... لها ذهبا فأعجِب لأكسيرها البادي

ويرجع تاريخ بناء قصر الحمراء إلى عصر السلطان محمد بن الأحمر الذي رفع البنـــاء وأحاطه بأسوار وأبراج، مقيما مراكز عسكرية، ومخازن للمؤن وقنوات للمياه التي كانت تجري بكثرة، ولم يقف العمران إلى هذا الحد فقد أكمل ابنه محمد الثاني العمل في البناء، ومن ثم جـــاء محمد الثالث الذي أضاف المسجد الملكي، وهكذا استمر قــصر الحمـــراء يخــضع للتعــديلات والتطويرات والتحسينات حتى جاء عصر يوسف الأول وابنه محمد الخامس اللذين عملا علـــى إكمال بناء القصر على النحو الذي وصلنا عليه [٢].

فابن الجياب _مثلا _ يتحدث عن الشهرة التي وصل إليها هذا الصرح المعماري، وكيف أنه كان مشهورا بالزينة والارتفاع، فيقول[٣]:

ما مثل هذا المصنع الأعلى نشا ... فحديثه في كلّ صقع قد فشا

لله من برجٍ إلى الأسْد انتمى ... سامٍ وحامٍ فاحذروا أن يبطشا

زيّنتْ به الحمرا حتى أنها ... تزهى بحسن حُلاهُ زهو من انتشى

ويصف ابن الخطيب بناء يبدو أنه أحد قصور الحمراء، فيقول[٤]:

ولا مثل شفاف الضياء بنيتَه ... على الطائر الميمون والطالع السّعْدِ

توشّح من زُهر النجوم قلادةً ... ومن فلَق الإصباح أصبح في بردِ

دحيت من الزّليج صفحة أرضه ... بلونين مبيضّ الأديم ومسوّدِ

كما رُقم الكافور بالمسك والتقتْ ... ذوائب من شعر أثيث على خدٍّ

---

(١) المصدر نفسه، ج٣، ص ٤٣١.
(٢) فرحات، غرناطة في ظل بني الأحمر، ص ١٩١.
(٣) ابن الجياب، ديوانه، ص ٢٥٢.
(٤) لسان الدين بن الخطيب، ديوان لسان الدين بن الخطيب، ص ٢٦٤.

فوصف البناء عند ابن الخطيب يبدو وكأنه موشح بالنجوم الزهر، وأرضه تتزين بـــالزليج الذي يتمازج فيه اللونان الأبيض والأسود، وكأنهما الكافور المزيّن بالمسك، أو كأنهمـــا ذوائـــب الشعر المتدلية على الخد.

وقد زينت جدران الحمراء وطيقانها وممراتها بنقوش شعرية من أروع مايقال في وصف محاسن هذا الصرح المعماري والافتخار بإنجازه وإنجازات سلاطين ذلك العصر، وقـــد أبـــدع الشعراء في هذه النقوش الشعرية، ويتحث ابن الجياب عن هـــذه النقـــوش ويـــصف روعتهـــا، فيقول(١):

حيطانها فيها رقوم أعجزتْ	**أمد البليغ فحسنها لا يوصفُ**
راقت وناظر كل شكل شكله	**في نسبة فموشح ومصنفُ**
مهما لحظتَ رأيتَ نقشا وشيتْ	**أنواعه فمذهّب ومزخرفُ**

ومن النقوش الشعرية التي تطالعنا على جدران الحمراء، ما قاله ابن الخطيب في المباني السلطانية (٢):

ليَ الله من عنوان ملك مجدّدٍ	**تروح هبات الله نحوي وتغتدي**
بناني أمير المؤمنين " محمد "	**سمي النبي الهاشمي "محمدِ"**
وقلّد جيد الملك مني قلادةً	**وكم زان حسن الجيد حسن المقلّدِ**
ونوّه في ربع الخلافة سعده	**فلا زال في سعد وعزّ مؤيدِ**

أما أكثر الشعراء الذين تميّزوا بأشعارهم النقشية على جنبات القصور وخاصة الحمـــراء، ابن زمرك الذي كانت أشعاره تصف البناء الذي نقشت عليه، متضمنة اسم السلطان الذي أمـــر بالبناء والدعاء له وبيان محامده، ومنها قوله (٣):

أنا الرّوض قد أصبحت بالحسن حاليا	**تأمل جمالي تستفدْ شرح حاليا**

(١) ابن الجياب، ديوانه، ص ١٠٧.
(٢) لسان الدين ابن الخطيب، ديوان لسان الدين بن الخطيب، ص ٣٦٣.
(٣) ابن زمرك، ديوانه، ص ١٢٥.

ومن أبياته التي تصف قصر المشور الأسنى بالحمراء، وتدعو الناظر إليه إلى أن يقــف أمامــه وقفة المتأمل في هذه العظمة التي تتبدى من محاسن البناء وتميزه، فيقول(١):

ولله مبناي الجميل فإنّه	**يفوق على حكم السّعود المبانيا**
فكمْ فيه للإبصار من متنزّه	**تجدْ به نفس الحليم الأمانيا**
ولم نرَ قصرا منه أعلى مظاهرا	**وأرفع آفاقا وأفسح ناديا**
به القبّة الغراء قل نظيرها	**ترى الحسن فيها مستكنّا وباديا**

ومن نقوش ابن زمرك ما تزيّن به بهو البركة، ومما قاله في جانبه الأيمن(٢):

أنا مجلاةُ عروسٍ	**ذات حسن وكمالِ**
فانظر الإبريق تعرف	**فضل صدقي في مقالي**
واعتبرْ تاجي تجدْه	**مشبها تاج الهلالِ**
وابن نصرْ شمس ملك	**في ضياء وجمالِ**
دام في رفعة شأن	**آمنا وقت الزوالِ**

أما على الجانب الأيسر، يقول(٣):

أنا محراب صلاة	**سمته سمتُ السعادهْ**
تحسب الإبريق فيه	**قائما يقضي عبادهْ**
كلما يفرغ منها	**وجبت فيه الإعادةْ**
وبمولاي ابن نصر	**شرّف الله عبادهْ**
قد نماه سيّد الخزرج	**سعدُ بن عبادهْ**

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٢٥.
(٢) المصدر نفسه، ص ١٥٥.
(٣) ابن زمرك، ديوانه، ص ١٥٦.

وقد عمل الشعراء على مزج الأغراض الشعرية بعضها بعضا من خلال مدح السلطان والتغني بإنجازاته من خلال وصف الإنجازات التي سطرها الممدوح في تمازج رائع لذكر المظاهر الحضارية التي أحدثها الممدوح، متمثلة في تشييد القصور التي توحدت مع مظاهر الطبيعية التي صورها الشاعر، وكأنها من صنع السلطان، وفي هذا يقول ابن زمرك [١]:

خلّد الله ذا المكان السعيدا	**يتقضّى الزمان عيدا فعيدا**
كلّما مرّ للمسرّة يومٌ	**في حماهُ يعودُ غضّا جديدا**
أنا قوس السّماء لكن سهامي	**بسعودِ الإمام ترمي الحسودا**
فابن نصْر محمّد خير مولى	**مدّ للأنس في ظلّ مديدا**
زان ربْعي بكلّ صنع بديع	**زيّن الله من علاهُ الوجودا**

والجدير بالذكر أن شعر ابن زمرك كان يسطّر جنبات القصر، ويضفي عليه قيمة جمالية فنية، فتبدو جنباته وكأنها لوحة فنية مزخرفة تُسرّ الناظر، وذلك يعود إلى قرب ابن زمرك من السلاطين ومن حياة القصر، ولهذا نجد أن ابن زمرك راح يصف لنا جنبات القصر وأروقته، حيث كان يتنقل بين أفنان هذه القصور وأعمدتها، كما أن شعره النقشي راح يضفي جوّا من الأمان والألفة على القصر[٢]، فهو بمثابة زخارف زينت جنبات هذا القصر وغيره، وتعد هذه الزخارف التي كانت تكسو الجدران من أسفلها حتى أعلاها من المظاهر العمرانية التي امتاز بها نظام البناء في هذا العصر، بحيث تصبح هذه الجدران وكأنها أبسطة منقوشة[٣].

ولا بد من الإشارة إلى أن ديوان ابن زمرك يعد من أكثر الدواوين الشعرية الأندلسية التي تزخر بالشعر المنقوش على جدران الأبنية التي بنيت في تلك الفترة وكأنها وثيقة تاريخية شاهدة على أهم الإنجازات العمرانية [٤].

وقد ذهب الشعراء في وصف القصور وعمارتها وإظهار الإبداعات في إنشائها من خلال مزج هذا النوع من الشعر بشعر المدح، فالشاعر يتغنى بإنجازات الممدوح على كل المستويات سواء أكانت عسكرية أم اقتصادية أم على صعيد الشأن الداخلي المتمثّل في التوسع في العمارة

---

(١) المصدر نفسه، ص ٣٠٨.

(٢) انظر: العزايزة،سعد (٢٠٠٥)، شعر النقوش عند ابن زمرك الأندلسي، مجلة الجامعة الإسلامية، (سلسلة الدراسات الإنسانية) المجلد الثالث عشر، (العدد الثاني)، ص ٨٢.

(٣) انظر: سالم، العمارة الاسلامية في الأندلس وتطورها، ص ١٠٣.

(٤) انظر، ابن زمرك، ديوانه، ص ١٥٢، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧.

والبنيان ومزج الطبيعة بهذا كلّه، فابن زمرك مثلا يقدم هذه الأبيات لممدوحه مادحا إياه، مباركا له بالمغاني التي حباه الله إياها لتزدان بها قصوره فيقول[1]:

تبارك من أعطى الإمام محمدا　　　معاني زانت بالجمال المغانيا

وإلا فهذا الروضُ فيه بدائعٌ　　　أبى الله أن يُلفى له الحسن ثانيا

ومنحوتة من لؤلؤ شفّ نورها　　　تحلّي بمرفضّ الجمان النواحيا

بذوْب لجين سال بين جواهر　　　غدا مثلها في الحسن أبيض صافيا

ألم تر أن الماء يجري بصفحها　　　ولكنها سدّت عليه المجاريا

كمثل محبّ فاض بالدمع جفنُه　　　وغيّض ذاك الدمع إذ خاف واشيا

وهل هِي في التّحقيق غير غمامة　　　تفيض إلى الآساد منها السّواقيا

وقد أشبهت كفّ الخليفة إذا غدت　　　تفيض إلى أسد الجهاد الأياديا

ويا من رأى الأساد وهي روابض　　　عداها الحيا عن أن تكون عواديا

فهو يصور لنا كيف أن هذا القصر الذي أنشأه السلطانازدان بمظاهر الروعة والجمال من الرياض والغمام، ويصور هذا الفن المعماري فيعلي من شان هذا الطراز بتصوير حركة المياه التي تخرج من أفواه تماثيل الأسود على مدخل القصر في إشارة لإبداع هذا الفن وتقدمه عندهم، يصورها وكأنها تشير إلى قوة السلطان في معاركه الجهادية وكيف أن تجدد مرور الماء من فم الأسد تجدد لهذه الجولات الجهادية التي يقودها الممدوح.

ولابن زمرك نفسه شعرا نقشيا يؤكد فيه عظمة قصور بني الأحمر وكيف أنهم فاقوا مـــن سبقهم في الحضارة العمرانية، فيقول [2]:

ماذا عسى التشبيهُ والتمثيلُ　　　والله مالي في الوجود مثيلُ

فلقد رُفِقت بدار خلْدٍ زخرفتْ　　　يرتدّ منها الطّرف وهو كليلُ

قصر تقاصرت المدارك دونهُ　　　فيحار فيه الوهم والتعليلُ

هيهات ما كسرى وما إيوانهُ　　　لا يستوي التوحيد والتضليلُ

قدَر المعالمَ قدر من قد شادها　　　فإذا لي التقديم والتفصيلُ

متقابل الأوضاع مرقوم الحُلى　　　فيروقك الإجمال والتفصيلُ

فانظر بأندلس بيوت قصورها　　　ولأهلها الإتقانُ والتحصيلُ

(١) المصدر نفسه، ص ١٢٩_١٣٠.

(٢) ابن زمرك، ديوانه، ص ٣٠٦.

فهذه الأبيات تمثّل واقعا حضاريا عاشه الناس في عصر بني الأحمر، واقعا ينم عن الترف والنعمة التي قادتهم إلى مثل هذا النوع من الفن المعماري رفيع الطراز فقد " شادوا القصور، ونحتوا تماثيل جوارح الطير والحيوان، وصنعوا نماذج من الأشجار على غرار أشجار الطبيعة، وقد حباها الصنّاع بالزخرفة والزركشة" [١].

ومن الأماكن المشهورة التي يأتي الشعراء على ذكرها جنة العريف، فابن فركون يصف لنا ارتفاع المباني في قصر جنة العريف فيقول [٢]:

إنما جنة العريف عروس	**وأنا تاجها الرفيع المحلاّ**
يوسف مبدعي فرائق وصفي	**بحلى العز والكمال تحلّى**

فهو يقدم هذا القصر الذي يقع على ربوة عالية بالقرب من قصر الحمراء وكأنه تاج على هذه الربوة [٣]، وفي ابيات أخر يصف الطاقة الصغرى وهي تباهي بحسنها وجمالها التي ضاهت بها في العلو والحسن جمال وروعة النجوم فيقول [٤]:

وقضى لي إبداعه أنّ وصفي	**قصرت عن مدى حلاه القصورُ**
أجهاتي ودرّ مدحي فيها	**أم نحور قد حلبت وخصورُ**
حيث باهت غرّ النجوم خلالي	**وعليها حسن الحلى مقصور**

ويعد قصر جنة العريف هذا بمثابة الحديقة التي كان سلاطين بني نصر يتنزهونفيها، فمنه كانوا يطلون على المدينة وعلى قصر الحمراء نفسه، وهو قصر يجسد مظاهر الفن المعماري في ذلك العصر، وهو مظهر حضاري بارز في تاريخ الدولة النصرية، وفيه يقول ابن زمرك[٥]:

يا ساكني جنّة العريف	**أسكنتُمُ جنّة الخلودِ**
كم تمَّ من منظر شريف	**قد حفّ باليُمن والسّعودِ**
وربّ طوْدٍ به منيف	**أدراجُهُ الخضْرُ كالبنودِ**

(١) انظر: عفيفي، محمد الصادق (١٩٧٨)، النقد التطبيقي والموازنات، مؤسسة الخانجي، القاهرة، ص ٢٨٢.
(٢) ابن فركون، ديوانه، ص ٢٤٧ _ ٢٧٥.
(٣) انظر: الطوخي، مظاهر الحضارة في الأندلس، ص ٦٣.
(٤) ابن فركون، ديوانه، ص ٢٧٥.
(٥) انظر: المقري، نفح الطيب، ج٧، ص ٢٤٦.

ومن القصور التي وقف عليها شعراء الدولة النصرية قصر شَنِّيل الذي كان يعرف أيضا بقصر السيد، ويُذكر أن هذا القصر كان يستخدم للضيافة [١]، وفيه يقول ابن زمرك[٢]:

يا قصرْ شِنِّيل وربعك آهلٌ	**والروض منك على الجمال قد اقتصرْ**
للّه بحرك والصّبا قد سرّدت	**منهُ دروعا تحت أعلام الشّجرْ**

ويقول في موضع آخر[٣]:

لله قصرٌ قد غدا لك هالةً	**بدر السّماح بها تهلل واستتمْ**
للنّيل في شنيل ألف زائدٌ	**قد خطه في صفح كاتبه القلمْ** [٤]

فهو يذكر هذا القصر ويشير إلى أنه أخذ اسمه من نهر (شنّيل) المعروف ويفضله على نهر النيل.

ومن القصور التي وقف الشعراء على وصفها قصر المنكب الذي بناه السلطان يوسف الثالث الذي كان قد عرف باهتمامه بشؤون البناء والعمران، فراح ابن فركون يلازمه مسجلا إنجازاته ورحلاته ومبانيه العظيمة، ومن ذلك ما قاله في وصف قصر المنكب[٥]:

وحللت فوق البحر أمنع معقلٍ	**حيث الكواكب ترتقي أو ترتمي**
قد قابل الكفَّ الخضيب كأنه	**أبدا يشير لها بكفّ مسلمِ**
وأقمت بالقصر الذي بنجوده	**يلفي الأمان لمنجدٍ أو متهمِ**

فالشاعر يرى أن هذا القصر ليس مجرد قصر وإنما هو قلعة منيعة، ومن شدة علوّه بات يصافح النجوم ويشير إليها فغدا كأنه مصدر للأمان والاطمئنان لكل من يقصده.

ومن المظاهر الحضارية العمرانية التي راح الشعراء يقفون عندها ويصفونها في أشعارهم القباب التي كانت تزين تلك المباني التي لطالما كانت رمزا من رموز الازدهار الحضاري

(١) انظر: الطوخي، مظاهر الحضارة في الأندلس، ص ٦٤.
(٢) ابن زمرك، ديوانه، ص ٤٤.
(٣) المصدر نفسه، ص ٤٦.
(٤) يقصد حرف الشين من شنيل، فهو في حروف الجمّل بألف، أي أن شنيل يساوي ألفا من نهر النيل، انظر: ابن زمرك، ديوانه،ص٤٦
(٥) ابن فركون، ديوانه، ص ٣٣٠.

والتطور المعماري في ذلك العصر، فابن فركون مثلا يصف قبتين قام يوسف الثالث بتجديدها فيقول[١]:

أنا قبة للصنع إذ	**أنا للصنيعة موضعُ**
قابلت مثلي فانثنت	**في نيل وصفي تطمعُ**
وترى البحيرة بيننا	**مرآة هند تلمعُ ..**
والخصة العليا بها	**كأس بكف يرفعُ**
والماء في جنباتها	**متدفق متدفعُ**

وممّن وصفوا القباب بوصفها مظهراً حضارياً عند بني الأحمر ابن الجياب الذي وصف القبة التي تعلو دار السلطان في إطار من المدح، فهو يصف القبة ومن أنشأها في إشارة إلى القدرة التي يتمتع بها الممدوح والدور الذي يؤديه في المحافظة على تطور مملكته وتقدمها وازدهارها بهذا البنيان الدالّ على ذلك، فيقول[٢]:

ولاحت القبة الغراء خارجها	**عنوان حسن مبينا أي تبيين**
في صدرها الملك السامي المقيم بها	**للفضل والعدل قسطاس الموازين**

ويأتي ابن الجياب على ذكر القبة ذات النوافذ الزجاجية التي أنشأها السلطان محمد الثالث، فتبدو كالعروس التي تزينت بشتى الألوان، فيقول[٣]:

يا قصر نجدٍ أنت أكرم منزلا	**فلقد شفعت الحسنَ بالإحسانِ**
فكأن قبّتك العروس تبرّجت	**عند الزّفاف بحسنها الفتانِ**
والشمس ترقم من وراء زجاجها	**أثواب وشيٍ جمّة الألوانِ**

(١) ابن فركون، ديوانه، ص٢٧٦. مرآة الهند: هي مايعرف في لساننا الدارج بمراية الهند.
(٢) انظر: الهرامة، القصيدة الأندلسية في القرن الثامن الهجري، الظواهر والقضايا والأبنية، ج١، ص ٢١٧.
(٣) ابن الجياب، ديوانه، ص ٢٤٩.

ويتبدى التفنن في صنع القباب وزخرفتها، وتعدد الألوان فيها من خلال انعكـــاس ضـــوء الشمس على زجاجها فيظهر هذا المنظر العجيب الذي يصوره لنا ابن الجياب قائلاً[١]:

ولاحت القبّة الغرّاء خارجها   عنوان حسن مبينا أي تبيينِ

في صدرها الملك السامي المقيم بها   للفضل والعدل قسطاس الموازينِ

وقد كان لابن الخطيب أبيات نُقشت في قبّة مطلة على المجلس في الـــدار الكبـــرى مـــن الحمراء ومنها[٢]:

أأبصرتَ مني في المصانع قبّةً   تأنق فيّ السعدِ من كل جانبِ

فتتلى سطور الكتْب فوقي دائما   وتُعرض من تحتي سطور الكتائبِ

وفي ساحتي مسعى لطالب رحمة   ومأمن مرتاع وموقف تائبِ

فقُلْ فيّ إني للمؤمل كعبةٌ   وإن كنت قد أبرزتُ في زيّ كاعبِ

أنا الغادة الحسناء يغني جمالها   عن الدرّ من فوق الطّلى والترائبِ

كما جاء ابن زمرك على ذكر القباب في معرض حيثه عن مناقب ممدوحـــه فـــي إطـــار تتمازج فيه معاني المدح والتصوير والوصف في قالب فني رائع الجمال تتـــداخل فيـــه القـــدرة العمرانية مع القدرة الشعرية، فيقول [٣]:

تطلع من نجد بمرقب قصره   فيا حبذا نجد ويا حبذا القصرُ

بحيث القباب الزهر تستشرف العلى   اليها وتهوى ان تحل بها الزهرُ

بحيث الوجوه الغر جللها الحيا   زهاها الكلام الحر والنسب الحرُ

بحيث الرياض الخضر قد جللها الحيا   ونافس في طيب الثناء بها الزهرُ

بحيث استمر النهر في غلوائه   يجرر اذيال الغصون ولاكبرُ

بحيث الجياد المقربات صوافن   بحيث السيوف البيض والاسل السمرُ

بحيث يموج البحرتحت ظلالها   ولكن ذا عذب اذ يملح البحرُ

بحيث امير المسلمين محمد   وحسبك فخر لايقاس به فخرُ

---

(١) ابن الجياب، ديوانه، ص ٢٥٢.

(٢) لسان الدين بن الخطيب، ديوان لسان الدين بن الخطيب، ص ٢٦٢.

(٣) ابن زمرك، ديوانه، ص ١١٦.

إنه- كما نرى- لم يترك صغيرة ولاكبيرة في الوصف الا وسخرها لتكون في هذا القصر، ومن ثم انتهى الى المدح وعدّ هذا القصر فخرا لمنشئه وبانيه، لان هذا القصر منيف شاهق الارتفاع، واصل عنان السماء وطاولته أيدي الغمام. فكان فخرا على المباني.

كما يذكر ابن زمرك قباب المشور الأسنى غير مرة في شعره، ومنه قوله [١]:

واهنأ بمبناك السعيد فإنه	**كهفٌ ليوم مشورةٍ وعطاء**
لله منه هالة قد أصبحتْ	**حرم العفاة ومصرع الأعداء**
لله منه قبّةٌ مرفوعةٌ	**دون السماء تفوت لحظ الرائي**
راقت بدائع وشيها فكأنها	**وشي الربيع بمسقط الأنداء**

ومن الشعراء الذين أتوا على ذكر قبة المشور هذه، الشاعر ابن فركون الذي يصف هذه القبة مبينا جمالها، فيشبه سرير الملك فيها بهالة النور التي تستمد أشعتها من نور السلطان، فيقول[٢]:

وأحللتني من حضرة الملك منزلاً	**به راق للدنيا وللدين مظهرُ**
لدى قبّة غرّاء عزّ مكانها	**بملكك منها راق خُبْرٌ و مخْبرُ**
يلوح سرير الملك فيها كهالةٍ	**بها منك فياض الأشعة نيّر**

أما عن المباني الأخرى، مثل؛ القلاع والمنارات والفنارات[٣] فسارت جنبا إلى جنب مع القصور والمنازل ودار الملك في تبيان معالم الحضارة، ومراكز العمارة، فقلعة بني سعيد[٤] ماتنفك توحي بسحر ومنظر قشيب توحي لابي جعفر أن يضعها في بوتقة إبداعه، ويقول فيها شعراً معبراً فيه عن انبهاره بها وإعجابه، يقول [٥]:

---

(١) ابن زمرك، ديوانه، ص ٣٦٥.
(٢) ابن فركون، ديوانه، ص ٣٤٩.
(٣) للمزيد عن هذه المباني انظر: الحميري، الروض المعطار، ص١٢١. الحبازي، ابن الجياب – حياته وشعره، ص٤٤٥. لسان الدين بن الخطيب، ديوان لسان الدين بن الخطيب، ص٣٥١.
(٤) قلعة بني سعيد: عقاب الأندلس الأخذ بأزرار السماء، من غرر المجد والبناء، وهي رباط جهاد، وحصن أعيان وأمجاد. انظر: ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، ١٦٠/٢.
(٥) المصدر نفسه، ص ١٣٤

إلى القلعة الغراء يهفو بي الجوى — **كأن فؤادي طائر زم عن ذِكْرِ**
هي الدار لا أرض سواها وان تأب — **وحجبها عني صروف من الدهرِ**
أليست بأعلى ما رأيت منضة — **تجلت بحلي كالعروس على الخدرِ**
لها البدر تاج والثريا شنوفها — **وما وشمها إلا من الأنجم الزهرِ**
أطلّت على الفحص النَّضيرِ فكلُ من — **رأى وَجْهَةً منها تسلى عن الفِكْرِ**

هذا وقد وقف شعراء هذا العصر على وصف الأبراج التي كانت تمثل مراكز الدفاع عن المدن الكبرى، فقد ساد استخدام الأبراج المربعة في التحصينات المعمارية حول المدن الأندلسية، مثل؛ قرطبة وإشبيلية وقلعة جابر ومالقة والمرية وغرناطة وغيرها، ويتألف البرج عادة من نصفين: نصف أدنى مصمت، ونصف علوي تشغله غرفة وينفتح سطحه مع سور الممشى وتعلو جدرانه العليا شرفات، وقد تشغله غرفتان إحداهما فوق الأخرى تكون عادة للحامية.

وقد عُرف عن جدران البرج أنها كانت تزود بالمنافذ التي كانت تستخدم للسّهام،بينما كانت الغرفة مغطاة بقبوات نصف كروية(١)، وتذكر المؤلفات في هذا الشأن أن بني الأحمر أخذوا بناء الأبراج عمّن سبقهم إلا أنهم طوّروه وتوسّعوا في إنشائها، فأقاموا أبراج المراقبة التي كانوا من خلالها يعمدون إلى مراقبة أعدائهم فظهرت عندهم على ارتفاعات شاهقة تكاد تصل عنان السماء، وظهر عندهم أبراج مستديرة وأخرى مربعة الشكل لتعزيز الاستحكامات الدفاعية (٢)، وقد جاء ذكر هذه الأبراج في سياق المدح، فالشاعر الأندلسي كان يأتي على ذكر مناقب الممدوح والأعمال التي كان يقوم بها ليبقي بلاده في مأمن من أي هجوم محتمل من الأعادي، فابن الجياب مثلا يصف برجا أنشأه يوسف الأول أبو الحجاج مفتخرا بهذا العمل المتقن الصنع، فيقول(٣):

برجٌ عظيمُ الشأنِ في الأبراج — **قد باهت الحمراء منه بتاج**
قلهرة ظهرت لنا واستنبطت — **قصرا يضئ بنوره الوهاج**
فيها بدائع صنعة قد نوظرت — **نسبا من الأفراد والأزواج**
وصنائع الزليج في حيطانها — **والأرض مثل بدائع الديباج**

---

(١) انظر: سالم، العمارة الإسلامية في الأندلس وتطورها، ص ١٢٩-١٣٠.
(٢) انظر: الطوخي، مظاهر الحضارة في الأندلس، ص ٢١٩.
(٣) ابن الجياب، ديوانه، ص ٢٨٣.

كما عرفت غرناطة بأبراجها المدنية خاصة تلك التي تدعم أسوار قصبة الحمراء بغرناطة، ومنها برج السيدات وبرج الأسيرة، وبرج الأسنة وبرج مخدع الملكة وبرج قمارش وبرج الأمراء، واللافت في هذه الأبراج أنها كانت تؤدي وظيفيتين حربية ومدنية في آن واحد، وهذا ما يفسر أنها كانت تخلو من الزخارف من الخارج لأن الهف منها ليست تجميل الصورة بقدر ما هو الدفاع عن أهل المدن، بينما يبهر الناظر لها من الداخل حيث يرى الزخارف والتوريقات وتنفتح في جدرانها القمريات والمناظر.

وقد ذهب الشعراء إلى التغنّي ببعض هذه الأبراج التي كانت تعدّ معلما حضاريا كان يمثّل عندهم قوة الدولة وهيمنتها، ومن ذلك قول ابن فركون يصف أبراج مباني الحمراء (١):

و حضرةُ الملك وحمراؤه حكتْ بروجُ الأفق أبراجها

لئن علتْ في أفقها مصنعي إكليلها الرائق أو تاجها

أو قد سمتْ شهبُ سمائي التي من فوق باب القصر معراجها

ومنها قول ابن الجياب الذي يبدو وكأنه كان حريصا على ذكر كل ما يستجد منبناء، فيذكر البرج والقلهرة، فيقول(٢):

قد زيّن الحمراء برجٌ مشرف في الجو دبره الإمام الأشرف

قلْهرّة في ضمنها قصرٌ فقلْ هي معقل أو للبشائر مأنف

وتبدو آثار العمارة المسيحية في بعض أبراج غرناطة واضحة خاصة في برج الشرفات أو الأسنّة الذي سمّي بهذا الاسم نسبة إلى شرفاته المدببة وميازيبه البارزة على أحد جوانبه، ويبدو أن بعض الأسرى المسيحيين في غرناطة ساهموا ببناء هذا البرج(٣).

---

(١) ابن فركون، ديوانه، ص ٢٧٣.

(٢) ابن الجياب، ديوانه، ص ١٣٨.

(٣) انظر: سالم، العمارة الإسلامية في الأندلس وتطورها، ص ١٥٠.

وقد ذهب بعض الشعراء إلى ذكر الطاقات التي وجدت في القصور، فابن الخطيب يصف الطاقة الكبرى التي تشرف على الصهريج في قصر الحمراء، فقال مقطوعة لتكتب على جدرانها(١):

أقابل الصهريج لكنّه	**من كفه قد استمدّ الجدا**
وحولي النهر ولكنّه	**لولا نداه لم يطبْ موردا**
ودوني الروضُ ولكنّه	**لولا شذاه لم يجد منجدا**

وقد وُجد نوع من الأشعار المنقوشة التي طيقان القصور، ومنها ما نظمه ابن الجياب وكان منقوشا على الطاق الأيمن للمجلس في القصر، وذلك قوله(٢):

يا قاصدَ المجلس الرفيعْ	**انظر إلى حسني البديعْ**
واعلم بأني خديمُ مولى	**أنالني أكرمَ الصنيعْ**

فيظهر التشخيص عند ابن الجياب الذي استنطق هذا الطاق وجعله يخاطب الحاضرين متباهيا بجمال منظره وحسن صنيعه، وعلى الأسلوب نفسه يرد على الطاق الأيسر للمجلس أبيات أخرى نظمها ابن الجياب، قائلاً (٣):

يا قاصد المجلس الكريمْ	**انظر إلى حسني العظيمْ**
اخدمُ دار الإمام حسبي	**من شرف باهر صميمْ**
أقامني عن يساره	**في مرتبة الناصح الخديمْ**

ومن نقوش ابن الخطيب في الطيقان المائية قوله (٤):

رقمتْ أناملُ صانعي ديباجي	**من بعد ما نظمتْ جواهرَ تاجي**
وحكيتُ كرسي العروس وزدتُه	**أني ضمنتُ سعادة الأزواجِ**
من جاءني يشكو من الظماء فموردي	**صرف الزّلال العذب دون مزاجِ**
فكأنني قوس المساء إذا بدت	**والشمس مولانا " أبو الحجاجِ"**

---

(١) لسان الدين بن الخطيب، ديوان لسان الدين بن الخطيب، ص ٢٤٧.
(٢) ابن الجياب، ديوانه، ص ١٢٧- ١٢٨.
(٣) ابن الجياب، ديوانه،، ص ٢١٥.
(٤) ابن الخطيب، ديوان لسان الدين بن الخطيب، ١٨٣.

كما يظهر لنا في وصف طاق آخر في أبيات لابن الخطيب كيف أنه يبعث الحياة والحركة في هذه البناء، فيبدو الشاعر وكأنه يعقد مقارنة بين الطاق السابق وهذا الطاق، فيقول(١):

فقتُ الحسان بحلتي وبتاجي — فهوتْ إليّ الشهْبُ في الأبراجِ

يبدو إناءُ الماء فيّ كعابد — في قبلة المحراب قام يناجي

ضمنت على مر الزمان مكارمي — ريّ الأوام وحاجة المحتاجِ

فكأنني استقريت آثار الندى — من كف مولانا أبي الحجاجِ

كذلك يذكر ابن فركون أنّ شعره الذي كان يأتي على ذكر هذه الطيقان كان بأمر من السلطان، يقول: " وأمرني كذلك أعلى الله مقامه بمنظوم يكتب بطيقان الطبقة العليا من هذا المبنى في الخامس عشر لشعبان عام خمسة عشر المذكور فحذوت حذو الأمر الكريم في ذلك غرضا وعروضا وقافية وعدد أبيات في الطاقة الكبرى منه " (٢)، ومن هذه الأشعار التي كان يتحدث عنها ابن فركون قوله (٣):

أحرزتُ من كل وصفٍ رائق حسنٍ — ما لم يُنلْ مثله في سالف الزمنِ

إن حل من مظهري مولاي أفق عُلاً — فأين صنعاء أو سيف بن ذي يزنِ

هذا هو المصنع الأعلى فحلّ به — طوع السعود ودع غمدان لليمنِ

ثانيا: الحمامات:

تعد الحمامات من المحاسن التي اشتهرت بها المدن الأندلسية، فالأدباء والرحالة لم يغفلوا الإشارة إلى ماشاهدوه في المدن الأندلسية من آثار عمرانية ومنها الحمامات واهتمام أهل الأندلس بالنظافة، فقد عرف عن الأندلسيين أهتمامهم الشديد بالنظافة وفي ذلك يقول المقري (٤): "وأهل الأندلس أشدُّ خلق الله اعتناءً بنظافة ما يلبسون وما يفرشون، وغير ذلك ممّا يتعلّق بهم، وفيهم من لا يكون عنده إلاّ ما يقوته يومَه، فيطويه صائماً ويبتاع صابوناً يغسل به ثيابه، ولا يظهر فيها ساعةً على حالة تنبو العين عنها".

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٩٧. الأوام: العطاش.
(٢) ابن فركون، ديوانه، ص ٢٧٢.
(٣) المصدر نفسه، ص ٢٧٢.
(٤) انظر: المقري، نفح الطيب، ج١، ص ٢٠٨.

وغالبا ما كانت هذه الحمامات تشيّد بالقرب من المساجد للتسهيل على المسلمين الساعين إلى الصلاة للتطهر قبل دخول المسجد، وقد بقي في اسبانيا عدد من الحمامات الإسلامية في عدد من المدن كإشبيلية و ميورقة وغرناطة وقرطبة وسرقسطة وغيرها، وحسبنا أن بقاءها ما هو إلا دليل على حسن بنائها وصلابته وفخامته وجودته [١].

ومن هنا نجد أنّ الحمامات قد انتشرت بنوعيها الخاص والعام في البلاد، وزوّد ألأمراء وأبناء الطبقة الارستقراطية مساكنهم الفاخرة وقصورهم بالحمامات الخاصة، وكذلك الحال كان للطبقة العاملة الفقيرة حماماتها العامة، مثال ذلك الحمام الذي أنشأه السلطان محمد الثالث وأوقفه على مسجد الحمراء [٢]، إلا أن هذا الحمام قد تهدّم ولم يبق منه إلا هياكل قليلة تشهد على وجوده[٣].

وقد عرفت عندهم حمامات للرجال وأخرى للنساء، وقد لقيت هذه الحمامات العناية الفائقة اللازمة لها ولمن يرتادها سواء في اختيار المكان اللائق لها أو في اختيار المواد البنائية المناسبة، أو في اختيار وسائل التسخين المختلفة لمياهها التي لقيت بدورها عناية من نوع آخر [٤].

وقد كانت الحمامات سواء الخاصة أم العامة تلقى من العناية والرعاية الكثير من حيث صيانتها والاهتمام بنظافتها ومراعاة راحة المستحمين إلا أنّ الآثار المتبقية منها لغاية يومنا هذا لا تقدّم لنا إلا فكرة محدودة عن هذا المظهر الحضاري الذي انتشر وبكثرة أيام بني الأحمر[٥].

وقد أبدى الرحالة المصري عبد الباسط إعجابه بالحامة [٦] التي يذكر أنها كانت تدر على أصحابها أرباحا وفيرة سواء حمامات الرجال أو النساء، كما توصف هذه الحامة بأنها: " يدخل الداخل إليها للاغتسال من غير أجرة، وكان المرضى يقصدون إليها من كل فج، فيلزمون المقام بها إلى أن تستقر عللهم ويشفوا من أمراضهم " [٧].

---

(١) انظر: الدوسري، الحياة الاجتماعية في غرناطة في عصر بني الأحمر، ص ١١٠.

(٢) انظر: لسان الدين بن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٥٠.

(٣) انظر: إبراهيم، عبد الرحمن زكي (١٩٧١)، غرناطة وآثارها الفاتنة، المكتبة الثقافية، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، ص ٣٦.

(٤) انظر: الخلادي، عبد القادر (١٩٦٥)، لمحة تاريخية وأدبية عن الحمامات في المجتمع الأندلسي، مجلة دعوة الحق، العدد (٩-١٠)، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية، المغرب، ص ١٢٢.

(٥) انظر: فرحات، غرناطة في ظل بني الأحمر، ص ١١١.

(٦) الحامة أو الحمّة في اللغة كل عين ينبع منها ماء حار تشفى به العلل، والمقصود بالحامة هنا حامة مالقة على الطريق بين مالقة وغرناطة، انظر: مؤلف مجهول، نبذة العصر في انقضاء دولة بني نصر، ص ٦.

(٧) الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ص ٢٠٠-٢٠١.

وقد عرف في غرناطة ومدنها وقراها الكثير من الحامات [١] كحمام أبـي العـاص[٢]، وحمام باب الفخارين[٣]، ويعد الحمام السلطاني من أروع الحمامات العربية، فهو تحفة فنية تكمل روائع فن قصر الحمراء الذي ورد في وصفه: " أنه من أجمل الحمامات التي يمكن تـصورها، وأن السلطان بعد أن يخرج من الحمام الساخن، كان يجلس في استراحة رائعة، وكـان الحمـام نفسه تحفة، ماء ساخن وماء بارد، وهناك ماسورة تبعث عطر المسك، وهناك حـوض (بـانيو) صغير و (بانيو) كبير "[٤]، هذا إلى جانب من يقومون على خدمة المستحمين مـن الحجـامين والحكاكين والمدلكين وغيرهم.

وقد صور الشاعر ابن ليون الأغراض الحضارية للحمامات بقوله [٥]:

وللحمّام حاءاتٌ إذا ما	**ظفرت بها عثرت على النّعيمِ**
فحنّاء وحكّاك مُجيد	**وقلْ حجرٌ يمرُّ على الأديمِ**
وحوضٌ مفعمٌ ماء لذيذا	**وحجامٌ على النهجِ القويمِ**
وللحلق الحديدة حين تنمى	**وأطيبها حديث أخٍ كريمِ**

فهذا النص الشعري يبين تلك الخدمات التي كان يقدمها الحمام في ذلك العصر في دلالـة على وجوه النعمة والرفاه في الحمامات العامة التي كانت فيما يبدو معدة لأغـراض التـزيين، واسترخاء العضلات، وتظهر مع ذلك بعض المهن والوظائف التي كانت متـوافرة فـي هـذه الحمامات، فالمدلك كان يقوم بالتدليك لفتح المسام، والحجام يقـوم بتنظيـف الجـسم وبخاصـة الأرجل، ولإزالة الدماء الفاسدة وبجانب الحلاق الذي كان يستخدم الموسى الحادة لزينة الحلاقة، كما أن هذا النص يظهر للباحث أهمية هذه الحمامات في كونها ملتقى لتبادل الأحاديث الطيبة[٦].

ويلحظ أن الحمامات العامة كانت متشابهة الشكل، فقد كانت تتألف من ممرّ يـؤدي إلـى غرفة كبيرة في داخلها مجموعة من الخزانات الخشبية المصفوفة بجانب بعضها تعلّـق الثيـاب فيها، ومن هذ الغرفة ينتقل المستحم إلى غرفة المياه الفاترة التي تحوي بدورها مقعـدا حجريـا كبيرا يجلس عليه مجموعة أشخاص، وفيها يقوم عامل بعملية الغسل للمستحم بالماء والصابون،

---

(١)الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ص ٢٠٠- ٢٠١.
(٢) لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ٤٨٦.
(٣) لوثينا، وثائق عربية غرناطية من القرن التاسع الهجري، ص ١٣٠- ١٣١.
(٤) مؤنس، حسين (١٩٨٥)، رحلة الأندلس: حديث الفردوس الموعود، ط٢، الدار السعودية، جدة، ص ١٨٩.
(٥) المقري، نفح الطيب، ج٨، ص ٩٩.
(٦) النوش، التصوير الفني للحياة الاجتماعية في الشعر الأندلسي، ص ٢١٤.

وبجانب هذه الغرفة مضجع مكون من الخشب يدخله من أراد التدليك، ثم ينتقل المستحم إلى غرفة المياه الساخنة التي تؤخذ من بركة وسط الغرفة فيُصب الماء الساخن عليه من خلال أوعية خشبية، وفي جوار هذه الغرفة مكان ينتظر المزينون زبائنهم، وبعد أن ينتهي المستحم من عملية الاستحمام فقد كان يسلك ممرا جنبيا يفضي إلى حيث ترك ثيابه، ويروى أن هذه الحمامات لم يكن لها نوافذ وأنما كانت تضاء من خلال طاقات في السقف تسمح بمرور الضوء من خلالها (١).

وقد نقشت الأشعار على جدران هذه الحمامات ومرافقها المختلفة، ومنها ما وُجد منقوشا من أشعار لشاعر الحمراء ابن زمرك في القاعة الساخنة حيث يقول(٢):

أعجب شيء حادث أو قديم	**مرابض الأسْد ببيت النعيمِ**
من أسد قابله مثله	**قاما لدى المولى مقام الخديمِ**
تقاسما وصفا علاه فمن	**بأس له جامَ وجود عميمِ**
يفيض ذا عذبا برودا وذا	**ضدّ له فهو يفيض الحميمِ**
هذا وكم من عجب عاجب	**يسرّه سعد المقام الكريمِ**
منْ كأبي الحجاج سلطاننا؟	**لا زال في نصر وفتح عظيمِ**

وقد كان لهذا المظهر الحضاري الواسع الانتشار زمن بني الأحمر نصيبه عند شعرائه إلا أن الشاعر الأندلسي لم يقتصر في وصفه للحمام على اظهار المكان، وبيان حرارته، وفائدته فقط، بل؛ ذهب يعبر من خلاله عما يشاء من أفكار وما تعتليه من عواطف، وقد تداخل وصف الحمام مع أغلب أغراض الشعر التقليدية، فورد مع معاني العشق والغرام لما في محيطه من نار وحرارة تحكي نار المحبين، وتشكو حرارة بعدهم عن المعشوقين وما اقتصر الشاعر الأندلسي على أن يتغزل بالمراة، بل؛ تعداها إلى الغلمان أيضاً، لاسيما ما يضفيه هذا المكان على الغلام الوسيم من نظافة وجمال، ويتركه في زينة ومنظر يجلب انتباه الشعراء، ويسحر قلوبهم، فيحرك أقلامهم، وقد تناولنا هذه الجزيئات في الفصل الثاني من هذه الدراسة في معرض حديثنا عن مظاهر الحضارة الاجتماعية في عصر بني الأحمر.

(١) انظر: فرحات، غرناطة في ظل بني الأحمر، ص ١١١_ ١١٢.
(٢) ابن زمرك، ديوانه، ص٣٦٠. وانظر: مرزوق، محمد عبد العزيز (١٩٧٠)، قصر الحمراء، دار الثقافة، بيروت، ص ١٠٧

وقد تفاوت مستوى العناية بالحمامات في تلك الفترة، فالشاعر عبد الكريم القيسي _مثلاً _ يشكو من برودة أحد الحمامات التي كان يرتادها، فيقول[(١)]:

حمامنا بردُه ُشديد ُ   من حلّه ما له حياة ُ

سألتُ عن بردِهِ حكيما   فقال لي: حلّه نحاة ُ

كما أننا نرى الشاعر نفسه يمدح حماما آخر ويثني عليه، فقد نال فيه من النعيم قسطا وافرا فامتدح فيه الهواء العليل وتنعم الأجسام فقال [(٢)]:

حمّام بسطة في اعتدال هوائه   ما مثله في بلدةٍ حمامُ

ماء ونار عنهما اعتدال الهوى   فتنعمتْ بدخوله الأجسامُ

ثالثا: الرياض:

تعد الرياض من المظاهر الحضارية الطبيعية التي أغرم بها الشعراء الأندلسيون عامة والغرناطيون على وجه الخصوص، فعمدوا إلى وصفها وإضفاء جانب من الحياة عليها، فوصفوا أنهارها وانسياب المياه بين أشجارها وأغصانها، وقد تزامن وجود هذه الروضيات وانتشارها مع بعض العادات الأندلسية، مثل؛ الخروج إلى الحدائق والمتنزهات، فقد كان الأندلسيون يخرجون مع عائلاتهم إلى هذه الحدائق والمتنزهات ليلتقوا فيها أحباءهم وأصدقاءهم.

غير أن هذه الرياض كانت قد ارتبطت بالحضارة العمرانية في القصور عند الأمراء والسلاطين وكانت تعد من العناصر الجمالية المكملة للصورة الإبداعية التي كانت عليها عمارة البناء عند الخلفاء والسلاطين، فابن فركون مثلا يصف المباني التي بناها الخليفة يوسف الثالث فيقول [(٣)]:

لله منّي مبنى حسن بهجته   لكل قلب إذا حيّا به شغفُ

ومصنع معجب بالصنع متصل   بالعزّ منفرد ٌبالحسن متصفُ

كأنّ من جنّة الفردوس منشأه   فهذه غرف من فوقها غرفُ

---

(١) عبد الكريم القيسي، ديوانه، ص ٤٥٧.
(٢) المصدر نفسه، ص ٨٤.
(٣) ابن فركون، ديوانه، ص ٢٧١

إلا أن ابن فركون لم يكتف بالتغني بحسن هذه المباني وإبداعاتها بل يلتفت إلى معلم حضاري آخر لم يبعد عن هذه المباني الفريدة الطراز في عمارتها، فيأتي على الروض ويتغنى به وبمن أبدعه في إشارة إلى الخليفة، فيقول في أبيات أخرى من نفس القصيدة [١]:

أستقبلُ الروض إن هبت نواسمه	**والقضب حولي بالأزهار تنعطفُ**
واستقلّ وفي أفقي نجوم هدى	**فهذه تجتلى أو تلك تقتطفُ**
تحار في وصفي الأوهام ذاهبة	**لاتستقل ولا الابصار تنصرفُ**

وفي موضع آخر يمزج ابن فركون بين المظاهر الحضارية بعضها ببعض، فهاهو ذا يمزج بين وصف القصور والمباني ووصف الروض والحدائق على اعتبار أن كلاهما شاهد على تلك الحضارة وعلى عظمة مشيّدها، فيقول [٢]:

روض المحاسن جانبي	**أزهارُهُ تتضوعُ**
والزهرُ إن ناجيتها	**ألقي الحديث فتسمعُ**

كما أن السلاطين كانوا يستثمرون هذه الرياض المنتشرة في قصورهم للمناسبات الاجتماعية المختلفة التي يلتقون فيها مع أبناء قومهم، فقد شهد بلاط السّلطان يوسف الثالث مجالس فقهية، كان يحضرها عدد من علماء الشريعة، وكان من عادته أن يدعوهم إلى وليمة شرعية يقيمها في رياض قصره. وقد قدم لأبيات أشار فيها إلى هذه الوليمة بقوله " ووَّجهنا ارتجالاً إلى مجلس علماء حضرتنا في وليمة شرعيّة اتخذنا صنيعها بالرياض من قصورنا على ما اقتضته عنايتنا بمجلسهم وتحفينا بالمزيد من تأنّسهم " [٣]. ثم أنشد فقال [٤]:

---

(١) المصدر نفسه، ص ٢٧٢.
(٢) المصدر نفسه، ص٢٧٦.
(٣) يوسف الثالث، ديوان ملك غرناطة، ص ١٤٨.
(٤) المصدر نفسه، ص ١٤٨.

يومُنا يومُ صباح مشرق ِ **فأجيبوا يا نجومَ الأفق ِ**
يوسُفياً قد أقام سنّةً **نظمت أشرافها في نَسَق ِ**
في رياض حسْنها متّحد **شائعٌ في مغرب ٍ ومشرق ِ**

فهو يذكر هذه الرياض التي كانت تضم مجلسه مع ندمائه من علماء الشريعة في بهو القصر، كما يشير إلى هذا الحسن الذي كانت تتمتع به هذه الرياض في إشارة إلى الافتخار بالمنجزات التي كان يحققها على صعيد البنيان والعمارة.

وقد أكثر بنو نصر من بناء الحدائق والرياض، ومن أشهرها جنة العريف والسبيكة، وقد احتفظوا فيها بمساحات واسعة تغطيها الأشجار الضخمة العالية الظليلة، وفيها يقول ابن زمرك واصفا جنة العريف وكيف أن شهب السماء باتت قاصرة أن تضاهيها حسنا وجمالا، فيقول[١]:

للّه جنّات العريف فإنها **فيها المعارف والعوارف تصفقُ**
حسدتْ بروح الأفق حَسُن بروجِهِ **فالشّهْب من حسَدٍ عليه تحلّقُ**
أغرى بها الأحداق حسنُ حدائقٍ **تركتْ عيون الشّهب فيها تحدّق**

واشتهرت غرناطة بكثرة رياضها وبساتينها وجنّاتها. ومن بينها موقع يدعى "عين الدّمع"[٢] الذي يطلّ على سفح جبل الفخار[٣]، ويتمتع باعتدال هوائه، وخضرة بساتينه، وعذوبة مياهه، وقد أكثر الشعراء من ذكر عين الدمع. ولعلّ أحسن ما قيل فيه قول أبي البركات البلّفيقي الذي يتشوّق فيه لعين الدمع، ويذكر معاهد أنس سبقت له فيه، ويصف حسنه [٤] فيقول[٥]:

ألا خلّ دمعَ العين يهمي بمقلتي **لفرقة عين الدمع وقفٌ على الدم ِ**
فللماء فيه رنّة شجنيّةٌ **كرنّة مسلوب الفؤاد متيّم ِ**
وللطير ِ فيه نغمة مَوصِلية **تذكرني عهد الصِّبا المتقدم ِ**
وللحسْن أقمارٌ به يوسيفيةٌ **تردّ إلى دين الهوى كلّ مسلم**

---

(١) انظر: جرار، أيمن يوسف (٢٠٠٧)، الحركة الشعرية في الأندلس (عصر بني الأحمر)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، ص ٧٠.
(٢) انظر: المقري، نفح الطيب،ج١، ص١٧٦
(٣) انظر: لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص١٢١.
(٤) انظر: البلّفيقي، أبو البركات محمد بن محمد ابن الحاج (ت٧٧١هـ / ١٣٦٩م)، شعر أبي البركات ابن الحاج البلّفيقي، (عناية عبد الحميد عبد الله الهرامة)، مطبوعات مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، دبي، (د.ت).
(٥) المقري، نفح الطيب، ج٥، ص٤٨١.

وقد كان لابن الخطيب في عين الدمع أبيات نقشت عليه، وهي قوله[١]:

إذا كان عين الدّمع حقيقةً	**فإنسانها ما نحن فيه ولاعُ**
فدام لخيل الأنس واللهو ملعبا	**ولا زال مثواهُ المنعّم مرتعُ**
تودّ الثريا أن تكون له ثرى	**وتمدحه الشعرى وتحرسه المعُ**

وذكر ابن سعيد من متنزّهات غرناطة: اللشتة، والزاوية، والمشايخ[٢].

وكان من عادة أهل غرناطة دعوة الأصدقاء والخلان إلى نزهة في بساتين غرناطة ورياضها، فهذا الشاعر أبو القاسم بن قطبة[٣] يدعو أحد أصدقائه لنزهة في عين الدمع حيث الماء والخضرة، فيقول[٤]:

ومِلْ بنا نَحْوَ عَينِ الدَّمْع نَشْرَبُها	**حيث السّرور بكاس الأنس يسْقيني**
حَيثُ المُنى وفنونُ اللّهوِ راتِعَةٌ	**والطّيرُ مِنْ طَرَبٍ فيها تُنَاجِيني**
وَجدولُ الماءِ يحكي في أجنَّتِهِ	**صَوَارماً جُرِّدت في يَومَ صِفِّين**
وأعين الزهر في الأغصان جاحظة	**كأنها بهوى الغزلان تغريني**

وها هو ذا ابن خاتمة يستدعي الناس إلى الرياض، فيغدق عليها صفات جمة تجعلها أرضاً ثرّة بكل ماترتاح إليه النفس من منظر الخضرة والماء، وشدو الاطيار الذي يسلّي النفوس ويبعثها على الاستجمام والنشوة، هاكه يصفها [٥]:

هلّم إلى الرياض فقد تردّتْ	**بأرديةٍ من الأوراق خضر**
وبات القطر يمشّطها فوشّى	**بلبّات الغصون عقود درٍّ**

---

(١) انظر: الدوسري، الحياة الاجتماعية في الأندلس في عصر بني الأحمر، ص ١٤٦، لم أجد هذه الأبيات في ديوان لسان الدين بن الخطيب.

(٢) ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، ج٢، ص١٠٣.

(٣) هو محمد بن أحمد بن قطبة الدوسي، يكنّى أبا القاسم من أهل غرناطة، شاعر، كاتب حسن الخط، ذاكر للتاريخ والأخبار، ارتسم في الديوان، ثم انتقل إلى الكتابة. انظر: لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة، ج٢، ص٢٥٠.

(٤) لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص١٢٣.

(٥) ابن خاتمة الأنصاري، ديوانه، ص١٤٠. وللمزيد عن أوصاف الروضيات، انظر: ابن خاقان،أبي نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي الإشبيلي (ت ٥٢٩ هـ /١١٣٤م)، قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، (تحقيق حسين يوسف خريوش)، ط١، مكتبة المنار للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٩، ٦٤٢/٣. والتجيبي، أبو بحر صفوان بن أدريس (ت٥٩٨هـ)، زاد المسافر وغرة محيا الأدب المسافر، (أعده وعلق عليه عبد القادر محداد)، دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٧٠، ص٤٤، ٨٥. وابن الأبار، ديوانه، ص٤٥٧. وابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، ٢٢٠/١، ٣٢٧.

وغنّت فوقها الاطيار سجعاً ... فأغنت إذ شدت عن كلّ زمرِ
وقامت كالعروس تروم كفؤاً ... تروق النفس في مرأىً وخبرِ
ولأكفٌ كحسنك فلتجبها ... وإني ضامنٌ إحضار مهرِ!

إن في البيتين الاخيرين صورة طريفة قامت على مزج مظاهر طبيعية بمظاهر اجتماعية، وهي دليل على اهتمام الشاعر بالعادات الأجتماعية التي غالباً ماتكون أثناء النزهات في الرياض والحدائق، وهي خاتمة طيبة لمن أراد أن يستدعي الناس لتلك الرياض والمتنزهات.

وقد امتزج وصف الرياض والوقوف على حسنها وبهائها مع الأغراض الشعرية الأخرى التي تضمنتها موضوعات أشعارهم وخاصة الغزل منها الذي امتزج بهذا المظهر الحضاري الطبيعي، فأصبحوا وكأنهم لا يتناولون هذا الغرض الشعري إلا في رحاب المظاهر الحضارية الطبيعية، فهم يريدون أن يسبغوا هذا الغرض الشعري بلون من الجمال استلهموه من واقعهم الحضاري المحيط بهم، ومنه قول ابن خاتمة [1]:

وروضة قد وطئنا من رياحينَها ... فُرُشا و ظلاً من الإظلال في لُحُفِ
أرختْ علينا ستورا من خمائلها ... قد طرِّفتْ بأفانينٍ من الطُّرَفِ
وللغصون اعتناقٌ تحت ذيل صَبا ... نسيمها كاعتناق اللام والألفِ
قد ساجع الطّيرُ ترجيع القيان بها ... وساجلَ القضبَ رقصُ الأعطف اللطُفِ

فيجعل الشاعر الطبيعة متحالفة معه في هذه العلاقة التي تجمعه بمحبوبته، فالأغصان تتعانق تعانق المحبوبين، ويلتقي سجع الطيور مع غناء القيان ورقص الأعطاف اللينة مع تمايل القضبان.

كما أن ابن الخطيب راح يصور عاطفته الهائمة في حب وطنه من خلال تصوير الرياض فيها ومزجها بالجمال البشري المزدان فيقول [2]:

بلد يحفّ به الرياض كأنه ... وجهٌ جميل والرياض عذارُهُ
وكأنما واديه معصمُ غادةٍ ... ومن الجسور المحكمات سوارُهُ

---

(١) ابن خاتمة الأنصاري، ديوانه، ص ٦٣.
(٢) لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة، ص ١٢١.

ويقدم ابن خاتمة الروضة في صورة امرأة جميلة كاملة الصفات بحيث يصبح جمال المظهر متحدا مع الجمال الطبيعي المتمثل بالروضة، فيقول [١]:

إذا أتيت أثيلات[٢] الحمى فقفِ — وعُجْ يمينا تجاه الرّوضة الأنُفِ[٣]

فثمّ مغنى جمال راقَ رونقُه — عليه معْنى جلال واضحُ الشّرفِ

قامت سماء العلا منه على عمدٍ — واحتلّ طير المنى منه على شرَفِ

روضٌ وشتْهُ يد الإبداع فانتظمت — فيه المحاسن من بدءٍ إلى طرَفِ

قد صنّف الحسنُ منه كلّ متّفِقٍ — وألّفَ السعْدُ منه كل مختلِفِ

ما شئْت من قمرٍ سعْدٍ ومن كرَمِ — رغدٍ ومن حسَبٍ عدٍ، ومن تَرَفِ

فيظهر من خلال هذه الأبيات كيف يمزج الشاعر بين وصف الروضة الجميلة ووصف الحبيبة المعشوقة، والقارئ في ديوان ابن خاتمة يجد أن الروضة والمرأة عنده أصبحتا شيئا واحدا، وفي هذا دليل على ذلك السحر والإبداع الذي كانت تظهر عليه الرياض في هذا العصر مما دفع الشعراء لتشبيهها بالمرأة المحبوبة.

ومن ذلك قول ابن الجياب الذي غمرته بهجة الربيع وملأته بالغبطة، فيأتي على وصفه، ويعمل على نشر حسنه وجماله في كل مكان، فهي دعوة إلى التمتع بنعمة الخالق، وسط جنة تجلو محاسنها كما تجلو العروس يوم زفافها، فيقول [٤]:

هذا الربيعُ أتاك ينشر حسنه — فافسحْ لنفسك في مداه مجالها

واخلعْ عذارك في البطالة جامحا — واقرنْ بأسحار الهنا آصالها

في جنّة تجلو محاسنها كما — تجلو العروس لدى الزفاف جمالها

---

(١) ابن خاتمة الأنصاري، ديوانه، ص ٦٤.

(٢) أثيلات: تصغير الأثلات، وهذه جمع أثيلة، واحدة الأثل، وهو نوع من الشجر، انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (أثل).

(٣) الروضة الأنف: التي لم يرعها أحد.

(٤) المقري، نفح الطيب، ج٥، ص ٤٣٧.

ولم يكن الغزل هو الغرض الشعري الوحيد الذي امتزج بذكر الرياض ووصفها، فابن زمرك يأتي على الرياض ويصفها في معرض حديثه عن مدح السلطان الغني بالله، فيقول [١]:

هبّ النسيم على الرياض مع السحرْ   فاستيقظت في الدّوح أجفان الزّهر

ورمى القضيب دراهما من نورهِ   فاعتاض من طلّ الغمام بها دررْ

نثر الأزاهر بعدما نظم الندى   يا حسْنَ ما نظم النسيم وما نثرْ

يا فخر أندلس وعصمة أهلها   للنّاس سرّ في اختصاصك قد ظهرْ

ورّثتَ هذا الفخر يا ملك الهدى   من كل ما آوى النبي ومن نصرْ

فابن زمرك يعرض علينا هذا المشهد التمثيلي الذي تتبدى فيه عناصر الطبيعة وكأنها أبطاله من خلال هذه الحركة التي يظهر فيها النسيم يهب على الرياض، فتستيقظ الأزهار التي بدورها تبدو في تناسق عالٍ وفي انتظام لا يقل عن انتظام حبات الندى التي عمل على هذا الترتيب فيها هبوب النسيم نفسه.

وقد اشتهر ابن زمرك بهذا النوع من التمازج، فغالبا ما كانت قصائده المدحية تمتزج بغرض شعري آخرتمثل بوصف الطبيعة برياضها وأنهارها وأزهارها، ومن قصائده في هذا الإطار مطولته التي نظمها مادحا السلطان الغني بالله وتهنئته، فيقول [٢]:

قفْ بالسبيكة[٣] وانظر ما بساحتها   عقيلةٌ والكثيب الفرد جاليها

تقلّدت بوشاح النهر وابتسمتْ   أزهارها وهي حلْي في تراقيها

وأعين النرجس المطلول يانعةٌ   ترقرق الطّل دمعا في مآقيها

وافترّ ثغر أقاح من أزاهرها   مقبّلا خد وردٍ من نواحيها

كأنما الزهر في حافاتها سَحَرا   دراهمٌ والنسيم اللدن يَجبيها

وانظر إلى الدوح والأنهار تكنفها   مثل الندامى سواقيها سواقيها

كم حولها من بدور تجتني زهرا   فتحسب الزّهر قد قبّلن أيديها

(١) ابن زمرك، ديوانه، ص ٤٠– ٤١.

(٢)ابن زمرك، ديوانه، ص ٥٠٠.

(٣) السبيكة: من أجمل متنزهات غرناطة، وتقع إلى الجنوب الشرقي من حمراء غرناطة، وتشكل مع مدرج نجد وجنة العريف أجمل المناظر الطبيعية بالمملكة، انظر: المقري، نفح الطيب، ج ١٠، ص ٣١-٣٢.

ويظهر جلياً من خلال هذه الأبيات أن هذا النوع من الشعر لم يكن شعرا استهلاليا لمجرد الدخول إلى الغرض الأصيل المتمثل في المدح ها هنا، وإنما كان شعرا أصيلا يدل على مدى التأثير الذي خلفته الطبيعة بسحرها وإبداع مكوناتها على شعراء هذا العصر.

فهذا التجاذب بين الغزل والمدح ووصف الطبيعة ما هو إلا تعبير عن الحالة الذهنية التي كان يعيشها الشعراء في ذلك العصر، فراحوا يعبرون عما تجول به خواطرهم للتعبير عن الحالة الحضارية التي عرفوها وعاشوها وتنعموا بظلها وظلالها.

رابعا: العمارة الدينية:

المساجد:

تغير حال العمارة في عصر بني الأحمر عمن سبقهم من العصور، فلم تبرز العمارة الدينية كما برزت العمارة المدنية عندهم على خلاف ما كان الحال عليه أيام المرابطين والموحدين[١]، وما يلفت الانتباه في العمارة الدينية في هذا العصر بساطتها من الخارج مع تنوع زخارفها الداخلية.

ويعدّ المسجد الجامع بغرناطة من أبرز المباني العمرانية ذات الصبغة الدينية في تلك الفترة، ويقع جنوب بهو السباع من قصر الحمراء، وهو من أعظم مناقب السلطان محمد الثالث، أنشأه على أبدع طراز، وقام بتزيينه وتزويده بالعمد والزخارف والثريات الفخمة [٢].

ولم يقتصر دور هذا المسجد على جانب العبادات فقط، بل كان له دور في الحياة الدينية والاجتماعية والسياسية، فقد كانت تعقد فيه اجتماعات عامة كبيرة وتطرح فيه قضايا وتبارك فيه الجيوش قبل الذهاب إلى المعارك، وقد كان كذلك الوسيلة الإعلامية التي يُبث من فوق منبرها النشرات والرسمية والخطابات والمراسيم والأخبار التي تتضمن الإعلانات عن الجيوش المنتصرة [٣]، ويوصف جامع غرناطة الكبير بأنه " من أبدع الجوامع وأحسنها منظراً، وهو محكم البناء، لا يلاصقه بناء، تحف به دكاكين الشهود والعطارين، وقد قام سقفه على أعمدة حسان، والماء يجري داخله " [٤]، ومن هنا يظهر لنا أن المكان الذي كان يبنى فيه المسجد لا تبنى فيه منازل يسكنها الناس.

---

(١) انظر: فرحات، غرناطة في ظل بني الأحمر، ص ١٥٣.
(٢) لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ٥٤٦- ٥٤٧.
(٣) انظر: الطوخي، مظاهر الحضارة في الأندلس، ص ٥٧.
(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، ص ٢١٤.

وقد انتشرت المساجد بكثرة في هذا العصر، ففضلا عن الجامع الكبير في غرناطة فقد كان ثمّة عدد آخر من المساجد مثل مسجد الحمراء الأعظم، وعدد من المساجد الصغيرة التي كانت تتوزع فيما بين الأحياء المختلفة، منها: مسجد أبي العاص، ومسجد ربض البيازين، ومسجد القيسارية. وغيرها الكثير من المساجد [١]، كما انتشر عندهم أيضا عدد من المصليات التي ترتكز على أعمدة كما هو الحال في مسجدي البيازين والحمراء[٢]، وقد كانت صحون المساجد عندهم تزان وتجمّل بالجنان وحدائق الفاكهة، كما أن هذه الصحون كانت تفصل بين المآذن.

وقد خصّ ابن الجياب المسجد الأعظم بقصر الحمراء بأكثر من قصيدة، فتحدّث في إحدى قصائده عن أهمية ذلك المسجد ومدى التأنق والروعة في بنائه حتى أصبح من الآثار الخالدة، فيقول[٣]:

ولا كمسجدك الأعلى فإن له ... فضلا بعيد المدى رحب الميادينِ

تأنقتْ فيه أذهان مسددة ... جاءت بسرّ من الإبداع مكنونِ

فياله له أثر تبقى مآثره ... مخلّداتٍ ليوم العرض والدينِ

وله قصيدة أخرى يذكر فيها هذا الجامع مشيدا بالإبداع العمراني الذي يتبدى للناظر إليه، وكيف أن محاسن هذا الجامع أصبحت حديث الناس، مشيرا إلى جمال مصابيحه وروعة إضاءته، فيقول[٤]:

بيتٌ لذكر الله أسسه على ... عمادٍ من التقوى قوي الدعائمِ

وأنفق في بنيانهِ ما أفاءهُ ... عليه اقتحام المأزق المتلاحمِ

تناقلت الركبان أخبارَ حسنهِ ... فطيبن أنفاس الرياح النواسمِ

بدائع حسنٍ تقصر الطرف بهجةً ... سرى ذكرها مسرى القلاص الرواسمِ

أضاءت به الأنوار مثنى وموحداً ... وجنح الدُجى ذو غيهبٍ متراكمِ

مصابيح يمحو نورها غسق الدجى ... وأنوار تقوى ماحياتَ الجرائمِ

---

(١) انظر: الطوخي، مظاهر الحضارة في الأندلس، ص ٥٨.
(٢) انظر: المصدر نفسه، ص ٥٨.
(٣) ابن الجياب، ديوانه، ص ٢٥١.
(٤) المصدر نفسه، ص ٢١٩.

كما ورد ذكر منبر المسجد الأعظم في قصيدة أخرى لابن الجياب التي يقول فيها مبينا ما ازدان به هذا المنبر من النقوش البديعة [١]:

ومن أعظم الآثار منبرك الذي	**ذخرت به أزكى الأجور الجسائمِ**
هو الغاية القصوى التي ما وراءها	**مجال لفكر أو مرام لرائمِ**
بدائع ترصيع تناظر حسنها	**تناظر زهر العروض غبّ الغمائمِ**

وتبدو زخارف المسجد وكأنها أسلاك الياقوت، والدر المفصل وبحلى أطواق الحمام فيقوله[٢]:

كأسلاك ياقوت ودرٍّ مفصل	**تضاهي حُلى أطواق [.] [٣] الحمائمِ**

أمّا المآذن فقد كانت عبارة عن أبراج مربعة بسيطة تتكون من طابقين علوي وسفلي، وقد كان العلوي منها أصغر حجما وأقل ارتفاعا من السفلي يعلوه سور يبدو فيما يبدو للناظر وكأنه تاج محيط بالمئذنة أعلاه وقد قاموا بزخرفته بكرات معدنية، بينما كان السفلي ينتهي عادة بشرفة تطل على صحن المسجد [٤].

وتشير الدراسات إلى أن مآذن غرناطة لم يبق منها سوى مئذنتين: الأولى؛ مئذنة مسجد تحول إلى كنيسة سان خوان دي لوييس رييس بغرناطة، والأخرى؛ مئذنة مسجد ببلدة رندة تحول هو أيضا إلى كنيسة تعرف باسم "سان سباستيان".

إلا أن الشعراء جاءوا على ذكر المساجد ووصف حالها في إطار التحسّر والفجيعة خاصة بعد سقوط الدويلات الإسلامية في الأندلس تباعا الواحدة تلو الأخرى، فمع سقوط الأندلس تغيرت جميع الملامح الدينية الموجودة فيها مما جعل عديد الشعراء يقفون موقف الباكي والمتأمل، يقول الشاعر القيسي [٥]:

وللمساجد يسري أمرُ ضيعتها	**إن حقُّها دون أحباس البلاد نُسي**

---

(١) ابن الجياب، ديوانه، ص ٢٢٠.
(٢) المصدر نفسه، ص ٢٢١.
(٣) بياض في الأصل، أنظر: المصدر نفسه، ص ٢٢١.
(٤) انظر: الطوخي، مظاهر الحضارة في الأندلس، ص ٥٨.
(٥) عبد الكريم القيسي، ديوانه، ص ٢١٦.

فالشاعر هنا يلقي الضوء على المساجد التي ضاعت بضياع الأحباس؛ أي الأوقاف الإسلامية، فبضياع الأحباس هذه ضاعت المؤسسات التي أوقفت عليها تلك الأحباس، وأولها المساجد، ويقول الشاعر ذاته في وصف الحال الذي آلت إليه المساجد وما وصلت إليه من هوان[١]:

فبه حياة مساجد إهمالها ... لظهوره يغني عن التبيينِ

تبكي العيون ولا تملُّ لما بها ... من ضيعةٍ من دمعها بهتونِ

ثم يأتي الشاعر على صورة هذه المساجد ويصور التهدم الذي أصابها فيجعلها تنطق وتتكلم لتخبر عن نفسها وتتحسر على ما أصابها، وعلى من بنوها وكسوها وزينوها في حين أصبحت الآن في قبضة من لا يملك الحق فيها، فأصابها الضياع والخراب، فيقول[٢]:

فتهدّمتْ بعد البناء وأصبحتْ ... من عريها في خلعة المسكينِ

تشكو لكم بلسان حال قائل ... من ذا الذي يبنيني أو يكسوني

لهفي على قومي بنوني واعتنوا ... من وقفهم لي بالذي يكفيني

ماتوا، فموتي بالخراب محققٌ ... إذ بعدهم لم يبقَ من يحييني

وجميع أوقافي، على ما حلّ بي ... من فاقةٍ، تُجبى وتؤكل دوني

ويصور أبو البقاء الرندي في نونيته الشهيرة جزعه ولوعته على العديد من المعالم والأماكن المتحولة فيصوّر حزن المساجد وبكاء المحاريب والمنابر، فيقول[٣]:

تبكي الحنيفية البيضاء من أسَفٍ ... كما بكى لفراق الأهل هيمانُ

على ديار من الإسلام خاليةٍ ... قد أقفرت ولها بالكفر عمرانُ

حيث المساجدُ قد صارت كنائسُ ما ... فيهنّ إلا نواقيس وصلبانُ

حتى المحاريب تبكي وهي جامدةٌ ... حتى المنابر ترثي وهي عيدانُ

---

(١) المصدر نفسه، ص ٢١٦.
(٢) المصدر نفسه، ص ٢١٧.
(٣) لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة، ج٢، ص ٣٤٠.

فهو يبكي على ما حدث للإسلام وأهله من فرقة وتشريد، فالنصارى لم يكتفوا باحتلال بلاد المسلمين في الأندلس إلا أنهم عملوا على تشريد أهلها وطمس معالم الإسلام فيها، فغدا كل معلم ومظهر حضاري من هذه المظاهر يبكي من هول الفجيعة (١).

فالبعد الديني في الصراع بين النصارى والمسلمين في الأندلس كان من أهم الأبعاد في هذا الصراع الذي تولت قيادته الكنيسة الصليبية آنذاك، فأول عمل كان يقوم به الإسبان النصارى عند سقوط أي مدينة مسلمة هو طمس معالم الحضارة الإسلامية فيها متمثلة بالمساجد التي كانت منارات يهتدى بها في تلك الفترة، ويظهر هذا الأمر جليا عند ابن الأبار في قوله (٢):

يا للمساجدِ عادتْ للعدا بيَعَا ... وللنّداء غدا أثناءها جرَسا

لهفي عليها إلى استرجاع فائتها ... مدارسا للمثاني أصبحتْ دُرْسا

وتظهر صورة المساجد التي طمست معالمها على لسان شاعر آخر هو أبو عمران المرابط الذي يشير إلى تعمّد نصارى الإسبان الغازيين إلى التعرض إلى المساجد على وجه الخصوص، فكثيرا ما نشروا الموبقات والمحرمات فيها، فيقول (٣):

كم جامعٍ أعيد كنيسة ... فأهلكْ عليه أسى فلا تتجلّدِ

القدس والناقوسُ فوق منارة ... والخمر والخنزير وسط المسجدِ

وتعوّضتْ منهم بكلّ معاندٍ ... مستكبرٍ مذ كان لهم يتشهّدِ

ومن هنا يمكن القول إن معاني التحسّر والفجيعة هذه التي عبّر عنها غير شاعر من شعراء تلك الحقبة من الزمن في رثاء المساجد ووصف الحال الذي آلت إليه ما هو إلا تصوير لواقعين وحالين كانوا قد عاشوهما بمفارقتهما العجيبة، فبعد أن كان المسجد منارة للعلم والوعظ والإرشاد أصبح الآن مكانا للهو والمجون، وكيف لا وهم يرون كيف أن هذا الصرح المعماري الذي كان شاهدا على حضارة وتقدم ورقي لطالما تغنوا بها في أشعارهم ممتدحين السلاطين الذي أنشئت وشيّدت في زمنهم أصبحت الآن تؤول إلى الزوال والفناء، فهم كانوا على وعي تام بأن هذا العمل النصراني الشائن ما هو إلا محاولة جادة لطمس الهوية العربية الإسلامية عن هذه المدن بمعالمها وأبعادها الحضارية.

---

(١) انظر: محمد، سعيد محمد (٢٠٠١)، دراسات في الأدب الأندلسي، ط١، جامعة سبها، ليبيا، ص ٩٤.
(٢) المقري، نفح الطيب، م٥، ص ٤٥٧.
(٣) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ط٣، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٦، ج ٧، ص ١٩٤–١٩٥.

الكنائس والأديرة:

تمتع المسيحيون في ظل الدولة الإسلامية في الأندلس بميزات عديدة أهمها التسامح الامر الذي سمح لهم بممارسة طقوسهم وشعائرهم الدينية بحرية، فأحيطت معابدهم وكنائسهم بكل الاحترام والتقدير ومن ذلك أن الدولة الإسلامية لم تبق على كنائسهم القديمة فحسب بل سمحت لهم ببناء كنائس جديدة أخرى واستمر هذا التوسع في بناء الكنائس حتى عصر المرابطين الذين حدوا من التوسع في بناء هذه الكنائس عقب التوسع المسيحي في بلاد الأندلس الإسلامية. (١)

والملاحظ أن الشعراء لم يهتموا بالجانب العمراني لهذه الكنائس في اشعارهم، فقد عملوا على وصف الأجواء العامة فيها كشرب الخمر، ووصف الفتيات الجميلات، ووصف الحفلات الغنائية فيها، ومن الشعراء من اقدم على دخول الكنائس ومشاهدة ما يجري فيها بل إن الشاعر أبا زكريا يحيى ابن هذيل يدخل الدير مصرحاً بطلب الخمرة، فيقول (٢):

طرقنا ديور القوم وهناً وتغليسا ... وقد شرفوا الناسوت إذ عبدوا عيسى

وقد رفعوا الإنجيل فوق رؤوسهم ... وقد قدسوا الروح المقدسَ تقديسا

فما استيقظوا إلا لصكة بابهم ... فأدهش رهباناً وروّعَ قسيسا

وقام بها البطريق يسعى ملبياً ... وقد ليّن الناقوس رفقاً وتأنيسا

فقلنا له أمْناً فإنّا عصابة ... أتينا لتثليث وإن شئت تسديسا

وما قصدنا إلا الكؤوس وإنما ... لحنّا له في القول خبثاً وتدليسا

فيظهر من هذه الآبيات أن الشاعر كان مع جماعة في زيارة لهذا الدير بقصد التلذذ بكؤوس الخمر مظهرين للبطريق الايمان بعقيدة النصارى.

ولم يكن ذكر الأديرة والكنائس في الشعر حكراً على طالبي الخمر وإنما تعداه إلى الزهاد والمتصوفه، فأبو الحسن الششتري وهو أحد شعراء الصوفية يذكر آبياتاً يظهر من خلالها أنه زار الدير وطلب الخمر، ولكن فيما يبدو أنها خمر مختلفة عن تلك التي وردت فيما ذكرنا سابقاً من الشعر فيقول (٣):

---

(١) انظر: سالم، العمارة الإسلامية في الأندلس وتطورها، ص ١٧٧.
(٢) لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة، ص ٣٩٩.
(٣) الششتري، أبو الحسن علي بن عبد الله النميري (ت ٦٦٨هـ)، ديوان أبي الحسن الششتري، (تحقيق سامي علي النشار)، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٦٠، ص ٨٩.

فقلت له ما هذه الراح مقصدي ... ولا أبتغي من راحكم هذه نيلا

ولكنها راحٌ تقادم عهدها ... فما وصفتْ بعد ولا عرفت قبلا

ويظهر في شعر أبي الحسن الششتري بعض الصور التي كانت عليها الأديرة في ذلك العصر، ويبين كيف كانت تدار الأمور فيها، مضمناً أبياته بعض النصائح، فيقول [(١)]:

تأدب بباب الدير واخلع به النعلا ... وسلم على الرهبان واحطط به رحلا

بدت فيه أقمار شموس طوالع ... يطوفون بالصلبان فاحذرك أن تُبلى

فإياكَ أن تسمع لهن بحكمة ... وإياكَ أن تجمع لهن بك الشملا

فإن كان هذا الشرط وفيت حقه ... بصدق ولم تنقص عهوداً ولا قولا

دعوك بقسيس وسموك راهبا ... وأبدوا لك الأسرار واستحسنوا الفعلا

وأعطوك مفتاح الكنيسة والتي ... بها صورت عيسى رهابينهم شكلا

ولا بد من الإشارة في هذا المقام إلى أن البيئة الإسلامية في هذا العصر هي التي كانت سائدة ومؤثرة سواء في حياة الناس أو في شعر الشعراء، إلا أن البيئة النصرانية بقيت حاضرة في ثقافة الشعراء من خلال إبداعات وتجليات عفوية، وهذا يفسره تفاعل الأدب بشكل عام والشعر بشكل خاص مع الثقافات والبيئات المختلفة.

القبور:

وفي معرض الحديث عن العمارة الدينية في هذا العصر نعرّج على نوع آخر من العمارة ذات الطابع الديني، أعني القبور، وكغيرها من المدن الإسلامية عرفت غرناطة المقابر وكان يطلق على المقبرة فيها اسم الروضة[(٢)].

ومن أشهر مقابر غرناطة مقبرة البيازين ومقبرة السّبيكة، ومقبرة الغرباء ومقبرة باب الفخارين ومقبرة العسّال [(٣)].

أما القبور فقد كانت بسيطة البنيان مرتفعة شيئا قليلاً عن الأرض، ومع التطور العمراني النهضة التي أصابت البلاد، أصبحت القبور أكثر تطوراً، فالشواهد باتت مصنوعة من الرخام

(١) المصدر نفسه، ص ٨٨.
(٢) انظر: الطوخي، مظاهر الحضارة في الأندلس في عصر بني الأحمر، ص ٦٦.
(٣) انظر: المصدر نفسه، ص ٦٦– ٦٧.

الفاخر المصقول منقوش عليها اسم المتوفى وتاريخ وفاته، وقد تكتب عليه المراثي سواء أكانت شعرية أم نثرية[١].

وقد انتشر في الأندلس بشكل عام كتابة هذه المرثيات على شواهد قبور السلاطين والوزراء والعلماء وغيرهم من الشخصيات المرموقة، وقد تكون هذه المراثي من نظم المتوفى نفسه نظمها قبل وفاته، في إشارة إلى مكانة هذا المتوفى وكأنها إعلان عن حضورة وإن واراه الثرى.

ويلاحظ في الأبيات التي نظمها أصحابها لتنقش على قبورهم قصرها ودورانها حول اعتراف صاحبها بذنوبه طالبا الصفح والعفو من الله، راجيا الشفاعة من النبي الكريم، ومثال ذلك قول الشاعر محمد بن باق الأموي [٢]:

ترحّم على قبر ابن باقٍ وحيّهِ ... فمن حقِّ ميْتِ الحيّ تسليم حيّهِ

وقلْ آمن الرحمنُ روعة خائفٍ ... لتفريطه في الواجبات وغيّهِ

قد يشفعُ الجار الكريمُ لجارهِ ... ويشملُ بالمعروف أهلَ نديهِ

وإني بفضل الله أوثقُ واثقٍ ... وحسبي وإن أذنبتُ حبُّ نبيّهِ

وتظهر معاني الخوف من الله هذه والتحسّر على الذنوب في قول ابن الأرقم النميري الذي يخاطب زوار قبره طالبا منهم التوجه إلى الله بالدعاء له بالرحمة والمغفرة، فيقول [٣]:

أتيتُ إلى خالقي خاضعا ... ومَن خدّه في الثّرى يخضعُ

وإن كنت وافيتهُ مجرما ... فإني في عفوهِ أطمعُ

وكيف أخاف ذنوبا مضتْ ... وأحمدُ في زلّتي يشفعُ

فأخلصْ دعاءك يا زائري ... لعلّ الإلهَ بهِ ينفعُ

(١) انظر: لسان الدين بن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٤٨ و ٦٨ و ٨٨.

(٢) لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة، م ٢، ص ٣٤٠.

(٣) السيوطي، جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر الخضيري (ت ٩١١ هـ)، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ط٢، (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم)، دار الفكر، القاهرة، ١٩٧٩، ج١، ص ٤٢-٤٣.

وكما نظم الشعراء أبياتا لتنقش على قبورهم، نظم آخرون أبياتا في رثاء الآخرين سواء أكانوا من ذوي قرباهم أو من الملوك والسلاطين، فأبو القاسم بن يوسف الأنصاري ينظم أبياتا لتنقش على قبر أبيه، يقول فيها [(١)]:

وجاوزتُ أجداث الممالك خاضعا — وقلبيَ مصدوعٌ ودمعيَ مسْفوحُ

ووجّهتُ وجهي نحْو جودك ضارعا — لعلّ الرضا من جنْب حلمك ممنوحُ

أتيتُ فقيرا والذنوبُ تؤذني — وفي القلب من خوْفِ الجرائم تبريحُ

ولم اعتمدْ إلا الرجاءَ وسيلة ً — وإخلاص إيمان به الصّدرُ مشروحُ

وأنت غني عن عذابي وعالِمٌ — بفقري وباب العفْو عندكَ مفتوحُ

فهبْ لي عفوا من لدنك ورحمة ً — يكون بها من ربقة الذنب تسريحُ

وصلّ على المختار ما هَمَعَ الحيا — وما طلعت شمسٌ وما هبّت الريحُ

فالشاعر يتوجه إلى الله بعدما توسّد خد أبيه التراب، فيطلب من الله الصفح والرحمة والمغفرة لوالده، ويقرّ بأن الذنوب تثقل كاهله، وهو خائف من العقاب، إلا أنه يدرك أن باب المغفرة مفتوح، ثم ينهي أبياته بالصلاة على النبي الكريم راجيا الشفاعة من عنده.

وقد نال الملوك والسلاطين والأمراء النصيب الأكبر من هذا النوع من الشعر، فقد كان الشعراء يسجلون مناقب المتوفى على ضريحه فجاءت قصائدهم طويلة، ويرجّح أن هذا النوع من القصائد إنما كانت تقال أولا أمام الأسرة الحاكمة قبل نقشها على شاهد القبر [(٢)]، وكأن الشعراء سعوا في إرضاء الأحياء بذكر هذه المعاني التي كان يتصف بها فقيدهم، ولهذا نجد أن الشعراء تناولوا معاني الكرم والشجاعة والعدل في مراثيهم التي نقشت فيما بعد على القبور، وفي هذا يقول ابن الجياب يصف قبر الملك أبي عبد الله محمد بن محمد [(٣)]:

مقرّ العلى والملك والبأس والندى — فقدّس مِن مغنى كريم ٍ ومشْهد ٍ

ومثوى الهدى والفضْل ِ والعدل ِ والنّهى — فبورك من مثوى زكيٍّ وملْحد ِ

---

(١) لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة، م ٤، ص ٤٢٦– ٤٢٧.

(٢) انظر: العبدلات، شعر الرثاء في الأندلس في ظل بني الأحمر، ص ١٢٩.

(٣) ابن الجياب، ديوانه، ص ٢٣١، و لسان الدين بن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٦٩.

ومنه قوله في ذكر مناقب الملك أبي الوليد إسماعيل بن فرج منقوشا على قبره [١]:

سلطان عدْلٍ وبأسٍ غالبٍ وندى وفضلِ تقوى وأخلاقٍ ميامينِ

لله ما قد طواهُ الموت من شرفٍ وسرُّ مجدٍ بهذا اللحدِ مكْنونِ

ومثله قول ابن الخطيب من قصيدة نقشت على قبر الملك أبي الحجاج يوسف الأول، فقال [٢]:

إذا ذُكر الإغضاءُ والحلمُ والتقى وحدّثتَ عن علياهُ حدّثْ عن البحْرِ

إمامُ الهدى غيثُ النّدى دافع العدى بعيدُ المدى في حومةِ المجْدِ والفخرِ

ويا ملحد التقوى ويا مَدْفَن الهدى ويا مسْقطَ العليا ويا مغرب البدرِ

ولم تكن صفات الكرم والعدل والشجاعة وحدها التي تنقش على القبور من مناقب المتوفى، بل لقد تناول الشعراء الصفات الحربية للمرثي، وفي ذلك يقول أحد الشعراء في رثاء الملك المؤسس محمد الأول [٣]:

كأنه لم يسرْ في جحفلٍ لَجبٍ تضيق عنهُ بلاد العُرب والعَجَمِ

ولمْ يبدِ العدا منه ببادرةٍ يفْترّ منها الهدى عن ثغرٍ مبتسمِ

ولم يجهّزْ لهم خيلا مُضَمّرةً لا تشرب الماء إلا منْ قليب دمِ

ثم يسجّل الشاعر نفسه على قبر يوسف الأول كيف أنه كان حاميا للدين مقاوما لأطماع الكافرين فيقول[٤]:

ومَنْ كأبي الحجاج حامي حمى الهدى ومَنْ كأبي الحجاج ماحي دجا الكفرِ

وقد تناول الشعراء في شعرهم المنقوش على القبور الحادثة التي مات بها منيرثونه، فابن الجياب مثلا يحاول الربط بين استشهاد الملك أبي الوليد إسماعيل وبين استشهاد عثمان بن عفان

---

(١) ابن الجياب، ديوانه، ص ٤٦٦، و لسان الدين بن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٨٨-٨٩.
(٢) لسان الدين بن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ١١٢.
(٣) لسان الدين بن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٤٩، و جرار، صلاح (١٩٩٩)، ديوان الحمراء، الأشعار العربية المنقوشة في مباني قصر الحمراء وجنة العريف بغرناطة، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، ص ٢٢٢-٢٢٣.
(٤) لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة، م ٤، ص ٣٣٥.

_ رضي الله عنه _ حيث إن كلاهما مات مقتولا في بيته في الشهر الحرام، فقال أبياتا نقشت على قبر الفقيد مبينا فيها تأثر العباد والبلاد لموته [(١)]:

قضى كعثمان في الشهر الحرامِ ضحى وفاةً مستشهدٍ في الدار مطعونِ

تبكي البلادُ عليه والعبادُ معا فالخلقُ ما بين أحزانٍ أفانينِ

ومنه قول ابن الخطيب على قبر الملك يوسف الأول الذي قتل أثناء سجوده في صلاة عيد الفطر، فيقول [(٢)]:

تولّى شهيدا ساجدا في صلاتهِ أصيلَ التّقى رَطَبَ اللّسان من الذكرِ

وقد عرف الشهرُ المبارك حقَّ ما أفاض منَ النّعمى ووفى من البرِّ

وهكذا يظهر لنا من خلال ما أوردنا كيف أن شعراء عصر بني الأحمر استثمروا هذه القبور التي لطالما كانت وما تزال تشكل ذلك المكان المشؤوم الذي يحمل في طياته معاني فراق الأحبة والأهل والملوك والعظماء، فراحوا ينقشون على شواهدها أشعارهم التي كانت شاهدا حيا على مناقب المرثي، فباتت هذه القبور وكأنها معلم حضاري بحدّ ذاته شاهد على من بجوفه بصفاته وإنجازاته، حاملة معها معاني الاستغفار والتوجع والحسرة والتوبة إلى الله.

خامسا: المدارس:

لم تعرف الأندلس المدارس إلا متأخرة، حيث أنشئت فيها أول مدرسة بغرناطة عام ٧٥٠ ه / ١٣٤٩م، وهي المدرسة التي أنشأها أبو الحجاج يوسف على يد حاجبه أبي النعيم رضوان النصري [(٣)]، وفي ذلك يقول ابن الخطيب: " أحدث المدرسة بغرناطة، ولم تكن بها بعد، وسبب إليها الفوائد، ووقف عليها الرباع المغلة، وانفردت بغرناطة، فجاءت نسيج وحده بهجة وصدرا وظرفا وفخامة، وجلب الماء الكثير إليها من النهر فأبد سقيه عليها " [(٤)].

---

(١) ابن الجياب، ديوانه، ص ٤٦٦، ولسان الدين بن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٨٩.
(٢) لسان الدين بن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ١١٢.
(٣) انظر: الدوسري، الحياة الاجتماعية في غرناطة في عصر بني الأحمر، ص ٢٦٢.
(٤) لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة، ج ١، ص ٥٠٨– ٥٠٩.

وقد كانت تسمّى بالمدرسة اليوسفية أو النصرية أو مدرسة غرناطة، وتشير الدراسات إلى أن المتحف الأثري بغرناطة ما زال يحتفظ ببعض اللوحات من تلك المدرسة [١]، ومما كُتب في إحدى لوحاتها: " أمر ببناء هذه الدار _ جعلها الله استقامة ونورا وعلما في علوم الدين على مر الأيام _ أمير المسلمين أظله الله بعونه العلي الشهير، السعيد، الظاهر، الرفيع، الهمام، السلطان المؤيد أبو الحجاج يوسف بن علي الكريم، الكثير الخطير، الشهير المجاهد، الفاضل العادل، المقدس، الرضى، أمير المسلمين وناصر الدين أبو الوليد أسماعيل بن فرج بن نصر كافي الله الإسلام صنايعة الزكية وتقبّل أعماله الجهادية، وتم ذلك في شهر المحرم عام خمسين وسبعمئة "[٢].

وقد كتب ابن الجياب شعرا وجد منقوشا على بابها، يشيد فيه بهذا الصرح العلمي والمعلم الحضاري الذي كان يدل على مدى حرص واهتمام سلاطين هذا العصر على العلم والتعليم، وفيه يقول[٣]:

يا طالب َ العلمِ هذا بابه فتحا	**فادخلْ تشاهد سناه لاح شمسَ ضحى**
واشكر مجيرك في حلّ ومرتحل	**إذ قرّب الله من مرماك ما نزحا**
وشرّفتْ حضرة َ الإسلام مدرسةٌ	**بها سبيلُ الهدى والعلمُ قد وضُحا**
أعمال يوسف مولانا ونيّته	**قدْ طرّزت صُحُفا ميزانها رجحا**

وقد كانت هذه المدرسة زاخرة بعدد من كبار علماء الأندلس والدول الأخرى الذين درسوا فيها، ومنهم ابن الفخار الخولاني، ويحيى بن أحمد بن هذيل التجيبي، ومنصور الزواوي [٤].

(١) انظر: الطوخي، مظاهر الحضارة في غرناطة في عصر بني الأحمر، ص ٣١٦، والدوسري، الحياة الاجتماعية في غرناطة في عصر بني الأحمر، ص ٢٦٢
(٢) لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة، م ١، ص ٥١٦- ٥١٧.
(٣) ابن الجياب، ديوانه، ص ١٥٦.
(٤) انظر: الطوخي، مظاهر الحضارة في غرناطة في عصر بني الأحمر، ص ٣١٦ -٣١٧.

وقد زينت جدران هذه المدرسة بأبيات شعر لأبن الخطيب، يقول فيها[١]:

ألا هكذا تبنى المدارس للعلمِ	**وتبقى عهود المجد ثابتة الرسْمِ**
ويقْصدُ وجه الله بالعمل الرّضا	**وتُجنى ثمار العز من شجر العزمِ**
تفاخر مني حضرة الملك كلما	**تقدّم خصم في الفخار إلى خصْمِ**
فأجدى إذا ضم الغمامُ من الحيا	**وأهدى إذا جنّ الظلام من النجمِ**
فيا ظاعنا للعلمِ يطلب رحلةً	**كُفيتَ اعتراض البيدَ أو لجج اليمِّ**
ببابي حطّ الرحْل لا تنو وجهة	**فقد فزت في حال الإقامة بالغنمِ**
فكم من شهاب في سمائي ثاقب	**ومن هالة دارت على قمر تمِ**
يفيضون من نور مبين إلى هدى	**ومن حكمة تجلو القلوب إلى حُكمِ**
جزى الله عنّي يوسفا خير ما جزى	**ملوك بني نصر عن الدّين والعلمِ**

ونظرا للمكانة التي كانت تتمتع بها هذه المدرسة راح يقصدها ويفد عليها العديد من العلماء والطلاب من مختلف أنحاء المملكة ومن خارجها، مما أدى إلى ظهور الفنادق التي كانت تخصص لمبيت الطلبة فيها [٢]، وقد ألحق بمبنى المدرسة مصلى صغير، لا تزال أثاره قائمة إلى الآن [٣]، وكان فيها مكتبة غذاها ملوك غرناطة بمجموعة من الكتب [٤].

العمران الحربي:

تنبه المسلمون في الأندلس إلى خطر الإسبان منذ وقت مبكر من تاريخ الدولة الإسلامية الأندلسية، فبقوا متأهبين لذلك الخطر فترات طويلة، فظهر نتيجة لذلك عدد من المباني الدفاعية التي كان الهدف منها التصدي لأية هجمة قد يشنها الإسبان المسيحيون على بلادهم، ومن هذه المباني القلاع والحصون التي كانت تقام على أماكن مرتفعة حتى تسهّل عليهم عملية المراقبة والاستكشاف، فعديد المدن الأندلسية بنيت على أسس حربية لتعبر عن هذا القلق الذي ما برح يلازم المسلمين الأندلسيين [٥].

(١) شهاب الدين التلمساني، أزهار الرياض في أخبار عياض، ج ١، ص ٢٧٢.
(٢) انظر: صقر، محمد عبد الحميد (١٩٨٢)، تاريخ التعليم في الأندلس، دار الفكر العربي، القاهرة، ص ٣٩٧.
(٣) انظر: عنان، محمد عبدالله (١٩٦١)، الآثار الأندلسية الباقية في اسبانيا والبرتغال، مؤسسة الخانجي، القاهرة، ص ١٧٢.
(٤) انظر: المقري، نفح الطيب، ج١، ص ٥٥.
(٥) انظر: سالم، العمارة الإسسلامية في الأندلس وتطورها، ص ٢٣٦.

وقد كان لهذه الأبنية المعمارية ذات الطراز الحربي عظيم الأثر في نفوس الشعراء وتوجهاتهم، فقد عمد الشعراء إلى الوقوف أمام هذه لمباني التي كانت تشكل المنعة والأمان فتغنوا بها وبمن بناها.

وبما أن هذه المباني كانت تعد مركزا للقوة لمن يضع يده عليها، فقد كانت عرضة للكر والفر بين جيوش المسلمين وجيوش الإسبان، ويظهر هذا الكر والفر جليا في شعر تلك الفترة، ومن ذلك أن جيوش الإسبان استولت على حصن (كريكول)، فهبّ أحد سلاطين بني الأحمر في غرناطة لنجدته واستطاع أن يسترده، ويصور الشاعر أبو العلاء بن سماك العاملي ذلك الاسترداد ويعدّه فتحا عظيما، فيقول [١]:

فتحت سيوفك كريكول وإنه — في الفتح عنوان لما هو أكبرُ

ثغر على الأرض الفضاء طليعةٌ — فله على كل البسيطة مظهرُ

فالشاعر يصف هذا الحصن ويظهر وكأنه من شدة ارتفاعة أصبح مشرفا على كل البسيطة، ثم يصف الشاعر الحصن نفسه ويبين أنه عصي على الأعداء لا يستطيعون اقتحامه أو حتى محاصرته وكأن الحكماء جميعا وضعوا حكمتهم في تصميمه وعمارته في إشارة على شدة منعته، فيقول [٢]:

صعد العداة عليه أمنع معقلٍ — متمثلين بأنه لا يحصرُ

فسمت جيوشك منه أعلى شاهقٍ — يرتدُّ عنه الطّرف وهو محيَّرُ

في رأس سنٍ لا تقام سماؤه — من دونه قطر الغمام الممطرُ

فكأن هرمس بثّ حكمته به — وأدقّ فيه فكره الإسكندرُ

ويظهر الشاعر كيف أن الأعداء استسلموا وألقوا الأذعان على أعتاب هذا الحصن خوفا من الهلاك فيقول [٣]:

فضفا من النقع المثار عليهم — بُرْدٌ بأطراف الرماح محبرُ

فاستنزلوا مستسلمين وربما — أعيا الحماة حلول ما لا يقدرُ

ألقوا يد الإذعان خيفة هلكهم — وضلوعهم تندق أو تتفطرُ

---

(١) لسان الدين بن لخطيب، الكتيبة الكامنة، ص ١٩٩.
(٢) المصدر نفسه، ص ١٩٩.
(٣) المصدر نفسه، ص ١٩٩.

وقد ذكر الحصون والقلاع في الشعر في سياق التغني بالفتوحات العظيمة التي حققها السلاطين في حروبهم مع الإسبان، فابن الخطيب يصف لنا بعض الفتوحات التي استطاع أحد سلاطين بني الأحمر أن يضرب حصنا للأعداء ويخربه يسمى حصن (أستبه) رغم مناعته وشموخه، فيقول [١]:

ثمّ ارتقيت ثنية الثغر التي	**هي للضلال مُعَرّسٌ ومقيلُ**
ورميتها بعزيمة نصرية	**كادت لها شُمّ الهضاب تزولُ**
خودٌ تجلّتْ في منصة شاهق	**مختالة إكليلها الإكليلُ**
سامي الذرى متمتع أركانه	**يرتدّ عنه الطّرف وهو كليلُ**

ومن الشعراء الذين اعتنوا بوصف القلاع والحصون، الشاعر ابن فركون، وربما كان السبب في ذلك قربه من الأمراء والسلاطين وخاصة السلطان يوسف الثالث، فقد كان هذا السلطان يحث ابن فركون وبشكل دائم على وصف إنجازاته وتمجيدها خاصة تلك التي تتعلق بالدفاع عن غرناطة، ومن هنا نجد الكثير من هذه الأشعار التي تمدح من بنى هذه التحصينات الدفاعية، وهو ينظر إلى هذه المباني بأنها المنعة والأمان وهي لا تستلم ما دامت في أيدي السلطان.

ومن ذلك قول ابن فركون حينما طلب منه السلطان وصف المشهد الذي طلب فيه زيادة القصبة في حصن (المتلين)، فجاءت أبيات ابن فركون مشيدة بهذا المبنى [٢]:

ولله ثغر أقامت به	**جنودك بين الربى والوهادْ**
وشيدتَ مظهره مظهراً	**لعز قضى ذل أهل العنادْ**
أقمت شعائر دين الهدى	**لديه وقمت بفرض الجهادْ**

وغالباً ما ارتبط وصف العمران الحربي عند ابن فركون بمدح السلطان والتغني بإنجازاته " وعلمتُ أنه أيده الله يطلب منظوماً في وصف الحال فنظمت لحين وصولي للمحلة ما نصه"[٣].

---

(١) لسان الدين بن الخطيب، ديوان لسان الدين بن الخطيب، ص ٤٨٨.
(٢) ابن فركون، ديوانه، ١٣٩.
(٣) المصدر نفسه، ص ١٤٢.

وبعد هذه المقدمة نجد أن الشاعر ينظم أبياتاً ممتدحاً البناء الذي بنـــاه الـــسلطان مبتـــدئاً بغرضٍ متمثلاً بالغزل فيقول[١]:

ولا مثل مبنى معجب قد وضعته ... يقرب آمال المروع بعيدهُ

وباشرت بالنفس الكريمة أمره ... وذلك فخر ليس يبلى جديدهُ

يروم ولي النظم والنثر وصفه ... فيعجز عنه سجعه وقصيدهُ

وقد وقف ابن فركون على ذكر المباني الحربية التي أنشأها يوسف الثالث فيصف إحـــداها بقوله[٢]:

هي الهضبة الشمّاء بادٍ وقارها ... تحامى حماها ليلها ونهارها

فلم يرمها مرّ الجديدين بالبلى ... ولا راعها مثل البدور سرارها

وكعادته ينوه ابن فركون بصفات السلطان في معرض حديثه عن البناء، فهـــو يـــرى أن وضع البناء نفسه ما هو إلا تواضع لله، فإقامة البناء جاءت لرد كيد الأعداء وكأنها نـــوع مـــن التقوى، فمن تواضع السلطان أنه شارك بنفسه في البناء، يقول [٣]:

تواضع لله العظيم بوضعها ... تُصافح علوي الدراري دارها

على البرّ والتقوى أقام بناءها ... فقرّ على رغم العداة قرارها

وأسس مبناها بكفّ كريمة ... سحابُ نداها للعفاة انهمارها

وقد حجر الأعداء عن ربعها الذي ... تناقل بالأيدي لديه حجارها

تروق على الراحات حسنا كأنها ... كؤوس مُدام بالأكفّ مدارها

فالشاعر في معرض وصفه لهذا البناء والتغني به لم يأت على مدح الـــسلطان فحـــسب، وإنما أتى على من شارك في البناء من الجنود الذين باتت أحجار البناء في أيديهم وكأنها كؤوس المدام بأكف الشاربين، وفي هذا إشارة إلى أن عملهم الشاق هذا لا يشكل عبئا عليهم.

(١) ابن فركون، ديوانه، ص ١٤٢.
(٢) المصدر نفسه، ص ١٤٣.
(٣) المصدر نفسه، ص ١٤٣.

وفي موضع آخر يشير إلى أن قوة البناء ما هي إلا قوة من أمر ببنائه، وكأن البناء يستمد قوته وتفرده لتفرد بانيه، فيقول [١]:

حميت حماها كالضبارم والظّبا	**مشهّرة في الخافقين اشتهارها**
وقد نلت بالإنفاق برّا ورفعه	**فكم بدَرٍ نحو الأكف بدارها**
وجالت بها خدّام ملكك جولة	**فبان على الصنع الجميل اقتدارها**

فعودة الضمائر في (حميت) و (نلت) و (ملكك) تؤكد على ارتباط عظمة البناء بعظمة السلطان وهو أمر كانت آثاره بادية واضحة عنده في معظم القصائد التي تناولت وصف المظاهر الحضارية بشكل عام إذ أنه كان ينتقل من الوصف إلى المدح بطريقة سلسة سهلة بيحث يسقط عظمة الباني على البناء.

---

(١) ابن فركون، ديوانه، ص ١٤٤. الضبارم: الأسد.

الفصل الرابع

التجليات الحضارية في ميادين أخرى

الأطعمة والأشربة:

إن الطعام والشراب من أهم ضروات الحياة ومسلماتها، وليس هناك من شك أنّ الحديث عن الغذاء وصفاته وألوانه، وطرق إعداده وطبخه، وكيفية تقديمه، يكشف وجهاً أساسياً من وجوه الحياة الاجتماعية في غرناطة.

وقد عرف الأندلسيون ألوناً متعددة راقية من الأطعمة والأشربة تنبئ عن رفعة حضارتهم ورقيهم، ويؤكد ذلك ما ورد في " كتاب الطبيخ في المغرب والأندلس في عهد الموحدين" لمؤلف مجهول.

ويصور الشعر الأندلسي العديد من ألوان الأطعمة والأشربة وطرق طهيها وتحضيرها، إلا أنه لا يسعف بوضع قائمة مكتملة تشمل جميع المأكولات الأندلسية وأصنافها، ومن هذا الشعر قصيدة أنشأها الشاعر القاضي أبو عبد الله محمد بن علي ابن الأزرق [١]، وكان قد رحل عن الأندلس إلى المشرق في نهاية القرن التاسع الهجري[٢]، وقد أثاره الحنين إلى غرناطة وطعامها وشرابها[٣]، فنظم قصيدته هذه التي يحكي فيها تشوّقه إلى ألوان مشتهاة من الأطعمة المنوّعة. فيذكر اللحم، وطوابق الكبش المحشوة بالحمام والدجاج والعصافير، والبيض المقلي بالزيت، والدجاج المشوي، يقول[٤]:

---

(١) هو محمد بن علي بن محمد ابن الأزرق، أبو عبد الله (ت٨٩٦هـ) عالم اجتماعي سلك طريقة ابن خلدون، من أهل غرناطة، تولى القضاء بها إلى أن استولى عليها الإفرنج، فانتقل إلى تلمسان ثم إلى المشرق يستنفر ملوك الأرض لنجدة صاحب غرناطة، له كتب منها: "الإبريز المسبوك في كيفية آداب الحلوب" و "شفاء الغليل في شرح مختصر خليل" في فقه المالكية. انظر: المقري، نفح الطيب، ج٢، ص٦٩٩؛ والمقري ، أزهار الرياض، ج٣، ص٣١٧.

(٢) المقري، نفح الطيب، ج٢، ص٦٩٩.

(٣) انظر: الطوخي، مظاهر الحضارة في الأندلس، ص٨٩.

(٤) المقري، نفح الطيب، ج٣، ص٣٠٠.

واللَّحَم مع شحْمٍ وَمَعْ **طوابق الكبش[١] التّني**

والبَيضِ في المقلاةِ بال **زيت اللذيذِ الدُّهنِ**

وجِلْدَةِ الفروُّج مش **ويّأكثير السّمنِ**

ويوجه لسان الدين ابن الخطيب قصيدة إلى شيخه ابن الجياب يذكر فيها تشوّقه إلى اللحم المعروف بالمبرّد، وهو لحم يطبخ بماء وملح[٢]، وكان ذلك خلال سفره الذي نأى به عن هذا اللحم الذي يشتهيه، يقول[٣]:

يا واحِدَ العُليا بلاإلْبَاسِ **ابْعَثْ بسَهْمٍ من "أبي العباس"[٤]**

واعلم بأنّي لا أقلّدُ مَذْهَبي **"سفيانَ"[٥] يوماً خِيفةَ الوسواس**

ولِجَدٍّ من شرَح الكتابَ[٦] تَحَيُّزي **هذا إذا اخْتلَفَ انتماءُ النّاسِ**

فابْعَثْ به طيّاً بكُلِّ خفيَّةٍ **كالطيفِ في جُنْح الظّلامِ الغاسي**

فقد ورى عن اللحم المبرّد بكنية أبي العباس المبرّد النحوي الشهير (ت٢٨٦هـ)، وورّى عن لحم الثور بسفيان الثوري معبّراً عن عدم ميله إليه فهو لا يحب لحم الثور ويفضّل عليه لحم الخروف مكنياً عنه "بجد من شرح الكتاب"[٧].

ويعاود الشاعر القاضي أبو عبد الله محمد بن علي ابن الأزرق التعبير عن مشاعر هيامه بالثرائد، واشتياقه للإسفنج والشواء، واشتهائه للرقاق والأرز باللبن يقول[٨]:

---

(١) وكان الكبش يُحشى بالدّجاج وفراخ الحمام والعصافير واليمام جميعاً، انظر: مجهول، كتاب الطبيخ في المغرب والأندلس في عهد الموحدين، صحيفة الدراسات الإسلامية في مدريد، المجلدان التاسع والعاشر، ١٩٦١– ١٩٦٢، ص٣١.

(٢) انظر: الطرابلسي، حياة الشعر في نهاية الأندلس، ص٥٤٢.

(٣) لسان الدين بن الخطيب، ديوان لسان الدين بن الخطيب، ج٢، ص٧٢١

(٤) يقصد المبرّد، والمراد هنا اللحم المذكور.

(٥) يقصد سفيان الثوري، والمراد هنا لحم الثور.

(٦) لعله يقصد شارح كتاب سيبويه ابن خروف، وأراد هنا لحم الخروف.

(٧) الطرابلسي، حياة الشعر في نهاية الأندلس، ص٥٤٣.

(٨) المقري، نفح الطيب، ج٣، ص٣٠٠.

هلْ للثَّريد[١] عَوُدَةٌ | إليَّ قدْ شَوَّقني
تَغُوصُ فيه أنْمُلي | غَوْصَ الأكولِ المُحْسِنِ
ولي إلى الإسْفِنج[٢] شَوْ | قٌ دائمٌ يُطْربني
وللأرُزِّ الفضلُ إذ | تطْبُخُهُ باللَّبن[٣]
ولِلشِّوَّاءِ والرقا | ق[٤] من هيام أنثني

كما يصور دهشته بالجبن التي تشبه الورد، ويأتي على تعداد بعض الأطعمة التي يشتهيها، مثل (الكسكسو) الذي يشبه ما يعرف حالياً (بالمفتول)، ويقرن ابن الأزرق بين لذة هذا الطعام وحسن فتله وتحضيره، ويذكر المثومات التي تستعملها النساء حتى يومنا هذا عندما يردن شواء الدجاج، ويعدد الحلوى التي يفضلها، مثل؛ العصيدة، والبلياط، والزبزبنّ، ويصف ابن الأزرق الطريقة الحسنة لتحضيرها، فيقول[٥]:

واسكُتْ عن الجبنِ فإنَّ | بنْته تُذهِّلُني
ظاهِرُها كالوردِ أو | باطِنُها كالسوسنِ
وهات ذكر الكسكسو[٦] | فهو شريفٌ وسني
لا سيما إن كان مص | نوعاً بفتلٍ حَسَنِ
وإنْ ذكرْتَ غير ذا | أطْعِمةٍ في الوطن

(١) الثريد: وهو عبارة عن خبز يفتّت يُسقى بماء اللحم المتبل. انظر: مجهول، كتاب الطبيخ، ص١٦٥.

(٢) الإسْفنج: وهي فطيرة من العجين الرقيق المخمر تقلى بالزيت، وتؤكل مع العسل. انظر: دوزي، تكملة المعاجم العربية، ص١٣٣، ومجهول، كتاب الطبيخ، ص٧٤.

(٣) الأرز المطبوخ باللبن: نوع من الحلويات يطبخ فيه الأرز مع الحليب ويضاف إليه السكر والقرفة. انظر: مجهول، كتاب الطبيخ، ص١٧٠.

(٤) الرّقاق: خبز منبسط مرقق، وهو ضرب من الفطائر المحشوّة أو من الطلم (الجاتو). انظر: دوزي، تكملة المعاجم العربية، ج٢، ص١٨١.

(٥) المقري، نفح الطيب، ج٣، ص٣٠٠.

(٦) الكسكسو: وهو عبارة عن برغل يطبخ على البخار ثم يسقى بالحساء على اختلاف أنواعه. انظر: مجهول، كتاب الطبيخ، ص١٦٧.

فابدأ من المثوّما ت[١] بالجبنٍّ الممكن

من فوقها الفرّوج قد أُنهي في التسمن

وثن بالعصيدة[٢] ال تي بها تُطربُني

كذلك البلياط [٣] بالز يت الذي يقنعني

تطبخُهُ حتى يُرى يَحْمَرُّ في التَّلوُّنِ

والزبزبنُ[٤] في الصحا ف حسبُ أهلِ البطنِ

كل ذلك يظهر بجلاء مدى رقي حضارة الأندلس ورفعتها في هذا الجانب، كما يصور بوضوح مدى تنظيمها وانفتاحها على من حولها، فأنواع الأطعمة والأشربة متعددة متلونة، وطرائق تحضيرها تأخذ جانباً كبيراً من عنايتهم واهتمامهم.

وتنوعت محضرات الطعام ومحسنات مذاقها، مثل؛ التوابل، والبهار، وقد استخدمها أهل غرناطة في طهي الطعام وتحسين مذاقه، ولم يستغن الأندلسي عنها حتى إن عبد الكريم القيسي عدّها ضمن حاجات منزله اليوميّة. يقول[٥]:

وأنا في كل يومٍ رَبُّ إنفاقٍ وَغُرْمْ

ربُّ بيتٍ أكتريه لعيالي مع كَرْمْ

ودقيق أشتريه مع ملح ثم لحم

ثمّ عَسْلٍ مع سمْنٍ ثم خَلْعٍ معَ شَحْمْ

---

(١) المثومات: صلصة تتكون من الثوم والملح والفلفل والقرفة تضاف فوق لحم الدجاج. انظر: مجهول، كتاب الطبيخ، ص٣٢.

(٢) العصيدة: قمح يسلق بالماء ثم يسقى باللبن الحليب ثم يضاف إليه عسل منزوع الرغوة وشيءٌ من دسم اللحم المطبوخ مع شحمه ثم يضاف إليه زبد وسكر مدقوق وقرفة. انظر: مجهول، كتاب الطبيخ، ص١٨٠.

(٣) البُلياط: ضرب من الحساء تؤكل مع الزيت. انظر: دوزي، تكملة المعاجم العربية، ج١، ص٤٤١

(٤) الزبزبن: هو عند فونتير (كما جاء في تكملة المعاجم العربية) طعام متبّل من البندق المدقوق والخبز الفتيت والعسل. انظر: دوزي، تكملة المعاجم العربية، ج٢، ص٢٨٤.

(٥) عبد الكريم القيسي، ديوانه، ص٦١. الخلع: القديد المشوي، أو اللحم يطبخ بالتوابل.

ثم إبزارٍ لإصلاح　　　　مطاعيمي وأدمِ

وترتبط الحلوى بالطعام والشراب وتليهما بعد تناولهما في الغالب، ولذا فقد اهتم الغرناطيون بحلواهم وطرائق تحضيرها، حتى زخرت المائدة الغرناطية بألوان عامرة من الحلوى اشتهر من بينها نوع يسمى "المجبنات"، وهو نوع من القطائف يضاف إليها الجبن في عجينها وتقلى بالزيت الطيب[١]، وتفنّن الشعراء في وصف المجبنات تفنّناً يدعو للإعجاب[٢]. ومنهم الشاعر أبو البركات البلّفيقي الذي يشبه شكلها بالشمس المشرقة، لكنها سرعان ما تغرب في جوف الإنسان، فيقول[٣]:

ومُصْفَرةِ الخدَّين مطوية الحشا　　　　على الجبنِ والمصفرِّ يؤذنَ بالخوفِ

لها بهجةٌ كالشمسِ عند طُلوعِها　　　　ولكنّها في الحينِ تغْرُبُ في الجَوفِ

ولم تقتصر المائدة الغرناطية على اللحم والدجاج، فقد عرف الأندلسيون أنواعاً مختلفة من الأسماك، وكانوا يطلقون عليها اسم "الحوت"[٤]، وقد نصح الشاعر القيسي بأكل نوعٍ منها يسمى المص، فقال[٥]:

حذّارِ من أكلِ الحوتِ يا أحمدَ الرضى　　　　ففي أكلِهِ ضُرٌّ علمناه بالنَّصِّ

فإن كنت من قومٍ يُحبّون أكلَهُ　　　　فأفضَلُهُ ما مِنْهُ سُمِّيَ بالمُصِّ

وازدانت موائد الغرناطيين بأنواع كثيرة من الفواكه، منها؛ العنب، والتين، والتفاح، والخوخ، والكمثرى، والرّمان، والموز، وقصب السكر، وغيرها.

---

(١) المقري، نفح الطيب، ج١، ص١٨٤.
(٢) انظر: ابن زمرك، ديوانه، ص٨١، ١١٢، ٢٤٥.
(٣) المقري، نفح الطيب، ج٥، ص٤٧٨.
(٤) انظر: الطوخي، مظاهر الحضارة في الأندلس، ص٩١.
(٥) انظر: عبد الكريم القيسي، ديوانه ، ص٢٣٦.

وعرف أهل غرناطة البطيخ، وفيه يقول ابن زمرك[(١)]:

وقوْراءَ قُرْصُ الشَّمس منْ دُونِ حُسْنها وإنْ قُسِمَتْ مِنْها الأهِلَّةُ تَخْجَلُ

وكانت هذه الفواكه رفيقة لموائدهم وفي جلساتهم وسهراتهم، فهذا لسان الدين ابن الخطيب يدعو أحدهم إلى تناول العنب والتوت معه، فيقول[(٢)]:

لَعَلّكَ يَا حَبيبَ القَلْبِ تَأتي فَتَأكُلَ عندنا عِنباً وَتُوتا

ويصف رمانة معجباً بإبداع الخالق الذي أنضجها على أحسن صورة، فيقول[(٣)]:

رُمَّانَةٌ راقَ مِنْها مَنْظَرٌ عَجَبٌ تُريكَ صُورَتُها إبْدَاعَ باريها

كأنما حَبُّها دُرٌّ، وظاهِرُهَا حُقٌّ[(٤)] ومِنْ شَحْمِها قنٌ يواريها

وبلغ الأمر بالغرناطيين لتحضرهم ورقي حضارتهم أن كانوا يجففون الفواكه ليأكلوها في المواسم التي تنقطع فيها الفواكه الطازجة. ويقول في ذلك صاحب اللمحة البدرية: "وفواكههم اليابسة عامة العام، متعدّدة، يدّخرون العنب سليماً من الفساد، إلى شطر العام، إلى غير ذلك من التين، والزبيب، والتفاح، والرّمان، والقسطل، والبلوط، والجوز، واللوز، إلى غير ذلك مما لا يَنْفد، ولا ينقطع مدده إلاّ في الفصل الذي يُزهد في استعماله"[(٥)].

وتعددت المشروبات التي كان يتناولها الغرناطيون فكان أبرزها؛ اللبن، والماء المعطّر بخلاصة زهر الورد، والبرتقال، وشراب السفرجل، والتفاح، والتمر هندي، والجزر وغيرها[(٦)].

---

(١) ابن زمرك، ديوانه ، ص٢٤٥.

(٢) لسان الدين بن الخطيب، ديوان لسان الدين بن الخطيب ، ج١، ص١٨٧.

(٣) لسان الدين بن الخطيب، ديوان لسان الدين بن الخطيب ، ج٢، ص٧٥٢.

(٤) الحُق: وعاء صغير ذو غطاء يُتخذ من عاج أو زجاج أو غيرهما، انظر: المعجم الوسيط، مادة (حقّ).

(٥) لسان الدين بن الخطيب، اللمحة البدرية، ص٤٠.

(٦) انظر: مجهول، كتاب الطبيخ، ص٢٢٤- ٢٣٤.

وقد وصف ابن زمرك لبناً كان يشربه، فقال[١]:

وبَيْضاءَ مِنْ صِنْفِ الشّرابِ أدَرْتُها وَلَمْ أخْشَ إثماً لا ولا حاكَ في صدْري

تحسَّيْتُها صِرفاً وواليتُ شُرْبَهَا وعُدْتُ بشُكْرِ اللّهِ فيها منَ السُّكرِ

غِذائي الذي أطعِمْتُ أولَّ مَقْدَمي على الكونِ إذ أنشِيتُ من عَالمِ الأمْرِ

فلَسْتُ بِنَاسٍ ما حَيِيتُ لِفَضْلِها ولَسْتُ بسَالٍ حُبَّها آخرَ الدَّهْرِ

ومن المبهر معرفة الغرناطيين بالقهوة، واهتمامهم بها، وتناولهم إياها بكثرة، وقد عقد ابن الجياب مقارنة بين القهوة والخمر، فقال[٢]:

تَبَصَّرْ فحكما القهْوتين تخالفا فكمْ بينَ إثباتٍ لعقلٍ وإزهاق

وشتّانَ ما بين المُدامين فاعتبرْ فكمْ بين إنجاحٍ لسعي وإخفاق

فتلكَ تهادَى بين ظلمٍ وظُلمةٍ وهذي تهادى بين عَدلٍ وإشراق

وفي صدد الحديث عن هذا الملمح الحضاري في حياة الغرناطيين لا بد من الإشارة إلى الطريقة التي كان يقدم فيها الطعام، التي تنم عن تحضرهم ورقيهم، وحسن تدبير وتنظيم أمورهم كافة، وفي هذا الجانب وضع زرياب قوانين لتقديم الطعام، إذ يجب ألاّ تقدّم ألوان الطعام بلا نظام، وإنما يبدأ بأطباق الشوربا، ويتبعها مقدمات من اللحم، ثم ألوان الطيور المتبلة بالبهارات بمستوى الذوق الرفيع، وفي النهاية تأتي الأطباق المحلاة، مثل؛ الكاتو المصنوع من الجوز واللوز والعسل، أو معقود الفواكه المعطّرة المحشوّة بالفستق والبندق[٣].

وتعدى اهتمامهم إلى أدق من ذلك، فقد اهتموا بطرائق وضع أصناف الطعام والشراب وصفّها على سطح المائدة، إضافة إلى عنايتهم البالغة بغطاء المائدة، فقد استبدل زرياب أغطية مصنوعة من الجلد النّاعم بأغطية الموائد المصنوعة من الكتّان الخشن ليسهل تنظيفها [٤].

---

(١) ابن زمرك، ديوانه ، ص١١١.

(٢) المقري، نفح الطيب، ج٦، ص١٢٤.

(٣) انظر: بروفنسال، حضارة العرب في الأندلس، ص٥٠.

(٤) انظر: المقري، نفح الطيب، ج٣، ص١٢٨.

وموجز القول، إن أهل غرناطة عرفوا ألواناً راقية من الأطعمة، التـي أجـادوا طبخهـا وقدّموها للآكلين بأسلوب يتّفق وحسّهم الحضاري المترف[١]، وينسجم مـع رقـي حـضارتهم ورفعتها.

الملابس والزينة والعطور:

تبدّت حضارة أهل الأندلس في عصر بني الأحمر جلياً في ملبسهم وزينتهم، فقد اهتمـوا بحسن مظهرهم الخارجي ورتابته، ولذا فقد ازدهرت صناعة المنسوجات في مملكـة غرناطـة النصريّة ازدهاراً لم تبلغه من قبل[٢]. وعمّت هذه الصناعة المـدن الأندلـسية كافـة تقريبـاً. فاشتهرت ألمَريّة بصناعة الحرير والدّيباج الفاخر شهرة واسعة، وأكد ذلك المقري حين ذكر أنّه كان فيها ثمانمئة نول لصناعة الحرير، وألف نول لصناعة الحلل النفيسة والدّيباج الفاخر[٣]. كما اشتهرت بصناعة الكتّان أيضاً[٤]، ويدلل هذا العدد بوضوح على اتساع رقعة هذه الصناعة وعدد المشتغلين فيها، والمستهلكين لمنتوجاتها.

أما أهل مالقة فقد اشتهروا بصناعة الأقمشة الحريريّة ذات الألـوان المتنوعـة، وكـانوا يطرّزون نوعاً خاصّاً منها يسمّى "الحلل الموشية"[٥]. ومما ذكره ابن الخطيـب فـي رسـالته (مفاخرات مالقة وسلا) أنّ مالقة كانت "طراز[٦] الديباج المـذهّب[٧]، ومعـدن صـنائع الجلـد

(١) انظر: النوش، التصوير الفني للحياة الاجتماعية، ص١٨٤.

(٢) انظر: القاسمي، تاريخ الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس ، ص٨٦.

(٣) انظر: المقري، نفح الطيب، ج١، ص١٦٣.

(٤) انظر: لسان الدين بن الخطيب، مشاهدات لسان الدّين بن الخطيب، ص٨٢.

(٥) انظر: شبانة، يوسف الأول ابن الأحمر (سلطان غرناطة)، ص١٩٣.

(٦) الطّراز: الموضع الذي تنسج فيه الثياب الجيّدة، انظر: المعجم الوسيط، مادة (طرز).

(٧) الدّيباج: ضرب من الثياب سداه ولحمته حرير (فارسي معرّب)، انظر: المعجم الوسيط، مادة (دبج).

لمنتخب، ومِقْصَر[(١)] المتاع المشدود[(٢)]، ومضرب الدّست[(٣)] المضروب، وصنعاء[(٤)] صنائع الثياب"[(٥)].

وكان أعيان ووجهاء برجة وغرناطة وبسطة خاصة يلبسون نوعاً من الملابس الحريريّة عرف في الأندلس باسم "الملبد المختم" الذي يمتاز بخيوطه المتعدّدة الألوان[(٦)].

وتأثرت ملابس الأندلسيين في غرناطة في البداية بملابس البلاد المسيحيّة المجاورة[(٧)]، ومما يشير إلى ذلك حديث ابن سعيد _الّذي كان معاصراً لمحمد الأوّل_ عن غرناطة وأهلها الذين "كثيراً ما يتزيا سلاطينهم وأجنادهم بزي المجاورين لهم، سلاحهم كسلاحهم، وأقبيتهم[(٨)] من الإشكرلاط وغيره كأقبيتهم، وكذلك أعلامهم وسروجهم"[(٩)].

وكان ذلك مما لاحظه ابن خلدون وعزاه إلى تطلع المغلوب نحو الغالب وولعه به، وشغفه بتقليده والتّشبّه به في شعاره وزيّه ونحلته وسائر أحواله وعوائده، فيقول: " كما هو في الأندلس لهذا العهد مع أمم الجلالقة فإنّك تجدهم يتشبّهون بهم في ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم وأحوالهم حتى في رسم التماثيل في الجدران والمصانع والبيوت حتى لقد يستشعر من ذلك النّاظر بعين الحكمة أنه من علامات الاستيلاء والأمر لله"[(١٠)].

ولم تقتصر صناعة الملابس على استخدام الحرير، بل كانت تستخدم فيها مواد أخرى، مثل: الصّوف،والقطن، والفراء الذي كان يعتمد نوعه على نوع الحيوان الّذي يؤخذ منه الفرو، وكانت أثمن أنواع الفراء تؤخذ من حيوان السمور الذي يعمل من وبره الفراء الرفيعة في

---

(١) مِقْصَر: عصا القصار التي يدق بها الثياب، انظر: المعجم الوسيط، مادة (قصَر)، وعرّفها أحمد مختار العبّادي نقلاً عن دوزي أنها آلة لغزل الأقمشة القطنيّة. انظر: لسان الدين بن الخطيب، مشاهدات لسان الدين بن الخطيب، ص٥٩.

(٢) المتاع المشدود: أي كلّ ما يشدّ به مثل العمائم والأحزمة كما عرّفه أحمد مختار العبّادي نقلاً عن دوزي. انظر: لسان الدين بن الخطيب، مشاهدات لسان الدين بن الخطيب، ص٥٩.

(٣) الدّست: اللباس، انظر: المعجم الوسيط، مادة (الدست).

(٤) صنعاء: عاصمة اليمن وكانت مشهورة بمنسوجاتها، والمعنى هنا مجازي.

(٥) لسان الدين بن الخطيب، مشاهدات لسان الدين بن الخطيب، ص٥٩.

(٦) انظر: شبانة، يوسف الأول ابن الأحمر (سلطان غرناطة)، ص١٩٣.

(٧) انظر: الطوخي، مظاهر الحضارة في الأندلس، ص٧٤.

(٨) أقبية: جمع قباء وهي نوع من الثياب، انظر: ابن منظور، لسان العرب مادة (قبا).

(٩) المقري، نفح الطيب، ج١، ص٢٢٣. والإشكرلاط: نوع من الجوخ قرمزي اللون.

(١٠) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص١٤٧.

سرقسطة. وحيوان القنلية، وهو حيوان بحري أدقّ من الأرنب وأحسن وبراً وكثيراً مـــا يلـــبس فراؤه[١].

ولم تكن هذه الصناعات لولا اهتمام الأندلسيين عامة وأهل غرناطـــة خاصـــة بالتجمـــل وجمال المظهر والمنظر، واختيار الملبس الحسن، ولذا كان أهل غرناطة يميلون إلى الأناقة في الملبس ويستهجنون الابتذال فيه[٢]. وقد عدّ ابن خاتمة حسن الملبس وجماله دليلاً على نبل المرء ورفعته وعلو مكانته، فقال[٣]:

تحرَّ مِنَ الأثواب أرْفعها تَنَلْ	**أعزَّ محلٍّ ترتقي لالتماسِهِ**
ولا تَبْغِ في أمر اللِّباسِ تواضُعاً	**فعنوان نُبْلِ المرءِ حُسْنُ لباسِه**

ويدعو ابن خاتمة المرء لاختيار أحسن الملابس وأجودها، لأنه يتحصل من خلالها علـــى أرفع المراتب، وينال أحسن المواضع، ولا يرضى ابن خاتمة بالتواضع في هذا الأمر لأهميتـــه من وجهة نظره.

وإذا كان هذا حال ملابس الرجال، فكيف بملابس النساء؟ لا شك أن أزياء النّـــساء محـــط الاهتمام الأكبر، ولذا كان طابعها الأناقة والنّفاسة والتفنّن في الأشكال والأنواع[٤].

ولعل إلقاء الضوء على اهتمام الأندلسيين في عصر بني الأحمر بأدق تفاصيل ملابـــسهم التي يرتدونها بمختلف أشكالها وأنواعها وألوانها يبيّن مدى رقي حضارتهم، وتطور حياتهم.

---

(١) انظر: المقري، نفح الطيب، ج١، ص١٩٧؛ والنوش، التصوير الفني للحياة الاجتماعية، ص١٩٥.

(٢) انظر: الطوخي، مظاهر الحضارة في الأندلس، ص٧٤.

(٣) ابن خاتمة الأنصاري، ديوانه ، ص١٦٢.

(٤) انظر: لسان بن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص١٣٩.

أنواع الملابس:

العِمامة:

على خلاف العرب الذين حلّوا في الأندلس في بداية الفتح كان الأندلسيون في عصر بني الأحمر لا يتخذون العمائم غطاء لرؤوسهم، إلا قلة منهم، " فالعمائم تقل في زي أهل هذه الحضرة إلاّ ما شذّ في شيوخهم وقضاتهم وعلمائهم والجند الغربي منهم"[١].

وكان يغلب على أهل مملكة غرناطة، لا سيما في شرقها، تركهم العمائم، وفي ذلك يقول ابن سعيد الّذي شهد قيام دولة بني الأحمر: "وأمّا زي أهل الأندلس فالغالب عليهم ترك العمائم، لا سيّما في شرق الأندلس، فإنّ أهل غربها لا تكاد ترى فيهم قاضياً ولا فقيهاً مشاراً إليه إلاّ وهو بعمامة، وقد تسامحوا بشرقها في ذلك، ولقد رأيت عزيز بن خطّاب أكبر عالم بمرسية، وهو حاسر الرّأس، وشيبه قد غلب على سواد شعره. وأمّا الأجناد وسائر النّاس فقليل منهم من تراه بعمّة في شرق منها أو في غرب. وابن هود الذي ملك الأندلس في عصرنا رأيته في جميع أحواله ببلاد الأندلس وهو دون عمامة، وكذلك ابن الأحمر الّذي معظم الأندلس الآن في يده"[٢]، ولذا فإن اهتمام الأندلسيين بارتداء العمامة على رؤوسهم انحصر في الأعم على غرب مملكة غرناطة دون شرقها.

والعمامة قطعة القماش وحدها الّتي تلفّ عدّة لقات حول الطاقيّة[٣]. وكان أهل الأندلس يجعلون للعمامة ذؤابة يسدلونها من تحت الأذن اليسرى، أمّا العلماء فهم يرخونها ويصرفونها بين الأكتاف[٤].

والعمامة لباس خاصّ بالرّجال وحدهم دون النّساء[٥]. وقد حُرِّم على اليهود لبس العمائم؛ إذ "لا سبيل إلى يهودي أن يتعمّم البتّة"[٦].

---

(١) لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص١٢٦؛ اللمحة البدرية، ص٣٩؛ انظر أيضاً: ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج٤، ص١٣٤.

(٢) المقري، نفح الطيب، ج١، ص٢٢٢.

(٣) وكان يطلق عليها لفظ القُلُنسُوة. انظر: دوزي، المعجم المفصّل بأسماء الملابس عند العرب، ص٢٥١.

(٤) انظر: المقري، نفح الطيب، ج١، ص٢٢٢.

(٥) دوزي، المعجم المفصّل بأسماء الملابس عند العرب، ص٢٥٤.

(٦) المقري، نفح الطيب، ج١، ص٢٢٢.

وكان لسان الدين ابن الخطيب من الّذين يتعمّمون، فقد أنشده محمد بن عبد الـرّحمن الكرسـوطي الفاسي[١] وهو بمالقة يحاول لَوْثَ[٢] عمامته، وقد استعان بالغير على إحكامها، قال[٣]:

أمُعمِّماً قمراً تكاملَ حُسنُهُ	**أرْبَى على الشَّمسِ المُنيرَةِ في البَها**
لا تَلْتَمِسْ ممّن لَدَيكَ زِيَادةً	**فالبدْرُ لا يمتارُ[٤] مِنْ نُورِ السُّها[٥]**

وكان للعِمامة دلالة صوفيّة في بعض الأحيان[٦]، فقد توّج الإمام الخطيب أبو عبد الله بـن مرزوق[٧] الشاعر ابن زمرك عِمامة بعد أن هداه إلى طريق الخطبة ومنـاهج الـصوفيّة سـنة (٧٥٣ه)، وقد شعر ابن زمرك بكثير من الغبطة واسعدته تلك الهدية فارتجل بين يديه قائلاً[٨]:

تَوَّجْتني بعِمَامهْ	**تُوِّجْتَ تَاجَ الكَرَامهْ**
فَرَوْضُ حَمْدِكَ يُزْهَى	**مِنِّي بِسَجْعِ الحَمَامَهِ**

---

(١) هو محمد بن عبد الرحمن الكرسوطي، الفاسي، يكنى أبا عبد الله (٦٩٠- بعد ٧٦٠هـ)، نزيل مالقة، فقيه محدث، متكلم، عروضي، ولد بفاس وقدم على الأندلس عام (٧٢٢هـ)، ثم على مالقة وغرناطة، ولـه تـآليف منها: "الغرر في تكميل الطرر" و "الدرر في اختصار الطـرر". انظر: لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة، ج٣، ص١٣٠؛ وابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٣، ص٤٩٨؛ والمقري، نفح الطيب، ج٦، ص٩٧.

(٢) لوث: لاث الشيء لوثاً أداره مرّتين كما تُدار العِمامة والإزار، ولاث العِمامة علـى رأسـه أي عـصبها، انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (لوث).

(٣) المقري، نفح الطيب، ج٦، ص٩٦.

(٤) يمتارُ: من الميرة وهي الطّعام يمتاره الإنسان، أي يجلبه، انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (ميـر). والمقصود هنا أنّ القمر لا يستمد نوره من نور السُّها.

(٥) السُّها: كويكب صغير خفي الضّوء في بنات نعش الكبرى، انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (سها).

(٦) انظر: النوش، التصوير الفني للحياة الاجتماعية، ص١٩٣.

(٧) هو محمد بن أحمد بن محمد بن مرزوق، العجيسي، التلمساني، يكنى أبا عبد الله (٧١٠- ٧٨١هـ)، فقيه وخطيب من أعيان تلمسان، مشارك في فنون من أصول وفروع وتفسير، ينظم الشعر ويقيد ويؤلف، رحل مع والده إلى المشرق، ثم عاد إلى المغرب، فقرّبه السلطان أبو الحسن منه وجعله كاتم سرّه وإمام جمعه، وأمين رسالته، قدم إلى غرناطة عـام (٧٤٨هـ) واستقر بها وقصد بها للإقراء، وفي أواخر عام (٧٥٤هـ) رجع إلى المغرب واستقر بها ثم رحل إلى القاهرة واستمر قائماً فيـها إلى أن توفي، من مؤلفاته "شرح عمـدة الأحكام" و "شرح الأحكام الصغرى". انظر: المقـري، نفح الطيب، ج٥، ص ص٣٩٠- ٤١٩.

(٨) المقري، نفح الطيب، ج٧، ص١٦٦.

ومما لا شك فيه أن العِمامة تمنح لابسها وقاراً وتضفي عليه هيبة، إلاّ أنّ الشّيخ أبا البركات البلّفيقي يرى أنّها ليست قاعدة ثابتة[١]. فقد يرتدي المرء العِمامة وهو لا يتمتع بأدنى حدٍ من الوقار، فالأصل بالوقار أخلاق المرء نفسه لا ما يرتديه[٢]:

ما كُلُّ من شدَّ على رأسهِ	**عِمامةً يحظى بسَمْتِ الوَقارْ**
ما قيمةُ المَرْءِ بأثوابهِ	**السرُّ في السُّكانِ لا في الدِّيارْ**

الغِفارة:

وهي غطاء للرأس يلبسه الرّجال والنّساء، وهي للرّجال طاقيّة[٣]، وغالباً ما تلبس بدون عمامة[٤]. وهي للنّساء خرقة تكون على رأس المرأة تقي بها الخمار من الدّهن[٥]. ولبس أهل الأندلس غفائر الصوف الحمراء والخضراء، واختص اليهود بلبس الغفائر الصّفراء فقط[٦].

وقد أصاب البلى غِفارة ابن زمرك فأخذ يصفها ويقول [٧]:

وَبُليتُ من زَمَني بلبْس غِفَارَةٍ	**فكأنّما طللٌ من الأطْلالِ**
أكلَ الزّمانُ قديمَهَا وحَديثَها	**وتَخرَّبتْ بتخرُّبِ الأحوالِ**
لو كانَ لِي قمْحٌ أعالجُ طحْنهُ	**لم أفتقرْ مَعَها إلى غِرِ بالِ**

القناع، المقنع، المقنَعة:

وهو يشبه الخمار، حيث تستعمله النّساء لتغطية الوجه تماماً، فتضع شطراً منه فوق الرّأس تحت الإزار وتدلّي سائره من الأمام حتى الوسط فيخفين به ملامحهن وقسماتهن جميعاً،

---

(١) انظر: النوش، التّصوير الفنّيّ للحياة الاجتماعية، ص١٩٥.

(٢) المقري، نفح الطيب، ج٥، ص٤٨١.

(٣) انظر: إبراهيم، رجب عبد الجواد (٢٠٠٢)، المعجم العربي لأسماء الملابس في ضوء المعاجم والنّصوص الموثّقة من الجاهليّة حتى العصر الحديث، ط١، دار الآفاق العربيّة، القاهرة، ص٣٤٤.

(٤) انظر: المشهداني، الحياة الاجتماعيّة في الأندلس من الفتح إلى نهاية عصر الطّوائف، ص٢١٨.

(٥) انظر: دوزي، المعجم المفصّل بأسماء الملابس عند العرب، ص٢٥٥.

(٦) انظر: المقري، نفح الطيب، ج١، ص٢٢٢.

(٧) ابن زمرك، ديوانه ، ص٢٣٧.

ولكنّه مصنوع صنعاً مخلخلاً لئلا يحول بين النّساء وبين رؤيتهن مواقع أقدامهن في الطّرقات[١].

ويرى ابن فركون في القناع حاجز يحول دون رؤية الرّجال وجوه النساء الجميلات، ويمنعهم من التمتّع بحسنهن وجمالهن، يقول[٢]:

قدْ يُجْتَلى حُسْنُها لولا تَقنُّعُها وَيُجْتَنى زَهْرُها لولا تَجَنِّيها

ويخالفه في ذلك ابن خاتمة الأنصاري الذي يرى في قناع فتاته ما يزيدها جمالاً وفتنة، يقول[٣]:

قدْ كانَ في حُمْرِ المَقانِعِ مَقْنعٌ لِضَلالِ شأني وانْهمالِ شُؤوني

حتى دُهيتُ بحُمْرَةٍ في سُمْرَةٍ كالخمرةِ الصَّهْباءِ في تلوينِ

وأحياناً كان رجال الأندلس يرتدون القناع أيضاً، فلم يقتصر لبسه على النساء وحسب، فقد أشار ابن فركون إلى أنّ السّلطان يوسف الثالث كان يرتدي قناعاً منسوجاً من الذّهب الخالص، يقول[٤]:

أحْسِنْ بهِ مِنْ قِنَاعِ رَاق العُيُونَ جمالا

مِنْ خَالِصِ التِّبْرِ[٥] جَلّتْ صفاتُهُ أن تُنالا

شمسُ الأصِيلِ حَكَتْهُ لَوْناً وحُسناً وحالا

---

(١) انظر: دوزي ، المعجم المفصّل بأسماء الملابس عند العرب، ص٣٠٥.

(٢) ابن فركون، ديوانه ، ص٢٦٠.

(٣) ابن خاتمة الأنصاري، ديوانه ، ص٦٨.

(٤) ابن فركون، ديوانه ، ص٢٦٧.

(٥) التّبر: الذّهب، انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (تبر).

النّقاب:

وهو غطاء للرأس يشبه النقاب الذي ترديه النساء في زمننا هذا، ويقارب شكله البرقع، غذ كانت النساء تنقب منه موضع العينين(١). وقد ارتدته المرأة الأندلسيّة.

وعدّ ابن خاتمة النّقاب مخفياً لجمال المرأة وساتراً لحُسنها، يقول(٢):

تزرُّ على البدْرِ المنير جُيوبَها فلا حُسْنَ إلاّ ضِمْنَ ذاكَ المُنَقَّبِ

ويشبه ابن جزي الكلبي(٣) نساء غرناطة وقد خلعن نقابهن كأنهنّ الشّموس ضياءً ونوراً، فيقول(٤):

شموسٌ إذا ما أمَطْنَ النِّقابَ بُدُورٌ إذا ما حَلَلنَ العِقاصا(٥)

وكانت العروس ترتدي النقاب أيضاً، وقد استلهم ابن خاتمة الأنصاري صورتها في نقابها وقد خلعته فتبدى حسنها وبهاؤها ليشبه بها جمال الأرض بعد أن ارتوت من ماء السّماء واخضوضرت وازينَّت وفاح عطرها وانتثرت أزاهيرها، فمثلها كمثل العروس التي خلعت نقابها وكشفت عن وجهها الجميل المشرق. يقول(٦):

شَقّتْ على الأرضِ السَّماءُ جيوبَها فألْمَحْ سَنَاهَا أو تَنَسَّم طيبَها

سَحبَ السَّحابُ بها فضولَ ذُيولِه فوَشى أباطِحَها ولَمَّ شُعوبَها

فأتتْ كما نَضَتْ العَروسُ نِقابها وجَلتْ عَنْ الوَجْهِ الجَميلِ شُروبَها

---

(١) انظر: دوزي، المعجم المفصّل بأسماء الملابس عند العرب، ص٣٤٢.

(٢) ابن خاتمة الأنصاري، ديوانه ، ص٧٢.

(٣) هو محمد بن محمد بن أحمد، ابن جزي الكلبي، أبو عبد الله (٧٢١- ٧٥٧هـ)، من أهل غرناطة وأعيانها، شاعر من كتّاب الدواوين السلطانية، ولد بغرناطة وله نظم ونثر، استكتبه أبو الحجاج يوسف ابن الأحمر، ثم ضربه بالسياط من غير ذنب اقترفه، وظلمه ظلماً مبينا، ففارقه وانتقل إلى المغرب وأقام بفاس، وحظي عند ملكها المتوكل أبي عنان المريني، وتوفي فيها، له كتاب في " تاريخ غرناطة " وقد أملى عليه ابن بطوطة رحلته فكتبها سنة (٧٥٦هـ). انظر: لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة، ج٢، ص٢٥٦؛ وابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٤، ص١٦٥، والمقري، نفح الطيب، ج٥، ص٥٢٦.

(٤) انظر: ابن الأحمر، نثير فرائد الجمان، ص٢٩٨.

(٥) العقاصا: الضّفائر، انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (عقص).

(٦) ابن خاتمة الأنصاري، ديوانه ، ص٤٥- ٤٦.

اللّثام والبُرْقع:

إن اللثام نوع من أردية الوجه ارتداه أهل الأندلس رجالاً ونساءً لتغطية الجزء الأسفل من وجوههم[١]. وهو ردُّ المرأة قناعها على أنفها، وردّ الرّجل عِمامته على أنفه[٢].

وقد تغزّل الشّعراء الأندلسيون بالمرأة وصوروا جمالها وقد خلعت لثامها، ومنه قول الشاعر[٣]:

أماطتْ عن الخدِّ اللّثامَ فأطْلَعَتْ　　　هلالاً على غُصنٍ وغصناً على حِقْفِ[٤]

أما البرقع؛ فقد اتّخذته المرأة الأندلسيّة غطاءً لوجهها، إلاّ أنّه كان يُثقب في موضع العينين[٥] وارتدت النّساء في الأندلس الخمار واتّخذت منه حجاباً تغطّي به مقدّمة العنق والفم[٦]. فهذه صاحبة ابن خاتمة الأنصاري تخفي وجهها ببرقع مخافة الرّقيب، فيقول في وصفها [٧]:

قالَتْ: رقيبي مُقْبلٌ　　　وتَبَرْقَعَتْ حذَرَ الرَّقيب

فَنَظَرْتُهُ فإذا بِهِ　　　من حُبِّها فوْقَ الّذي بي

كما لبس أهل غرناطة الطيلسان وهو كما وصفه دوزي: " نوع بسيط من الخمار الذي يطرح على الرّأس والكتفين أو يلقى أحياناً على الكتفين فقط، وكان معروفاً وشائع الاستعمال بين العامّة والخاصّة "[٨]. "ولا تجد في خواص الأندلس وأكثر عوامهم من يمشي دون طيلسان إلاّ أنّه لا يضعه على رأسه منهم إلاّ الأشياخ المعظمون"[٩].

---

(١) انظر: دوزي، المعجم المفصّل بأسماء الملابس عند العرب، ص٣٢٢.
(٢) انظر: إبراهيم ، رجب عبد الجواد ، المعجم العربي لأسماء الملابس، ص٤٥١.
(٣) لسان لدين بن الخطيب، ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام، ص٦٢٥.
(٤) حقف: ما استطال واعوّج من الرّمل، انظر: المعجم الوسيط، مادة (حَقَفَ).
(٥) انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (برقع).
(٦) انظر: دوزي، المعجم المفصّل بأسماء الملابس عند العرب، ص١٤٠.
(٧) ابن خاتمة الأنصاري، ديوانه ، ص٢٢٨.
(٨) دوزي ، المعجم المفصّل بأسماء الملابس عند العرب، ص٢٢٩.
(٩) المقري، نفح الطيب، ج١، ص٢٢٢.

وعرف أهل الأندلس البرنس، واتخذوه لباساً لهم في السّفر[١]، وهو رداء أو ثوب، رأسه ملتصق به، أو رداء رأسه منه[٢]. وقد عبر ابن الخطيب عن شكل البرنس مشبهاً بها اكتساء جبل شلير بالثّلج، فقال[٣]:

هوَ الشّيخ أبْرَدُ شيءٍ يُرَى   إذا لَبِسَ البُرْنُسَ الأبيَضَا

ثانياً: ملابس البدن:

البُرْد:

عرفه الأندلسيون بوصفه نوعاً من أنواع الألبسة، وشاع استعماله بين رجالهم ونسائهم على حدٍ سواء[٤]. وهو " قطعة طوليّة من القماش الصوفي السميك. وقد كان في العهود القديمة مخططاً على الدّوام"[٥].

وكانت المرأة الأندلسية تزدان بلبس البُرد، فتاسر قلب من يراها، وهذا ما جرى مع الشاعر عبد الكريم القيسي الذي أسَرَته إحداهن وقد ارتدت برداً موشّى، فقال فيها[٦]:

تردّى رداءَ الحُسنِ بُرْداً مفَوّفاً[٧]   فمَالتْ لهُ بالحبِّ منّي الجوارحُ

ولم يقتصر لبس البرد على عامة الناس دون خاصتهم، فقد لبس السّلطان في غرناطة البُرْدَ أيضاً، وقد ذكر ذلك ابن زمرك عندما أورد البرد _ في رثائه للغني بالله عندما تسلُّم ولي عهده يوسف الثاني السّلطة_ لكنه أراد به صاحبه، فقال[٨]:

وإن طوَتْ البُرْدَ اليمانيَّ يَدُ البلى   فقدْ نُشِرَ البُرْدُ الجديدُ المفوَّفُ

---

(١) انظر: فرحات، غرناطة في ظل بني الأحمر، ص١٢٩.
(٢) انظر: إبراهيم، رجب عبد الجواد، المعجم العربي لأسماء الملابس، ص٦١.
(٣) لسان الدين بن الخطيب، ديوان لسان الدين بن الخطيب ، ج٢، ص٦٤٣.
(٤) انظر: المشهداني، الحياة الاجتماعية في الأندلس من الفتح إلى نهاية عصر الطوائف، ص٢٢٢.
(٥) إبراهيم، رجب عبد الجواد ، المعجم العربي لأسماء الملابس، ص٥٤.
(٦) عبد الكريم القيسي، ديوانه ، ص١٤٠.
(٧) البرد المفوف: الذي فيه خطوط بيض على الطّول، انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (فوف).
(٨) ابن زمرك، ديوانه ، ص٤٤٠.

المِرط:

وهو كل ثوب غير مخيط ينسج من خز أو صوف أو كتّان[١] يـؤتزر بـه، وتتلفـع بـه النّساء[٢].

وقد ذكره الشعراء الأندلسيون في أشعارهم.

وتلحّفت نساء الأندلس بالمرط، وعممت المِرط على كامل جسمها، وهذا ما يبدو من قول لسان الدين ابن الخطيب[٣]:

وألْحَفَ مِنْكَ اللهُ أمّةَ أحمدٍ   أمانا كما يضفو على الغادةِ المِرطُ

الوشاح:

وهو قطعة عريضة من الجلد مزركشة بالأحجار الكريمة تلبسه النّساء[٤]. وغالباً ما يكون عريضاً يرصّع بالجواهر تشدّه المرأة بين عاتقها وكشحيها[٥].

وقد جاء الشّعراء الأندلسيون على ذكر وشاح المرأة، وتغنوا به لأنه يظهر جمال المـرأة ويبرز مفاتنها، وإذا ما ارتدته المرأة وبانت دقة خصرها، وتلك صفة من صفات الجمـال عنـد المرأة[٦]، غدت به أكثر بهاءً وأناقة.

وصور ابن خاتمة وشاح محبوبته الفضفاض، فيقول [٧]:

خصيبةُ طي الأزْرِ جَدْبٌ وِشَاحُها   فَردفٌ لبغدادٍ وعِطْفٌ ليثربِ

---

(١) انظر: إبراهيم، رجب عبد الجواد ، المعجم العربي لأسماء الملابس، ص٤٦٤.

(٢) انظر: المعجم الوسيط، مادة (مَرَطَ).

(٣) لسان الدين بن الخطيب، ديوان لسان الدين بن الخطيب ، ج٢، ص ٤٥٩.

(٤) انظر: دوزي ، المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، ص٣٤٦.

(٥) انظر: المعجم الوسيط ، مادة (وشَحَ). والكشح: ما بين الخاصرة والضلوع، انظر: المعجم الوسيط، مادة (كَشَحَ).

(٦) انظر: المشهداني، الحياة الاجتماعية في الأندلس من الفتح إلى نهاية عصر الطوائف، ص٢٢٩.

(٧) ابن خاتمة الأنصاري، ديوانه ، ص٧٢.

ودقة خصر محبوبته تسمح للوشاح بالحركة بحرية، فهي ليست امرأة بدينة سمينة، ثقيلـــة الخطى، يقول فيها ابن خاتمة [(١)]:

صَمَتت خَلاخِلُها وأنّ وِشَاحُها   وكِلاهُما مِثْلي غدا مَوْصُوبهَا

وقد وقع الشّاعر الملك يوسف الثالث بحبّ ذات الوشاح، وأســـرت قلبــه بجمالهـــا حـــين ارتدته، فقال فيها [(٢)]:

أمِنْ أجْلِ زَوْرٍ[(٣)] لذات الوشاح   غدا القلبُ مُغرىً بها مستَبَاح

القُرْطُق:

وهو سترة قصيرة (أو قميص) تسبل على الكتفين وتنساب حتى وسط الجسم. ويلـــي الـــسترة (القميص) الجسم مباشرة ولها كمّان يصلان إلى المرفقين[(٤)]. وقد اتّخذه أهل الأندلس لباساً لهم.

ويُظْهر قول الشاعر الملك يوسف الثالث أن المرأة الأندلسيّة تزينـــت بلـــبس القراطـــق، واختالت بها[(٥)]:

وعُلّقْتُه كالغُصْن بين حدائق   يختالُ بين قراطق ومناطق

والمناطق: جمع نطاق وهو أن تلبس المرأة ثوبها ثمّ تشدّ وسطها بشيء وترفع وسط ثوبها وترسله على الأسفل عند معاناة الأشغال، لئلا تتعثر في ذيلها[(٦)].

---

(١) المصدر نفسه، ص٨٦.

(٢) يوسف الثالث، ديوان ملك غرناطة، ص٢٥.

(٣) زَوْر: الزّوْر: الصدر، انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (زور).

(٤) انظر: دوزي، المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، ص٢٩٢.

(٥) يوسف الثالث، ديوان ملك غرناطة، ص١٤٩.

(٦) انظر: ابن منظور ، لسان العرب، مادة (نطق).

ويهب الشاعر الملك المتيّم نفسه فداءً لصاحبة القُرطق، التي سبته بجمالها، وملكت قلبه بقرطقها، يقول[١]:

أوَ ما دَرَى أنَّ الهوَى	**أحكامُهُ متقاضِيهْ**
نَفْسي فِداءَ مُقَرْطَقٍ	**يُدنيه حُسْنُ رَجَائِيَهْ**

الإزار:

وهو لباس طويل فضفاض ترتديه النّساء فوق فساتينهن وتخفي تحته ملابسهن، ويسمّيه أهل غرناطة الملحفة[٢]. ويذكر ابن بسام أن النساء الأندلسيات كُنَّ يرتدينه، وهو " لهن أخْلَقُ، وبهن ألْيَق"[٣].

وتتنوع المواد التي يصنع منها الإزار، فقد يكون من الحرير أو الصّوف، ويزينه زركشات وحواشٍ من الجوانب، تُطوى طيّات غاية في الذّوق والإبداع وتتعلّق بالصدر، وقد ترصَّع ببعض الحلقات والأقراط ومواد الزّينة ويخترقها دبّوس، وهذه التحليات ذهبيّة كانت أم فضيّة، إنما هي لدى الأغنياء، أمّا لدى الطّبقات الأخرى فهي عندهم من المعدن[٤]. قال ابن خاتمة في إزار محبوبته التي تغدو به مثل القمر في غاية بهائها وأناقتها[٥]:

هيفاءُ تَهْتَزُ عنْ قضِيبٍ	**وتنجلي عَنْ سَنَا قمر**
شدَّتْ إزاراً على كثيبٍ	**لو خَانهُ العِقْدُ لانفطر**

---

(١) يوسف الثالث، ديوان ملك غرناطة ، ص١٦٢.

(٢) انظر: نصر، تاريخ أزياء الشّعوب، ص٣١٨.

(٣) الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ق٣، م٢، ص٣٧٨.

(٤) انظر: دوزي ، المعجم المفصّل بأسماء الملابس عند العرب، ص٣٥.

(٥) ابن خاتمة الأنصاري، ديوانه ، ص١٧٤.

ويتغزل ملك غرناطة يوسف الثالث بصاحبته غزلاً عفيفاً، ويذكر إزار محبوبتــه الــذي يجللها، فيقول[(١)]:

فَمِن غَمَزاتِ ألحاظٍ وكَفٍ ومِنْ ضمٍّ إلى قُبَلٍ لِطافِ
وما دَونَ الإزار فَخَلٍّ عَنْه فإنّ الصَّونَ مِنْ شَأنِ الظرافِ

الحُلَّة:

وهي قطعتان من الثياب هما الإزار والرّداء معاً، ولا تكون إلاّ بهما، وسميت حُلَّة لأنّ كل واحد من الثوبين يحلّ على الآخر[(٢)]، وتكون مصنوعة _ في الغالب _مــن الحريــر الموشّــى بخيوط ذهبيّة أو فضية.

ولم يقتصر ارتداء الحلة على النساء الأندلسيات دون الرجال، فقد ارتدى الغني بالله حلَّــة حمراء فقال في مدحه ابن زمرك [(٣)]:

طَلَعَ البدرُ جانِبَ الحمْرَاءِ وهو يَزْهى بالحُلَّة الحمْرَاءِ

وقد استخدم أهل الأندلس نوعاً آخر من ملابس البدن عُرِفَ بالمُلاءة وقد لبــستها النّــساء والرّجال أيضاً. وتميّزت المُلاءة التي ترتديها النساء الأندلسيات بتألفها من شقتي قطن منسوجتين تربيعات زرقاء وبيضاء، أو على هيئة خطوط مائلة منحرفة، مشوبة باللون الأحمر تــستر بهــا جسمها كله، أما مُلاءة الرجال فقد كانوا يتشحون بها فوق الكتفين أو حول البدن[(٤)]، مــع إبقــاء الذّراع اليمنى مكشوفة بغية استعمالها[(٥)]. كما لبس أهل الأندلس الحَبْــرَة، وهــي رداء واســع مخطّط. والجبّة التي صارت من ألبسة أهل الأندلس منذ أن سنّ لهم زرياب عادة لــبس جبــاب الخز في الرّبيع، ويبدو أنها إن كانت كذلك فهي لباس الأغنياء من الرّجال والنّساء. أمّا العامّــة فكانت الجبّة عندهم من القطن أو الصّوف[(٦)].

(١) يوسف الثالث، ديوان ملك غرناطة، ص١٩٦.
(٢) انظر: إبراهيم، رجب عبد الجواد ، المعجم العربي لأسماء الملابس، ص١٣٦.
(٣) ابن زمرك، ديوانه ، ص٢٧٧.
(٤) انظر: إبراهيم، رجب عبد الجواد ، المعجم العربي لأسماء الملابس، ص٤٦٤.
(٥) انظر: دوزي ، المعجم المفصّل بأسماء الملابس عند العرب، ص٣٣٠.
(٦) انظر: فرحات، غرناطة في ظل بني الأحمر، ص١٢٩.

وارتدت المرأة الأندلسية السراويل. ويُحكى أنّ أبا البركات البلّفيقي "كان جالساً في دهليز بيته مع بعض الأصحاب، فدخلت زوجته من الحمّام وهي بغير سروال لقرب الحمّام من البيت، فانكشف ساقها فدخل خلفها مسرعاً، وغاب ساعة ثمّ خرج وأنشدْ [١]:

كَشَفَتْ على ساقٍ لها فرأيتُهُ   متلألئاً كالجوْهَرِ البرّاق

لا تعجبوا إنْ قامَ مِنْهُ قيامتي   إنَّ القيامةَ يومَ كَشْفِ الساقِ

ولتغطية أقدامهم كان الرّجال والنساء في غرناطة يرتدون الجوارب الصوفيّة أو القطنيّة[٢]، وينتعلون أخفافاً سوداء طرفها الأمامي مستطيل ومعقوف. وانتعلوا الصندل الجلدي والقبقاب الخشبي داخل البيت [٣].

وتشابه الرّجال والنّساء في الأندلس على حدٍ سواء في استعمالهما القباقب داخل الحمّامات، إلا أنّ النّساء قصدن من لبسها تفادي تجرير أذيال أثوابهن على الأرض وبعضهن يستعملنها لإطالة قاماتهن[٤]. وكانت تصنع من الخشب وتزين أحياناً بالزّخارف وترصع بأصداف اللؤلؤ.

ويصف لسان الدّين ابن الخطيب قباقباً خشبيّة أهديت إليه، فيقول[٥]:

قدْ قبلْنا جيَادَكَ الدُّهْمَ لما   أن بَلَوْنَا مِنْها العِتَاقَ الحِسَانا

أقبَلَتْ خَلْفَ كُلِّ حِجْرٍ[٦] تَبيعٍ   خَلَعَتْ وَصْفَهَا عليه عِيَانا

وأرَدْنا امْتِطاءَها فاتّخَذْنا   من شِرَاكِ الأديمِ فيها عِنَانا

وقد صور ابن الخطيب تلك القباقب الخشبية كأنها جياد دهم عتاق، يمتطيها متخذاً سيورها الجلديّة أعنّة.

---

(١) المقري، نفح الطيب، ج٥، ص٤٨٧.

(٢) انظر: نصر، تاريخ أزياء الشّعوب، ص٣١٨.

(٣) انظر: فرحات، غرناطة في ظل بني الأحمر، ص١٢٩.

(٤) انظر: دوزي ، المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، ص٢٨١.

(٥) لسان الدين بن الخطيب، ديوان لسان الدين بن الخطيب ، ج٢، ص٥٩٦.

(٦) حِجْر: الفرس الأنثى، انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (حجر).

ولعلّ ما دفعه لهذا التشبيه ذلك الشبه بين ما تُحدثه القباقب عند المشي من طرطقة ووقع حوافر الخيل وهي تندفع إلى ميدان القتال[١].

وذكر لسان الدين ابن الخطيب في مشاهداته أنّ السيّدات في غرناطة كنّ ينتعلن في أرجلهن خفّاً غليظاً من الجلد يلبس فوق خفّ أدقّ منه يدعى الموق[٢].

ألوان الملابس:

دلت ألون ملابس الاندلسيين بجلاء على رقي ذوقهم وتحضرهم، فتميّزت ملابسهم بتصميم خاص، وألون زاهية رائعة، كان أكثرها شيوعاً عندهم، اللون الأبيض، والأحمر، والأزرق، والأصفر الذهبي، ولم يقتصروا على لون واحد معيّن للباسهم، ولكنهم كانوا يرتدون خليطاً من الألوان المتعدّدة[٣]، " فتبصرهم في المساجد أيّام الجمع كأنهم الأزهار المفتّحة في البطاح الكريمة تحت الأهوية المعتدلة"[٤].

وبلغ الأمر بانضباطهم وانتظامهم أن وضع لهم زرياب المغنّي (ت٢٤٣ ه) جدولاً زمنيّاً يلبسون بموجبه أصناف الثياب حسب الزّمان الّذي يليق بها. ففي الصّيف _مثلا _ يلبس النّاس الأبيض منذ نهاية شهر يونيو إلى مطلع شهر أكتوبر، أما بقية السنة فيلبسون الثياب الملوّنة. ويرتدون الملابس الملوّنة الزّاهية التي لا بطائن لها في فصل الربيع، وفي نهاية الصّيف وأوائل الخريف يلبسون المحاشي المروية والثياب المصمّتة وما شاكلها من خفائف الثياب الملوّنة ذوات الحشو والبطائن الكثيفة إلى أن يقوى البرد فينتقلون إلى أثخن منها من الملوّنات وصنوف الفراء[٥].

وبصرف النّظر عن التزام أهل مملكة غرناطة بهذا المنهج أم لا، فقد كان اللون الأبيض أكثر ألوان الملابس شيوعاً فيها، بل أقربها لأذواق النّاس في حياتهم الطّبيعيّة وفي مناسباتهم الجليلة[٦].

---

(١) انظر: الطرابلسي، حياة الشّعر في نهاية الأندلس، ص٥٤٠.

(٢) انظر: لسان الدين بن الخطيب، مشاهدات لسان الدين بن الخطيب، ص٩٦.

(٣) انظر: النوش، التصوير الفنّيّ للحياة الاجتماعية، ص١٩٨.

(٤) لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص١٣٥؛ اللمحة البدرية، ص٣٩.

(٥) انظر: المقري، نفح الطيب، ج٣، ص١٢٨.

(٦) انظر: النوش، التصوير الفنّيّ للحياة الاجتماعية، ص١٩٨.

ومن تلك المناسبات ما كان أهل غرناطة في استقبالهم للسّلطان أبي الحجّاج يوسف الأوّل بوادي آش شمال شرق غرناطة، حيث ذكر ابن الخطيب أنّ الأهالي استقبلوه استقبالاً رائعاً بملابسهم البيضاء، فقال: " استقبلت البلدة _حرسها الله_ في تبريز سلب الأعياد احتفالها، وغصبها حسنها وجمالها ونادى بأهل المدينة، موعدكم يوم الزّينة. فسمحت الحجال برباتها والقلوب بحباتها فرأينا تزاحم الكواكب بالمناكب وتدافع البدور بالصّدور بيضاء كأسراب الحمائم"(١).

ومن الألوان الّتي شغف بها أهل غرناطة وأقبلوا عليها اللون الأحمر، وترك ظهور النساء الأندلسيات بهذا اللون أثراً عظيماً في نفوس الشعراء الأندلسيين فزادهم حبّاً وشغفاً بهن، ومن ذلك ما جاء على لسان الشّاعر الملك يوسف الثالث(٢):

تَاللّهِ ما أهْوى سِوى قمر ... مُتورِّدِ الجِلْبابِ والخَدِّ

غير أن هذا اللون ذاته كان موضع سخرية أبي البركات البلّفيقي الذي أنكر على شيخ قد صبغ شيبه ولبس ثوباً أحمر، فقال(٣):

أبياضُ شَيبٍ واحمرارُ ثيابِ ... أينَ التناسبُ يا أولي الألبابِ

تُبدي الخضابَ وقد مضى زَمَنُ الصِّبا ... وَقضى عَلَيْكَ بفرقةِ الأحبابِ

وكأن البلفيقي لا يرى هذا اللون مناسباً إلا للنساء أو الشباب، ولا يجده لائقاً بالشيوخ لأنه يفقدهم هيبتهم ووقارهم.

ولم يقتصر ارتداء الملابس الحمراء على العامة دون الخاصة، فقد تحّلى الغني بالله بحُلّةٍ حمراء، فقال ابنُ زمرك في مدحه (٤):

طَلَعَ البدرُ جانِبَ الحَمْراءِ ... وهو يَزهى بالحُلّةِ الحَمْرَاءِ

---

(١) لسان الدين بن الخطيب، مشاهدات لسان الدين بن الخطيب، ص٢٨.

(٢) يوسف الثالث، ديوان ملك غرناطة ، ص٤٥.

(٣) البلّفيقي، شعره ، ص٢٧.

(٤) ابن زمرك، ديوانه ، ص٢٧٧.

وأبدى الشعراء إعجابهم بالملابس ذات اللون الأصفر، ولم يروا غضاضة في ارتــدائها، فكان لها نصيب في شعرهم، ومن ذلك ما ذكره الشّاعر الملك يوسف الثالث حين أبدى إعجابه بها، فقال[١]:

مِنْ سَاحبٍ في فَجْرِهِ وأصيلِهِ   حُللاً أَتَتْ بمورِّسٍ وموردِ

وذكر صاحب النفح أن يهود غرناطة ارتدوا الغفائر الصّفراء [٢]، وقد شبّههم لسان الــدين ابن الخطيب وهم يؤدون صلاتهم بنبات البابونج وقد سقطت عنها أوراقها، فقال[٣]:

كأنَّ رؤوسَ القومِ عِنْدَ صلاتِهِمْ   وقدْ أَوْمَأَتْ للأرضِ صُفْرٌ شَواشيها

أقاحٍ[٤] أمالتها الرّياحُ على الثرَى   وقد أسْقَطتْ عنها بَيَاضَ حَواشِيها

واعتنى الأندلسيون ببهاء منظرهم وجمال زيّهم، وهذا يعكس بالضرورة مستوى تحضرهم الرفيع، وقد كان بعض الأندلسيين يزيّنون ملابسهم بنقش الشّعر عليها، وقد طرّزت أبيات ابــن زمرك على ثوب سماوي جميل أهداه سلطان غرناطة الغني بالله إلى الــسّلطان أبـــي العبّــاس المريني سلطان المغرب الأقصى، وهي بمقدار ما تمجّد السّلطان فإنّها تعطـــي للثـــوب روعـــة وجمالاً خالداً[٥]:

أهدي أبا العبّاسِ   ملْكَ النَّدَى والْبَاسِ

ثوبَ السّماءِ لأنّهُ   بدرٌ بدا للنّاسِ

---

(١) يوسف الثالث، ديوان ملك غرناطة ، ص١٧١. المورّس : هي الثياب التي صبغت باللون الأصفر.

(٢) انظر: المقري، نفح الطيب، ج١، ص٢٢٢.

(٣) لسان الدين بن الخطيب، ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام، ص٦٥٢.

(٤) الأقاح: البابونج: وهو نبات طيّـــــب الرّائحة حواليه ورق أبيض ووسطه أصغــر، انظر: الصحاح، مادة (قحا).

(٥) المقري، نفح الطيب، ج٧، ص٢٢٥.

إلى أن يقول:

وبطُرْزِهِ مدحٌ زرَى	**بالمَدْحِ في القِرْطاسِ**
إنْ كنْتَ في لَوْنِ السَّما	**ءِ بنِسْبةٍ وقياسِ**
فلأنتَ يا بدرَ العُلا	**شرَّفْتَني بلِبَاسِ**
فاللّه يُمتِّعُ لابَسِي	**بالبِشْرِ والإيناسِ**

ويخلص هذا الاستعراض لأنواع الملابس وألوانها في الشّعر الأندلسيّ إلى أنّ حضارة أهل مملكة غرناطة بلغت مبلغاً عظيماً، وتجلّت باعتنائهم بملابسهم وأرديتهم، واهتمامهم بأنواعها وأشكالها وألوانها اهتماماً بالغاً.

الزينة:

انسحب اهتمام الأندلسيين بملابسهم وألوانها وأشكالها على اهتمامهم بزينتهم، ليظهروا في أبهى منظر يعكس رفعة ذوقهم، ورقي حضارتهم، وليعبر عن مكانتهم الاجتماعية أحياناً، ولذا ؛ عُني أهل الأندلس بزينتهم ومظهرهم عناية شديدة، فعرفوا أنواعاً كثيرة من الحُلي، كما تفنّنوا في تصفيف شعورهم وتسريحها بأشكال لطيفة وجميلة(١).

وبما أن الأمر يتعلّق بالزينة والتجمّل فلا غرو أن يكون محطّ اهتمام المرأة الأندلسية بشكل أكبر، بصرف النظر عن مستواها الاجتماعي ووضعها المادي، لذا؛ حظيت أدوات التبرج ووسائل التزين باهتمام المرأة الأندلسية، فقد استعملت الكحل لعينيها، ووضعت الحِنّاء على أظفارها، كما صبغت شعرها بالخضاب، وتشاركت في هذه العادة مع رجال الأندلس(٢).

الحُلِيْ:

تميّزت المرأة الأندلسيّة بجمالها وأناقتها واهتمامها بزينتها، ويؤكد ذلك قول لسان ابن الخطيب: " وحريمهم حريم جميل، موصوف بالسّحر، وتنعم الجسوم، واسترسال الشّعور، ونقاء الثّغور، وطيب النّشر، وخفة الحركات وقد بلغن من التفنّن في الزّينة لهذا العهد والمظاهرة بين

---

(١) انظر: المصدر نفسه، ج٣، ص١٢٧.

(٢) انظر: فرحات، غرناطة في ظل بني الأحمر، ص١٣١.

المصبّغات، والتّنفيس بالذهبيّات والدّيباجات والتماجن في أشكال الحلي إلى غاية نسأل الله أن يغضّ عنهنّ فيها عين الدّهر"[١].

واتّخذت النّساء في غرناطة أنواعاً مختلفة من الحلي، مثل؛ القلائد والدّمالج[٢] والشّنوف[٣]، والأطواق، والخواتم، وغيرها. وكانت هذه الحلي من الذّهب الخالص لدى طبقة الخاصّة ومن الفضّة لدى العامّة. أمّا الطّبقة الارستقراطيّة فقد زيّنت حليها الذّهبيّة بالأحجار الكريمة، مثل؛ الياقوت، والزمرّد، ونفيس الجوهر [٤].

وجاء الشّعر الأندلسي على ذكر أنواع متعددة من هذه الحلي، وتعداد اشكال متنوعة منها، مصوراً ذلك الجمال والبهاء الذي تضفيه على لابسيها. ومنها:

العقود والأطواق:

إن العقود والأطواق هي من أكثر صنوف الحلي التي عرفتها المرأة الأندلسية واتخذتها أداة زينة ووسيلة تجمّل، فاهتمّت باقتنائها على اختلاف مستواها الاجتماعي، وقلّما تبدو المرأة في الشّعر الأندلسي بدونها، يقول لسان الدين ابن الخطيب مصوراً كثرة العقود والأطواق التي كانت تتزين بها المرأة الأندلسية حتى غصّ بها جيدها[٥]:

ونَلْثِمُ ما بين النُّحورِ إلى الطُّلى ... وإن هِي غُصَّت بالحُلَى والقلائدِ

ويقول في موضع آخر [٦]:

ولَمْ أنسَ إذ عانقْتُها لِوَدَاعِنا ... فخالطَ دُرُّ العِقدِ جَوْهرَ أدْمُع

لقد ذكر ابن الخطيب أدوات الزينة التي كانت تتحلى بها المرأة الأندلسيّة، مثل ؛ القلائد والحلى النفيسة، التي أنبأت بدورها عن حضارتها، ورقيها، وبيئتها المترفة، وذوقها الرفيع[٧].

---

(١) لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص١٣٩؛ اللمحة البدرية، ص٤١.

(٢) الدّمالج: الدُّمْلُجُ والدُّملوج: سوار يحيط بالعضد، انظر: المعجم الوسيط، مادة (دَمْلج).

(٣) الشّنوف: الشَّنْفُ: الذي يلبس في أعلى الأذن بفتح الشّين والذي في أسفلها القُرْط والجمع أشناف وشنوف. انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (شنف).

(٤) انظر: لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص١٣٩؛ اللمحة البدرية، ص٤٠.

(٥) لسان الدين بن الخطيب، ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام، ص٤٨٨.

(٦) المصدر نفسه، ص٦١٧.

(٧) انظر: يازجي، الغزل في الشّعر الأندلسي في ظل بني الأحمر، ص١٢١.

الأقراط والشّنوف:

زيّنت المرأة الأندلسيّة أذنيها بأصناف متعددة من الأقراط وأنواع متنوعة من الشّنوف، فعلقت الأقراط في أسفل الأذن، أمّا الشّنوف فزيّنت بها أعلى الأذن.

وقد تُيِّم ابن الخطيب بصاحبته وقد تحلّت بأقراط من ذهب خالص زادتها حسناً وجمالاً، فقال(١):

بِنَفْسِي غَزَالٌ قد غَزَتني لِحاظُهُ وتَيَّمَ قَلْبي حُسْنُهُ وَجَمالُهُ

هُوَ البدرُ والجوزاءُ(٢) قرطٌ مُعَسجَدٌ(٣) وَجُنْحُ الليالِي فرعُهُ ودَلالُهُ

واستلهم لسان الدين ابن الخطيب تلك الحركة السريعة الحرة للأقراط ليعبر عن طول عنق محبوبته، وهي من الصّفات التي أحبها الرّجل الأندلسي في المرأة، يقول(٤):

صبوتُ وما قلْبي بأوَّلَ مَنْ صبا لِناطِقةِ القُرْطين صامِتَةِ القُلْبِ(٥)

ويدلل قول ابن خاتمة الأنصاري على اتخاذ المرأة لهذه الحلي بهدف التزين والتجمل، إذ بلغت درجة جمال صاحبته مبلغاً جعلها تستغني عن أدوات التزيّن، يقول(٦):

حَسْناءُ قد جلَّتْ بِفَضْلِ جَمَالها عنْ زينةٍ بتطوُّقٍ وتشنُّفِ

وتغزّل لسان الدين ابن الخطيب في إحداهن وقد سطع نور الشّنف في أذنيها، فقال(٧):

ووميضُ ثغركِ أم تألقُ بارقٍ وشِهابُ شَنْفِكِ ذا أم الجوزَاءُ

الأساور والخواتم:

---

(١) لسان الدين بن الخطيب، ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام، ص٥٧٣.
(٢) الجوزاء: برج من بروج السّماء.
(٣) العَسجد: الذّهب، انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (عسجد).
(٤) لسان الدين بن الخطيب، ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام، ص٢٧٢.
(٥) القُلْب: السوار يكون نظماً واحداً، انظر: المعجم الوسيط، مادة (قَلبَ).
(٦) ابن خاتمة الأنصاري، ديوانه، ص٧٩.
(٧) لسان الدين بن الخطيب، ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام، ص٢٣١.

اتخذت نساء غرناطة من الأساور والدّمالج المصنوعة من الفضّة والـذّهب والمرصـعة بالأحجار الكريمة أدوات تتزين بها، فتغدو ابهى وأنضر وأحلى.

وقد انشغل لسان الدين ابن الخطيب بحسن محبوبته وجمالها عمّا كانت ترتديه من دمـالج وقلائد، بمعشوقته، فقال متغزلاً بها[١]:

حسناءُ قدْ غُنيتَ بحُسْنِ صَفائِها عن دُمْلُجٍ وقِلادَةٍ وَوِشاح

وزيّن رّجال الأندلس أصابعهم بلبس الخواتم، فقد ذكر ابن الخطيب عن قاضي قتوريّة ابن أبي خالد أنّه كان يختتم[٢].

الخلاخل:

اهتمّت المرأة الأندلسية بالخلاخل واتخذنها زينة وحلية، وقد ذكر الشّعر هذا النّـوع مـن الزّينة، ووصف جمال من تتزين بها، ومن ذلك قول أبي حيّان الأندلسي متغزّلاً في إحداهنّ وقد اتّخذت من الخلخال زينة لساقها[٣]:

لاحَتْ لنا ولَها في ساقِها خَلْخالْ وقد تَزَيّنَ منها خدُّها بالخال

وقد رأى الشاعر الأندلسي في صمت الخلخال وسكونه دليلاً على اكتناز سـاق المـرأة، ففضل ذلك؛ لأنها من خصال الجمال عند أهل الأندلس، يقول ابن خاتمة[٤]:

ما بالُ خَلْخاليكِ قد صَمَتا وما لو شَاحِكِ الجوَّالِ في تحْنينِ

---

(١) المصدر نفسه ، ص٣٧٤. الدملج: سوار يحيط بالعضد.

(٢) لسان الدين بن الخطيب، مشاهدات لسان الدين بن الخطيب، ص٣٦.

(٣) أبو حيان الغرناطي، ديوانه ، ص٣٥٩.

(٤) ابن خاتمة الأنصاري، ديوانه ، ص٦٨.

العناية بالشّعر:

ومن مظاهر تحضر الأندلسيين ورقيهم اهتمامهم بتصفيف شعورهم وترتيبها على أنماط وأشكال مختلفة تعكس ذوقهم الرّفيع.

وقد أدخل زرياب أشكالاً متنوعة لتسريح الشعر وتصفيفه، وتبعه فيها وأولاده ونساؤه، وقد وجدت لدى أبناء المجتمع الأندلسي المتحضر الذي يقبل الجديد الحسن قبولاً واستحساناً، فتأثروا بما جاء به زرياب واتبعوه فيه، واقتدوا به رجالاً ونساءً، ومن ذلك " أنّه دخل إلى الأندلس وجميع من فيها من رجل أو امرأة يرسل جُمّته مفروقاً وسط الجبين عاماً للصدغين والحاجبين، فلمّا عاين ذوو التّحصيل تحذيفه هو وولده ونساؤه لشعورهم وتقصيرها دون جباههم، وتسويتها مع حواجبهم، وتدويرها إلى آذانهم، وإسدالها إلى أصداغهم – حسبما عليه اليوم الخدم الخصية والجواري– هوت إليه أفئدتهم، واستحسنوه"[١].

ولم يغفل الشّعر الأندلسي عن وصف الشَّعر والتغنّي بحسنه وجماله، فقد وصف الشّعراء أشكالاً من التّسريحات والتّصفيفات البديعة. ومن هذه التّسريحات التي وصفها الشّعراء، تسريحة شعر الصّدغ[٢]، فتارة يأتي على شكل حرف الواو وأخرى على هيئة ذنب العقرب وكأنه يحمي الخد من اللثم.

يقول ابن خاتمة الأنصاري في ذلك [٣]:

أقمْتُ في الحُبِّ شَاهِدَيْن	**سَقَامَ جسْمي ودَمْعَ عَيْنِي**
وها أنا حالِفٌ يَميناً	**بوَرْدَةٍ فوق وَجْنَتَين**
قد حَفّها الياسَمِينُ تُحْمى	**مِنْ عِطْفِ[٤] صُدْغ بعَقْرَبيْن**

فصاحبة ابن خاتمة حمت ورد وجنتيها بأن جعلت شعر صدغيها على شكل ذنب العقرب.

---

(١) المقري، نفح الطيب، ج٣، ص١٢٧.

(٢) الصُّدغ: هو ما بين العين والأذن، انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (صدغ).

(٣) ابن خاتمة الأنصاري، ديوانه ، ص١٤٣.

(٤) العِطْف: الجانب، انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (عطف).

وعدّ الشّاعر الملك يوسف الثالث تسريحة الشعر مظهراً جمالياً قـاده لحـب محبوبتـه وأولعه بها، فأخذ يردّ على عاذله الذي ينكر عليه ما أصابه في الحبّ، فيقول[١]:

إنْ كُنْتَ تُنْكِرُ ما بي من جوًى وأسى   فانظر إلى دَعَجٍ في طَرْفِه السَّاجي[٢]

وانظر إلى عَقْرَبٍ بَادٍ بوَجْنَتِهِ   كأنه لامُ مِسْكٍ خُطَّ في عَاج

وسُرِّح شَعْرُ الصّدغ على شكل حرف الواو كما جاء في قول ابن خاتمة الأنصاري في موشّحه[٣]:

قُلْ يا غزال من خَطَّ واوَ   يْن فُوَيْقَ خَدَّين بلا مثال؟

قد جَلَّ من أبد   عمِنْ دُون ما نِدِّ

وسرّحت النساء الأندلسيات شعورهن على شكل ضفائر، وصفها ابن جُزي بقوله [٤]:

شموسٌ إذا ما أَمَطْنَ النِّقابَ   بدورٌ إذا ما حَلَلْن العِقاصا

إلاّ أنّ الشّعر المرسل كان مفضلاً أكثر، فهو يرى محبوبته كالبدر إذ هي أرسلت شعرها.

ولم تكتف النساء الأندلسيات باهتمامهن بطريقة تسريح شعورهن وتلفيفها، وكُـنّ يـزينّ شعورهنّ بالأزهار، أو يربطنها بخيوط من الحرير المزيّنة بالأحجار أو يربطن شعورهن بشبكة من الخيوط الذّهبيّة[٥].

ولم تقتصر العناية بالشعر وحسن تسريحه على النساء الأندلسيات دون الرجال، فقد اهـتم الرجال الأندلسيون في غرناطة بشعورهم وحرصوا على حسن تـسريحها وتـصفيفها، فكـانوا يسرحون شعورهم على شكل ضفائر، فقد ذكر لسان الدّين ابن الخطيب أنّ الـسّلطان إسـماعيل الثاني كان يرسل شعره على شكل ضفائر يدخل فيها خيوطاً من الحرير تصل إلى الوسط[٦].

---

(١) يوسف الثالث، ديوان ملك غرناطة ، ص١٨.

(٢) الساجي: ساجية الطّرف: فاترة الطرف ساكنته، انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (سجا).

(٣) ابن خاتمة الأنصاري، ديوانه ، ص١٩١.

(٤) ابن الأحمر، نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان، ص٢٩٨.

(٥) انظر: نصر، تاريخ أزياء الشّعوب، ص٣١٨.

(٦) انظر: لسان الدين بن الخطيب، نفاضة الجراب، ص١٠٣.

وظهرت في الأندلس عادة إطلاق شعر اللحى عند الصّبيان وهو ما يسمّى بالعذار، وكان من الشّعراء من يراه علامة من علامات الجمال يزداد بها الصّبي جمالاً وبهاءً. وآخرون عابوا العذار ورأوا أنّه يخفي جمال وجه الصّبي(١).

يقول الشّاعر عبد الكريم القيسي في مدح العذار وما يضفيه من جمال للوجه(٢):

عابوا العِذارَ وقالوا الحُسْنَ غَيّرَهُ ضَلّوا بقوْلِهُم عَنْ أوْضَح الطُرُق

كم بيْن رَوْضٍ زها بالزَّهر منفرداً وبين روضٍ زها بالزَّهرِ والورَق

إلا أن ابن زمرك ذمّ العذار ورأى فيه حاجباً لجمال الوجه ونوره، فقال(٣):

لا يستوي صُبْحُ وَجْهٍ راقَ نَاصِعُهُ وَذُو عِذَارٍ كَلَيْلٍ لَيْسَ يَنْصَرِمُ

(وَمَا انْتِفَاعُ أخِي الدُّنْيَا بِنَاظرِهِ إذَا اسْتَوَتْ عِنْدَه الأنوَارُ والظُّلَمُ)(٤)

إن هذا الاهتمام الذي أولاه الأندلسيون في غرناطة لشعورهم وطرائق تسريحها وتصفيفها وبحثهم عن الجميل البهي الجديد، لهو دليل دامغ على تجلّي حضارتهم في أبهى صورها.

الخِضاب والكُحل:

عرف أهل الأندلس أنواعاً مختلفة من مواد الزّينة، ولعلّ أهمّ هذه المواد الخضاب الّذي تزيّن به الرّجال والنّساء على حدٍ سواء، وكذلك عرف الأندلسيون الكحل واتّخذوه زينة لعيونهم.

على مرّ الأزمان كان الشّيب مدعاة للحزن ومجلبة للقلق؛ إذ هو مؤشّر على كبر السنّ وضياع الشّباب. فكرهته النّساء كما كرهه الرّجال، وهو ذات الحال عند الأندلسيين، وقد استعملوا الخضاب لصبغه وتغطيته، ومحاولة منهم لإعادة الشّباب.

(١) انظر: الحسين، عبير عبد الله أمين (٢٠٠٧)، الشعر الاجتماعي في الأندلس في عصر بني الأحمر، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن، ص ١٩٣.

(٢) عبد الكريم القيسي، ديوانه، ص٤٤٥.

(٣) ابن زمرك، ديوانه ، ص٢٣٩.

(٤) تضمين لبيت المتنبي المشهور من القصيدة التي مطلعها: (وآحرَّ قلباه ممن قلبه شَبِمُ...). المتنبي، أبو الطيب أحمد بن الحسين (٣٥٤هـ/ ٩٦٥م)، ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري، (ضبطه وصححه مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي)، دار المعرفة، بيروت، (د.ت)، ج٣، ص٣٦٧.

ويرى أبو البركات البلّفيقي في الشيب إيذاناً بالفراق، إلا أنه لا يرى في الخضاب منجاة من الكِبَر، فيقول في شيخ صبغ شيبه يرتجي عودة الشّباب[١]:

أبياضُ شَيْبٍ واحمِرَارُ ثياب	**أينَ التناسُبُ يا أُولي الألبابُ**
مَنْ كان يَرْجُو أن يَعودَ شَبَابُهُ	**فالشّيبُ لا يَقْضِي بردِّ شَبَابِ**
تُبدي الخضابَ وقدْ مَضَى زَمَنُ الصِّبا	**وقضَى عليكَ بفُرقةِ الأحبابِ**

وقد لجأ البعض منهم إلى الخضاب ستراً لبياض شعورهم، واستعادة لشبابهم، وارتجاءً لبقاء أحبابهم وأصحابهم حولهم، يقول لسان الدين ابن الخطيب[٢]:

لمّا عَلاَني الشَّيْبُ قال صواحبي	**لا نبتغي خِلاًّ يُصيَّرُ أشيَبْ**
فَصبَغْتُهُ خوفَ الفِراقِ فقُلْنَ لي	**هَذِي رِوَايةُ "أصبغٍ" عن "أشهبْ"[٣]**

وعندما غزا الشيب شعر حاجب المرأة الأندلسية بادرت لتخضيبه بالسواد، علها تسترجع به شبابها وصباها، يقول ابن خاتمة[٤]:

واسْتَخْلَصَتْ من فحمةِ القلب الشَّجي	**صِبْغاً لنُون ِ الاجِبِ المَقْرونِ[٥]**

---

(١) البلّفيقي، شعره ، ص٢٧.

(٢) لسان الدين بن الخطيب، ديوان لسان الدين بن الخطيب ، ج١، ص ١٦٣.

(٣) أشهب القيسي بن عبد العزيز بن داوود القيسي العامري الجعدي أبو عمر فقيه الدّيار المصريّة في عصره، توفي سنة (٢٠٤هـ). وأمّا أصبغ فهو أصبغ بن فرج (ت ٢٢٥ هـ) فقيه من كبار المالكيّة في مصر. انظر: الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط٦، ٨م، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٤م، ج١، ص١٣٣.

(٤) ابن خاتمة الأنصاري، ديوانه ، ص٦٨.

(٥) شبّه الحاجب بحرف النّون مقلوباً وهو تشبيه شائع في أدب تلك المدّة في المشرق والأندلس. انظر: ابن خاتمة الأنصاري، ديوانه ، ص٦٩.

ولم يقتصر استخدام الخضاب عند الأندلسيين في غرناطة على صبغ الشعر وحسب، بل استعملوا الخضاب لتزيين اليدين والنّقش عليها. وقد افتتن الشّاعر أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله، ابن الحاج الغرناطي[١] بغادة أندلسيّة موشّاة المعاصم والأصابع بخضاب أحمر مائل إلى السّواد، فقال[٢]:

ألا مُعْصِمٌ للصبِّ من وشي مِعْصَمِ   أطلّتُ إليه نَظْرَةَ المتوسم

فأبقتْ به عيني حلًى من سَوَادِها   وبَعْضَ سوادٍ وَسْطَ قلبي المتيِّمِ

وليسَ خضاباً ما علاه، وإنّما   جرَى فيه بعد الدّمع ما عزَّ من دَمي

وزيّنت بعض نساء غرناطة أصابعهنّ وصبغنها بالخضاب الأحمر أو الأسود، وفي بعض الأحيان كنّ يضعنه على شكل نقوش مما زاد في حسنهن ولفت الأنظار إليهن. وفي ذلك يقول ابن خاتمة [٣]:

قل للتي خَضَبَتْ بياضَ بَنَانِها   بدِمَاءِ دَمْعي أو سوادِ عُيوني

تأنقتْ في نَقْشِها وكِتَابِها   مِنْ ذَوْبِ أكبادي بنار شُجوني

ويقول في موضع آخر واصفاً المرأة الأندلسية وقد خضّبت بنانها باللون الأحمر[٤]:

سَفَكَتْ أنامِلُها الدّماءَ فَقَدْ غَدَتْ   عَلَماً برَخص بنَانِها المُطَرِّفِ

(١) هو إبراهيم بن عبدا لله بن إبراهيم النميري، يكنى إسحاق، ويعرف بابن الحاج، أديب أندلسي من الكتّاب، ولد بغرناطة سنة (٧١٣هـ) وعمل في كتّاب الإنشاء سنة (٧٣٤هـ)، له رحلة إلى المشرق حج فيها ودوّن رحلته هذه، له عدّة مؤلفات في الأدب والبلاغة، والرحلات، وعلم الحديث والأحكام، منها: "نزهة الحدق في ذكر الغرق" و "طرق المتصوفة" اختلف في تاريخ وفاته، وعلى الأرجح أنه كان على قيد الحياة سنة (٧٧٦هـ) لأنه نظم شعر في مدح الغني بالله بمناسبة افتتاح حضرة فاس المرة الأولى سنة (٧٧٦هـ). انظر: لسان الدين ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص٣٤٢؛ المقري، نفح الطيب، ج٧، ص١٠٨؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٦، ص٤٠.

(٢) المقري، نفح الطيب، ج٧، ص١١٦.

(٣) ابن خاتمة الأنصاري، ديوانه ، ص٦٧.

(٤) ابن خاتمة الأنصاري، ديوانه ، ص٧٨.

واهتم الرجال الأندلسيون بزينتهم فدلّكوا أيديهم بالحناء، وقد ذكر ذلك لسان الدين ابن الخطيب في قوله وقد دَلَكَ السّلطان يديه بالحنّاء[١]:

إنّ شَمْسَ الدِّين فَخْرُ المُلُوكْ	**دُرَّةُ العِقْدِ وَوُسْطَى السُّلُوك**
دَلَكَ الكفَّ بِحِنَّاءٍ فَقُلْنَا	**أنْتَ شَمْسُ الدّين عِنْدَ الدُّلوك[٢]**

والكحل الذي عرفه أهل الأندلس في غرناطة يضيف للعين سحراً أخّاذاً، ويزيدها اتساعاً وجمالاً، وهو من مواد الزينة التي يقول فيها ابن فركون [٣]:

إذ لها بهجةٌ وحُسْنٌ عجيبٌ	**وجمالٌ بادٍ وعَرْفٌ وطيبُ**
مَنْطقٌ لَيِّنٌ وعينٌ كحيلٌ	**وقوامٌ لَدْنٌ وثغرٌ شَنَيبُ[٤]**

فمن الصفات التي راقت ابن فركون في محبوبته وأعجبته فيها، عيونها الكحلاء.

ورأى بعض الشعراء الأندلسيين أن جمال العين الطبيعي دون الكحل يفضّلُ جمالها في الكحل ويفوقه، فعبد الكريم القيسي يرى أنّ سواد العين الطّبيعي أكثر جمالاً وفتنة[٥]:

بدمي منعّمة كعابٌ ذاتُ دَلْ	**هيفاءُ تزري بالقضيب إذااعتدل**
راودْتُها عَنْ نَفْسِها في خَلْوةٍ	**وقد اكتست وَجْناتُها ورْدَ الخَجَلْ**
فَرَنَتْ إليَّ مِنْ الحيَاءِ بمقلةٍ	**فتانةٍ ما كُحْلُها إلاّ الكَحَلْ[٦]**

---

(١) لسان الدين بن الخطيب، ديوان لسان الدين بن الخطيب ، ج٢، ٤٧٥.

(٢) دلوك الشّمس: غروبها.

(٣) ابن فركون، ديوانه ، ص٢٥٧.

(٤) ثغرُ شنيب: رقت أسنانه وابيضت، الشَّنَبْ جمال الثغر وصفاء الأسنان، انظر: المعجم الوسيط، مادة (شَنِبَ).

(٥) عبد الكريم القيسي، ديوانه ، ص٣٠٨.

(٦) والكَحَلْ: سواد في أجفان العين خلقة، انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (كحل).

الطّيب والعطور:

ولتكتمل صورة حضارة الأندلسيين في تزينهم وتجملهم، اعتنوا بمظهرهم وزينتهم فاختاروا من الملابس أجملها وأفخرها، ومن الحلي أنفسها، ومن العطور والمراهم والطّيوب أزكاها.

وقد استخدم أهل الأندلس العطور التي كانت تستخرج من الليمون والأزهار والحشائش[١]. وكانت بعض الطّيوب تستورد من الخارج. "وأصول الطّيب خمسة أصناف: المسك، والكافور، والعود، والعنبر والزعفران، وكلّها من أرض الهند إلاّ الزّعفران والعنبر فإنهما موجودان في أرض الأندلس"[٢].

وقد أشعلت روائح العطور والطيب التي فاحت من أجساد النساء الأندلسيات نار الهوى في قلوب الشّعراء، فأخذوا يتغنّون برائحة من يحبون، فهذا عبد الكريم القيسي قد زاد المسك الذي اتخذته محبوبته عطراً لها في تعلقه بها[٣]:

وبي شادنٌ أغرى فُؤادي بالهوى　　فأصْبَحَ عنْ معنى الهوى ليس يبرحُ

[و] تحملُ عَنْ أنفاسِه نَفْحةُ الصَّبا　　روائحَ مسكٍ تهفووتَنْفَحُ

ويرى الشّاعر ابن فركون أن الطيب والعطر مكملان لجمال المرأة وحسنها [٤]:

إذ لها بهجةٌ وحُسْنٌ عجيبٌ　　وجمالٌ بادٍ وعَرْفٌ وطيبُ

وقد عرف الأندلسيون أنواعاً متعددة من العطور والطيوب، منها؛ المسك والكافور، اللذان ذكرهما شعراء الأندلس وغالباً ما كان يُشَبَّهون الشعر وهو ينساب على الخد بالمسك في سواد لونه وقد وضع على الكافور، قال ابن فركون[٥]:

كما رُقِمَ الكافُورُ بالمِسْكِ والتَقتْ　　ذَوَائِبُ من شَعْرٍ أثيثٍ[٦] على خدِّ

---

(١) انظر: فرحات، غرناطة في ظل بني الأحمر، ص١٣٠.

(٢) المقري، نفح الطّيب، ج١، ص١٩٩.

(٣) عبد الكريم القيسي، ديوانه ، ص١٥٩.

(٤) ابن فركون، ديوانه ، ص٢٥٧.

(٥) لسان الدين بن الخطيب، ديوان لسان الدين بن الخطيب ، ج١، ص٢٩٧.

(٦) شعر أثيث: غزير طويل، انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (أثث).

وعرف أهل الأندلس من أنواع الطّيب العنبر وانتشر استعماله بين النّاس، فابن الخطيب يصف ليلة أنس جمعته مع صاحبته وقد أحاطت بهما الرّوائح الزكيّة من العنبر والند، يقول[١]:

يُظلّلنا بالغيم نَدٌّ وعَنْبرٌ   وتَنْضَحُنا بالطّيبِ سُحْبٌ سَوَاكِبُ

كما استخدم ماء الزّهر نوعاً من أنواع الطّيب كما ذكر ابن الخطيب[٢]:

خُذْها مُجَاجةَ ماءِ زَهْرٍ بَاسمٍ   مِنْ فوْقِ غُصْنٍ للرِّياضِ رَطيبِ

أهْدَيتُها طِيباً إليْكَ وإنْ يَكنْ   عِلْمِي بأنّكَ طيِّب ُالطِّيبِ

ومن الطيب عندهم نوع يعرف بالغالية، وقد أشار إليه لسان الدين ابن الخطيب عندما كان يمدح أحدهم ويصفه بالجود والكرم والهدى، ثم يهديه سلاماً معطّراً كالمسك الممزوج بالغوالي، يقول[٣]:

ويخصُ مجْدَكَ مِنْ سَلامِي عاطرٌ   كالمِسْكِ صَاكَ بِهِ الغوالي صَائكُ

وعرف أهل مملكة غرناطة من البخور أنواعاً عديدة منها المندل والنّد والألوة والقسط، يقول ابن خاتمة[٤]:

وخَاطِرةٍ كالظّبي في خَطْوها بُعْدُ   تَكادُ أعاليها مِنَ اللّين تَنْقَدُّ

تَمنيّتُها في حَضْرَةٍ وَسْطَ روضَةٍ   يَنُمُّ عَلَينا مِنْ خَمائِلِها النَّدُ

وذكر ابن الخطيبِ الألوة والقسط نوعاً من أنواع البخور، فقال[٥]:

ودون الّذي يُهْدِي ثَنَاؤُكَ في الورَى   مِنَ الطّيبِ ما تُهْدِي الألوَّةُ والقُسْطُ

---

(١) لسان الدين بن الخطيب، ديوان لسان الدين بن الخطيب ، ج١، ص١٠٨.

(٢) المصدر نفسه، ج١، ص ١٤٥.

(٣) المصدر نفسه، ج٢، ص ٤٧٣.

(٤) ابن خاتمة الأنصاري، ديوانه ، ص١٣١.

(٥) لسان الدين بن الخطيب، ديوان لسان الدين بن الخطيب ، ص٤٦١.

تلك كانت بعض أنواع العطور والطيب التي عرفها أهل مملكة غرناطة واتّخذوها زينة لهم إتماماً لأناقتهم وحسن مظهرهم، وما اعتناؤهم بها واستعمالهم لها إلا مظهر من مظاهر رقي حضارتهم وتطور معيشتهم.

الرياضات وألوان التسلية والترفيه:

عرف الأندلسيون في عصر بني الأحمر أنواعاً متعددة من الرياضات، كما كان لهم سبل وطرائق في التسلية وقضاء أوقات الفراغ والتسلية عن أنفسهم، ومن الرياضات التي عرفت لديهم وانتشرت عندهم، مصارعة الثيران، ولعل استغلالهم للمناسبات الدينية والاجتماعية والسياسية كان وراء كثرة احتفالاتهم، ينضاف إلى ذلك ميل النفس الإنسانية إلى حب اللهو والمرح، وكانت احتفالاتهم " تقوم أساساً على مباريات الفروسية والعروض البهلوانية ورياضة الرمي والرقص والإنشاد" [1]، وقد وصف الشعراء الأندلسيون الاحتفالات ومظاهرها وما كان يجري فيها في شعرهم، ومنهم لسان الدين بن الخطيب، الذي يصف مجموعة من الألعاب الرياضية التي جرت في احتفال بمناسبة إعذار ابن السلطان الغني بالله محمد الخامس بن الأحمر، يقول[2]:

وقامتْ على منحوتةٍ من زَبَرْجَدٍ ... تُخَطّ على الصُّمِّ الصلابِ إذا تخطو

وكل عتيقٍ من تَمَاثِلِ رومةٍ ... تأنَّقَ في استخطاطهِ القسُّ والقِمْطَ

وفي المناسبة ذاتها يقول عبد الله بن لسان الدين بن الخطيب قصيدة مطلعها [3]:

أثِرْها عزمة تنْضى الرّكابا ... وإن دَمِيَتْ لها العينُ انسكابا

---

(١) جرار، صلاح (١٩٩٧)، مصارعة الثيران في الأندلس إبان الحكم الإسلامي، مجلة التراث العربي، عدد(٦٩)، السنة الثامن عشر، تشرين الأول، مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ص٨٢.
(٢) المقري، نفح الطيب، ٦ : ٤٦٢.
(٣) لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة، ص١٢٨، والمقري، نفح الطيب، ٧ : ٢٩٥.

يصف فيها الألعاب الرياضية التي كانت تجري في مثل هذه الاحتفالات ولا سيما المصارعة بين الثور والكلاب الرومية، فيقول[١]:

وَطارَدْتَ الصُّوارَ بكلِّ ضار	**كما أتبَعْتَ عفريتاً شِهابا**
ضَرَبْتَ بهِ على الآذانِ منها	**فيمْ تَسْطِعْ حراكاً واضطرابا**
ومعصوبِ الجبينِ بتاج رَوْقٍ	**يروعُ خَوارُهُ الأسْدَ الغِضابا**
تعَرَّفَ أنَّ تحتَ الأرضِ ثوراً	**فرامَ بأن يَشُقَّ له التِّرابا**
وكَلْتَ به هضيمَ الكشح أجْنى	**حديدَ النابِ تَحْسَبُها حرابا**
تباعدَ مجمَعُ الشّدقينِ منه	**وسال الموتُ بينهما لُعابا**
فأثبته كوحي الطّرْف حتى	**تَوَثّقَ منه جازرُهُ غِلابا**
وصاحَ بهِ الصُّوارُ وقد رآه	**حبيسَ الكَلْبِ قد مُنِعَ الإيابا**

وقد شاع عند الأندلسيين في عصر بني الأحمر رياضة أخرى عُرفت باسم " الطبلة "، تقوم على هدفٍ خشبي يُجعلُ في مكان مرتفع جداً من الفضاء، ورامٍ يقوم بتصويب العصي (السهام) نحوه.[٢]

وقد فصل الأستاذ الدكتور صلاح جرار الحديث في قوانين هذه الرياضة (اللعبة)، وأدواتها، وقوانينها، في دراسته التي خصها لتتبع هذه الرياضة في الشعر الأندلسي في عصر بني الأحمر.

---

(١) لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة، ص١٢٩-١٣٠، والمقري، نفح الطيب، ٧ : ٢٩٧.

(٢) انظر: جرار، صلاح (١٩٩٦)، رياضة الطبلة في الشعر الأندلسي في عصر بني الأحمر، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، العدد (٥٠)، السنة العشرون، حزيران، ص٣٠-٤٦.

وجاء الشعراء الأندلسيون على ذكر هذه الرياضة في مقطوعات جمعها الدكتور جرار في بحثه، ومنها ؛ قول ابن زمرك الذي يصور دخول العصي إلى الهدف الذي يتسع لكثير منها[١]:

فخفَّت إليها الذابلاتُ كأنها ... طيورٌ إلى وكرٍ أطَلْنَ تهاويا

حكَتْ شَبَهَاً للنحلِ والنحلُ حوله ... عصيٌّ إلى مثواها تهوي عواليا

فمن مُثْبِتٍ منها الرمية مدركٍ ... ومِن طائشٍ في الجوِّ حلَّقَ وانيا

وحصنٍ منيعٍ في ذراه قد ارتقى ... فأبْعَدَ في الجوِّ الفضاءِ المراقيا

كما جاء ذكرها عند ابن الحاج النميري[٢] في قوله الذي يصف فيه جانباً من إحدى احتفالات الغني بالله محمد الخامس[٣]:

وقد صَعَدَتْ في الجوِّ آيةُ طبلةٍ ... تحاكي عمودَ الفجْرِ أسْفَرَ للسَّفْرِ

وأنْحوا عليها بالعصي كأنها ... بروقٌ ولكن بالبروق غدتْ تُزْري

من الطبلاتِ اللاءِ ما زال كسرُها ... لدى البطل الأحمى يعدُّ من الجبْرِ

وضاربها يوم الوفودِ عقوقه ... وإن كان لا يخفى يُعَدُّ من البرِّ

فذلك منه للجهادِ تدرُّبٌ ... سيسقي به الحزبَ الذي دان بالكفرِ

وقد جالَ نقْعُ الخيلِ في جنباتها ... كما جال في الأفكار معنىً من الشعرِ

فهو يرى في هذه الرياضة فرصة لتدرب الفرسان على الرماية ليكونوا ليوث الوغى في الميدان فيحرزوا النصر على الكفرة الأعداء.

---

(١) المقري، أزهار الرياض، ٢ : ٧٢، والمقري، نفح الطيب، ٧ : ١٩٣ – ١٩٤.

(٢) أبو اسحق إبراهيم بن عبد الله بن محمد النميري ، يعرف بابن الحاج، من أهل غرناطة، ولد بها سنة ٧١٣هـ، شاعر وكاتب له عدة مؤلفات في الأدب والبلاغة والرحلات والمذاهب وعلم الحديث والأحكام، توجه رسولاً عن سلطانه الغني بالله إلى تلمسان، فاعترض العدو السفينة التي كان بها ، فوقع أسيراً، فافتداه سلطانه بسبعة آلاف من العين بعد أيام قلائل من أسره، وذلك سنة ٧٦٨هـ، وكان قد ارتسم في كتاب الإنشاء سنة ٧٣٤هـ، وخدم في بلاط أبي عنان المريني إلى حين وفاته. انظر : لسان الدين ابن الخطيب، الإحاطة، ١ : ٣٤٢ – ٣٦٣. والمقري، نفح الطيب، ٧ : ١٠٨ – ١٢١.

(٣) جرار، صلاح، رياضة الطبلة في الشعر الأندلسي في عصر بني الأحمر، ص٦١.

وفي السياق ذاته عرف الأندلسيون في عصر بني الأحمر رياضات أخرى، مثـل سـباق الخيل، إلا أن الشعر الأندلسي في تلك الفترة لم يحفل كثيراً بوصف هذه الرياضـات وغيرهـا، ولعل الخبر الذي جاء عن لسان الدين بن الخطيب وما يتضمنه من عدم استحسان السلاطين لهذا الشعر الذي رأوا فيه هبوطاً عن المستوى المطلوب من شعراء كأمثال ابن الخطيب، ويتضح هذا من قوله عن المناسبات التي وصف بها لعبة الطبلة: " وهي آخر الشعر في هذا الغرض، لخجل السلطان من تنزُّلي إلى ذلك وتنزيهي عنه تجلة، أجلّه الله وكرّمه ".

وخلاصة الأمر إن الأندلسيين في عصر بني الأحمر مارسوا ألواناً من الرياضات، كـان لها أشكالها وقوانينها وأدواتها وضوابطها، وهدفوا من خلالها إلى تسلية أنفسهم وترفيهها، كمـا كانوا يسعون من خلالها لخلق فرسان أقوياء أشداء يقارعون بهم أعداءهم ويهزمونهم.

الجنائز:

إنّ الموت بطبيعة الحال هو الحدث الأخير والخطير في حياة كل إنسان، وقد أحـيط فـي الأندلس – شأن البلاد الأخرى – بكثير من الخواطر والعادات والتقاليد التي تشف عن رقي فـي التعامل في مثل هذه المواقف الجليلة[١].

وفي الجنازات كانت البساطة مظهراً تعتمده العائلات، ولم تكن المراسيم المتّبعة مختلفـة عمّا كانت عليه في سائر أنحاء العالم الإسلامي[٢]، فكانوا يحملون موتاهم في توابيت معدّة لهـذا الغرض، وكان النّعش يحمل على أعناق الأفاضل من الرجال[٣]. ويعطينا ابن زمـرك صـورة لمشهد جليل حمل فيه الرجال نعش القاضي المعظّم أبي القاسم الحسني، وهو من شـيوخ ابـن زمرك، يقول[٤]:

وَمِنَ العَجَائِبِ أنْ يُرَى بَحْرُ النَّدَى	**طَوْدُ الهُدَى يَسْرِي عَلَى الأعْنَاق**
إنْ يَحْمِلُوكَ على الكَواهِلِ طَالَما	**قدْ كُنْتَ مَحْمُولاً على الأحْداقِ**
أو يَرْفَعوك على العواتِقِ طالما	**رَفَعَتْكَ ظَهْرُ مَنَابرٍ وعِتَاق**

---

(١) انظر: النوش، التصوير الفني للحياة الاجتماعية، ص٤٢٧.
(٢) انظر: فرحات، غرناطة في ظل بني الأحمر، ص١٢٣.
(٣) انظر: النوش، التصوير الفني للحياة الاجتماعية، ص٤٣٥.
(٤) ابن زمرك، ديوانه ، ص٤٧٧.

واختار بنو الأحمر اللون الأزرق إلى جانب اللون الأسود للباس الحداد عندهم، وقد تبـيّن هذا في قول أبي البركات البلفيقي معللاً زرقة عينيه بأنها تغيّرت حزناً على حبيب فائت يهـواه فأشبهت أثواب الحداد[١]، يقول[٢]:

حَزُنَتْ عَليكَ العينُ يا مُغني الهَوى ... فالدّمعُ مِنْها بَعْدَ بُعْدِك ما رَقا

ولِذاكَ [ما صُبِغَتْ] [٣] بلونٍ أزرقٍ ... أو مَا تَرى ثوبَ المآتِمِ أزْرَقا

وكان الأندلسيون يتقبّلون التعازي في المقابر بعد الدفن مباشرة وكانت المراثي البليغة تلقى عادة بعد الدفن عند ضريح الراحل[٤]، ومنها على سبيل المثال قول لسان الدين ابـن الخطيـب معزياً السلطان عن مملوك له اسمه يزيد على قبره[٥]:

هَوِّنْ على النَّفْسِ النَّفيسَةِ أمرَها ... وإذا سَلِمْتَ فلا تُرَعْ لِفَقِيدِ

لم يَأتِ صرفُ الدَّهْر بِدْعاً مُحْدَثاً ... كم مِنْ يزيدٍ قدْ مَضَى وَيَزِيدِ

إن كل ما سبق يوضح بجلاء تلك الحضارة الراقية التي عاشها أهل غرناطة في عـصر بني الأحمر، وشملت جوانب حياتهم المختلفة، فغدا مجتمعهم متحضراً راقياً منـضبطاً منظمـاً، حرص أهله على التمسّك بكل ما من شأنه أن يرتقي بحياتهم ويضمن رفعة حضارتهم، ونبـذو كل شيء يحبط تقدمهم ولا يحقق نهضتهم، فتحلّى هذا المجتمع بكل ما هو خير وأصيل، ونبذ كل ما هو معيب ومشين.

---

(١) انظر: النوش، التصوير الفني للحياة الاجتماعية، ص٤٤٤.

(٢) لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة، ج٢، ص١٥٩؛ والمقري، نفح الطيب، ج٥، ص٤٨٢.

(٣) وفي النفح وردت (ما ظَهَرتْ).

(٤) انظر: النوش، التصوير الفني للحياة الاجتماعية، ص٤٣٨.

(٥) لسان الدين بن الخطيب، ديوان لسان الدين بن الخطيب ، ج١، ص٣١٨.

الخاتمة

تناولت هذه الدراسة حقبة زمنية هامة من العصر الأندلسي تمثلت في عصر الدولة النصرية أو المملكة النصرية أو مملكة بني الأحمر كما يطلق عليها، وقد حاولت هذه الدراسة الوقوف على أهم مظاهر الحضارة التي تميّز بها هذا العصر كما تجلت في شعر شعراء هذه الفترة الزمنية، فقد شهدت هذه الحقبة من الزمن ازدهارا ونماء واسعين يكاد يشمل مختلف ميادين الحياة، وقد واكب الشعر هذه التطور في شؤون الحياة في ميادينه المتعددة، فالشعر هو لسان حال أمته ومجتمعه، وهو القلب النابض الذي ينبض به المجتمع.

وقد سعت الدراسة إلى استجلاء أهم المظاهر الحضارية في عصر بني الأحمر من خلال الأشعار التي صورت هذه المظاهر، وقد خرجت بالنتائج التالية:

واستطاع الشعر الأندلسي في عصر بني الأحمر أن يمثل وثيقة مهمة دالة بجلاء ووضوح على طبيعة العلاقات الأسرية القائمة على الود والاحترام والتعاون، وعلى عظم دور الآباء والأمهات في تربية أبنائهم وتنشئتهم على الأخلاق والقيم العربية الإسلامية.

كما يصور الشعر في هذه الفترة الزمنية المرأة الغرناطية بأنها لم تعتزل الحياة في مجتمعها بشكل عام، بل امتلكت نوعا من الحرية النسبية، فغدت بها عنصرا فاعلا ونشيطا في المجتمع حيث ولجت ميادين العلم والمعرفة، وأظهرت جديّة في معاونة زوجها ومساعدته في تدبير شؤون حياتهما واستطاعت بذلك أن تحظى بمكانة مرموقة في مجتمعها بالإضافة إلى مكانتها في أسرتها بوصفها الأم الحانية الرؤوم.

وظهر من خلال البحث أن شعراء هذا العصر يمجدون العلم والعلماء من خلال الإشادة بالمدرسة النصرية، فالشعر يعكس توجهاً عاماً في المجتمع الغرناطي الذي اهتم بتعليم أبنائه اهتماماً كبيراً فنبغ عددٌ منهم، ووصلوا إلى مراتب راقية في المجتمع.

كما يصور الشعر في هذه الفترة اهتمام المجتمع الغرناطي بالقيم العليا والمثل السامية وترسيخها في سلوك أبنائه وتصرفاتهم وتعاملاتهم فتزينت بها نفوس الناس وتهذبت بها طباعهم.

ومن جانب آخر، فقد ظهر من خلال الدراسة أن الشعرَ يقف موقفَ الناقد الاجتماعي في نقد عدد من مظاهر الفساد الاجتماعي مثل فساد القيم والأخلاق، فهو يصور عددا من الآفات الاجتماعية التي انتشرت في المجتمع الغرناطي آنذاك فأصبحت جزءا من كيانه، مثل؛ تعاطي المخدرات والحشيش.

وعمد الشعر في عصر بني الأحمر إلى تصوير جانب مهم من جوانب الحياة الاجتماعية في المجتمع الغرناطي تمثل في رقيهم ورفعتهم وأنماط معيشتهم وما فيها من تنظيم وجد أحياناً ولهو ومرح أحيانا أخرى.

وقد انتشرت الحمامات في عصر بني الأحمر انتشارا واسعا في دلالة على اهتمام المجتمع الغرناطي بالنظافة كما تشير المصادر التاريخية، كما تعددت الخدمات التي تقدمها الحمامات في هذا العصر كالخدمات الصحية والخدمات الطبية، إلا أن دور الشعر في وصف هذا المظهر الحضاري لم يقتصر على إظهار المكان وبيان حراراته فحسب فقد انصرف الشعراء إلى التعبير عما يجول في خاطرهم من أفكار وعواطف.

كما عرف عن المجتمع الغرناطي بأنه مجتمع صناعي حرفي فظهر فيه عدد من الصناعات التقليدية كما تشير المصادر التاريخية إلا أن الشعر في هذه الفترة لم يصور حياة الطبقة العاملة من المهنين والحرفيين في حين اظهرت الدراسة اهتمام الشعر بطبقة أخرى من العاملين كانت أكثر رقياً في المجتمع كالأطباء.

ويصور الشعر في هذه الفترة التقدم الهائل الذي عرفه المجتمع النصري على صعيد الصناعات الحربية سواء أ كانت تقليدية أم حديثة جاء الحديث عنها في إطار المدح للخلفاء.

واستطاع الشعر الذي تعرض للعمران في عصر بني الأحمر ان يعكس نمطا فريدا لهذا المظهر الحضاري فبقي شاهدا على هذه الحضارة طيلة قرون عديدة.

وقد أظهرت الدراسة تمايزا واضحا في تصوير الشعراء لمظاهر الحضارة العمرانية المختلفة خاصة فيما يتعلق بوصف القصور ولعل ذلك يعود إلى تشجيع الخلفاء للشعراء على التغني بهذه الصروح المعمارية المدنية أولا، ولفخامتها ثانيا.

كما بدا واضحا أن الشعر المتعلق في وصف الحضارة العمرانية لم يكن الوصف هو غرض الشاعر منه وإنما استخدم الوصف للوصول إلى غرض آخر تمثل في مدح الخليفة أو السلطان.

وتميز هذا العصر بظهور ظاهرة النقوش الشعرية التي كانت تزيد عمارته ألقا على ألقها، وقد اقتصرت هذه النقوش على شعراء كبار غالبا ما تقلد بعضهم الوزارة كابن الجياب وابن زمرك وابن الخطيب وابن فركون وابن الحاج النميري.

وقد امتزج وصف الرياض عند شعراء عصر بني الأحمر والوقوف على حسنها وبهائها مع الأغراض الشعرية الأخرى التي تضمنتها موضوعات اشعارهم وخاصة الغزل منها الذي

امتزج بهذا المظهر الحضاري الطبيعي فأصبحوا وكأنهم لا يقولون في الغـزل إلا مـن خـلال مظاهر الحضارة الطبيعية.

ولم يكن الشعر الأندلسي الذي أشار إلى العمارة الدينية ولا سيما المساجد بحجم ما أبدعه الأمراء والخلفاء في بنائها والإنفاق عليها إلا أنه راح يجري بكثرة على ألسنة الشعراء في إطار من التحسر والفجيعة على ما حل بهذه الجوامع بعد سقوط الدويلات الإسلامية.

فعلى الرغم من أن البيئة الإسلامية هي السائدة في هذا العصر والمؤثرة في حياة النـاس وشعر شعرائهم، إلا أن البيئة النصرانية بقيت حاضرة في ثقافة الشعراء من خـلال إبـداعات وتجليات عفوية وهذا يفسره تفاعل الأدب بشكل عام والشعر بشكل خاص مع الثقافات والبيئـات المختلفة.

كما أظهرت الدراسة نوعا أخر من المنقوشات الشعرية التي كانت تنقش علـى شـواهد القبور فكانت شاهدا حيا على مناقب المرثي فتحولت القبور من مكان مشؤوم يحمل في طياتـه معاني فراق الأحبة والعظماء إلى معلم حضاري شاهد على من في جوفه بصفاته وإنجازاته.

وصور الشعر في هذه الفترة واحدا من أهم المظاهر الحضارية الاجتماعية في عصر بني الأحمر تمثل في الأطعمة الراقية التي عرفها المجتمع الغرناطي وأقدم على طبخها بأسلوب يتفق مع رقيهم الحضاري.

كما يصور الشعر مدى اهتمام الإنسان الغرناطي بملابسه وأرديته، فقد عرف الغرناطيون ألوانا وأشكال مختلفة من الملابس فارتدوا أفخر الملابس في أجمل لون وحلة.

وأظهرت الدراسة أن الأندلسيين في عصر بني الأحمر مارسوا ألواناً من الرياضات، كان لها أشكالها وقوانينها وأدواتها وضوابطها، وهدفوا من خلالها إلى تسلية أنفسهم وترفيهها، كمـا كانوا يسعون من خلالها لخلق فرسان أقوياء أشداء يقارعون بهم عدوهم ويهزموهم.

ورسمت هذه الدراسة صورة واضحة المعالم لأبرز وأهم التجليات الحضارية في المجتمع الأندلسي في عصر بني الأحمر كما تبدّت في شعرهم، وبينت النواحي التي عبرت عن رقـيهم ورفعتهم، والجوانب التي قدمت صورة مشرقة لرقيهم وتحضرهم.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

- ابن الأبار، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر البلنسي (ت٦٥٨ه)، **ديوان ابن الأبار**، تحقيق عبد السلام الهراس، الدار التونسية، تونس.
- إبراهيم، عبد الرحمن زكي (١٩٧١)، **غرناطة وآثارها الفاتنة**، القاهرة، مصر، المكتبة الثقافية، الهيئة المصرية العامة.
- إبراهيم، رجب عبد الجواد (٢٠٠٢)، **المعجم العربي لأسماء الملابس في ضوء المعاجم والنّصوص الموثّقة من الجاهليّة حتى العصر الحديث**، ط١، القاهرة، مصر، دار الآفاق العربيّة.
- ابن الأحمر، أبو الوليد إسماعيل بن يوسف ، نثير **فرائد الجمان في نظم فحول الزمان**، (تحقيق محمد رضوان الداية)، بيروت، دار الثقافة.
- الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد (١٩٦٨): **صفة المغرب وأرض_السودان ومصر الأندلس**، مطبعة بريل، ليدن.
- الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد (١٩٨٩): **نزهة المشتاق في اختراق_الآفاق**، ط١، ٢م، عالم الكتب، بيروت.
- أمين، أحمد (١٩٥٩)، **ظهر الإسلام**، ط٢، دار النهضة المصرية، القاهرة.
- أنيس، إبراهيم وآخرون (١٩٧٠)، **المعجم الوسيط**، ط٢، دار الفكر، بيروت.
- بروفنسال ليفي (١٩٦٠)، **حضارة العرب في الأندلس**، (ترجمة ذوقان قرقوط)، دار مكتبة الحياة، بيروت.
- بروفنسال ليفي: **تاريخ إسبانيا الإسلامية، من الفتح إلى سقوط الخلافة القرطبية**، (ترجمة إميليو جارثيا جومث)، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.
- ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن عبد الله (١٩٨٥)، **رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، ط٤، (تحقيق علي المنتصر الكتاني)، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- البلّفيقي، أبو البركات، محمد بن محمد ابن الحاج، (١٩٩٦)، **شعر أبي البركات ابن الحاج البلّفيقي**، (عناية عبد الحميد عبد الله الهرامة)، مطبوعات مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، دبي.

- بهجب، منجد مصطفى(١٩٨٨)، **الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة**، الموصل، مديرية دار الكتب.
- بول، لين (١٩٤٧)، **قصة العرب في إسبانيا**، (ترجمة علي الجارم)، دار المعارف، القاهرة.
- ابن البيطار، أبو محمد ضياء الدين عبد الله بن أحمد (١٩٦٠)، **الجامع لمفردات الأدوية والأغذية**، مكتبة المتنبي، بغداد.
- التجيبي، أبو بحر صفوان بن إدريس (١٩٧٠)، **زاد المسافر وغرة محيا الأدب المسافر**، (أعده وعلق عليه عبد القادر محداد)، دار الرائد العربي، بيروت.
- جرار، أيمن يوسف (٢٠٠٧)، **الحركة الشعرية في الأندلس (عصر بني الأحمر)**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة النجاح الوطنية، نابلس.
- جرار، صلاح (١٩٩٩): **ديوان الحمراء، الأشعار العربية المنقوشة في مباني قصر الحمراء وجنة العريف بغرناطة**، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت.
- جرار، صلاح (١٩٩٧): **مصارعة الثيران في الأندلس إبان الحكم الإسلامي**، مجلة التراث العربي، تصدر عن اتحاد الكتاب العرب، عدد(٦٩)، السنة الثامن عشر، تشرين الأول، دمشق.
- جرار، صلاح (١٩٩٦): **رياضة الطبلة في الشعر الأندلسي في عصر بني الأحمر**، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، العدد (٥٠)، السنة العشرون، حزيران، عمان.
- الجزار السرقسطي، يحيى بن محمد الأندلسي (٢٠٠٣)، **ديوان الجزار السرقسطي الأندلسي**، (تحقيق العربي سالم الشريف)، دار شموع الثقافة، ليبيا.
- ابن الجزري، أبو الخير محمد بن محمد (١٩٨٢)، **غاية النهاية في طبقات القرّاء**، ط٣، ٢م، (عُني بنشره ج. برجستر اسر)، دار الكتب العلمية، بيروت.
- الجيوسي، سلمى الخضراء (١٩٩٨)، **الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس**، ط٢، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.
- الحبازي، مشهور عبد الرحمن (١٩٨٣)، **ديوان أبي الحسن بن الجياب**، دراسة وتحقيق، رسالة ماجستيرغير منشورة، الجامعة الأردنية، عمّان.
- ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي (١٩٨٠)، **الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة**، دار الجيل، بيروت.

- الحجي، عبد الرحمن علي (١٩٧٦)، **التاريخ الأندلسي منذ الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة**، ط١، دار القلم، بيروت.
- ابن حزم، علي بن أحمد (٢٠٠٠)، **طوق الحمامة في الألفة والآلاف**، ط١، (قدّم له وضبطه صلاح الدين الهواري)، دار ومكتبة الهلال، بيروت.
- الحسين، عبير عبد الله أمين (٢٠٠٧)، **الشعر الاجتماعي في الأندلس في عصر بني الأحمر**، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان.
- أبو حسين، محمد صبحي (٢٠٠٣)، **صورة المرأة في الأدب الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين**، عالم الكتب الحديث، إربد.
- الحسيني، قاسم (١٩٨٦)، **الشعر الأندلسي في القرن التاسع الهجري: موضوعاته وخصائصه**، ط١، الدار العالمية، بيروت.
- الحمارنة، نشأت (١٩٩٢)، طب العيون في الأندلس، **مجلة دراسات أندلسية**، (العدد٨)، تونس.
- الحموي، ياقوت بن عبد الله (١٩٦٥)، **معجم البلدان**، ٥م، دار الكتاب العربي، بيروت.
- الحميري، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد المنعم (١٩٨٤): **الروض المعطار في خبر الأقطار**، ط٢، (تحقيق إحسان عباس)، مكتبة لبنان، بيروت.
- الحميري، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد المنعم (١٩٣٧): **صفة جزيرة الأندلس**، منتخبة من الروض المعطار في خبر الأقطار، (تحقيق ليفي بروفنسال وإيفارست)، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة.
- أبو حيان، محمد بن يوسف الغرناطي (١٩٦٩)، **ديوان أبي حيان**، (تحقيق أحمد مطلوب وخديجة الحديثي)، مطبعة العاني، بغداد.
- ابن خاتمة الأنصاري، أحمد بن علي (١٩٧١)، **ديوان ابن خاتمة الأنصاري**، (تحقيق محمد رضوان الداية)، دار الفكر، بيروت.
- ابن خاقان، أبي نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي الإشبيلي (١٩٨٩)، **قلائد العقيان ومحاسن الأعيان**، ط١، (تحقيق حسين يوسف خريوش)، مكتبة المنار للطباعة والنشر، عمان.

- الخلادي، عبد القادر(١٩٦٥)، **لمحة تاريخية وأدبية عن الحمامات في المجتمع الأندلسي**، مجلة دعوة الحق، (العدد ٩-١٠)، المغرب، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي (١٩٨٦): **تاريخ ابن خلدون**، ط٣، دار الكتاب اللبناني، بيروت.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي (١٩٨٣): **التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً**، دار الكتاب اللبناني، بيروت.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي (١٩٧٧): **المقدمة**، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.
- ابن خلكان، أحمد بن محمد (١٩٩٤)، **وفيات الأعيان**، ٨م، (تحقيق إحسان عباس)، دار الثقافة، بيروت.
- الداية، محمد رضوان (٢٠٠٠)، **في الأدب الأندلسي**، ط١، دار الفكر، بيروت.
- الدوري، رفاه تقي الدين (١٩٩٩)، **الحياة العلمية والثقافية في غرناطة في عصر بني الأحمر**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة مؤتة، الأردن.
- دوزي، رينهارت (١٩٧١): **المعجم المفصّل بأسماء الملابس عند العرب**، (ترجمة أكرم فاضل)، وزارة الإعلام، مديرية الثقافة العامة، بغداد.
- دوزي، رينهارت (١٩٦٨): **تكملة المعاجم العربية**، مكتبة لبنان، بيروت.
- الدوسري، أحمد ثاني (٢٠٠٤)، **الحياة الاجتماعية في غرناطة في عصر دولة بني الأحمر**، المجمع الثقافي، أبو ظبي.
- الركابي، جودت (١٩٦٦)، **في الأدب الأندلسي**، دار المعارف، القاهرة.
- الزركلي، خير الدين(١٩٨٤)، **الأعلام**، ط٦، ٨م، دار العلم للملايين، بيروت.
- زمامة، عبد القادر (١٩٧٦)، **بنو الأحمر في غرناطة**، مجلة البحث العلمي، مجلد٢٦، السنة الثالثة عشرة، المغرب، الرباط.
- ابن زمرك، محمد بن يوسف الصريحي (١٩٩٧)، **ديوان ابن زمرك الأندلسي**، ط١، (تحقيق محمد توفيق النيفر)، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
- سالم، السيد عبد العزيز (١٩٧٧)، **العمارة الإسلامية في الأندلس وتطورها**، مجلة عالم الفكر، المجلد الثامن، (العدد الأول)، مجلة تصدر عن وزارة الإعلام، الكويت.

- ابن سعيد المغربي، نور الدين أبو الحسن علي بن موسى (١٩٥٣): **المغرب في حلى المغرب**، ط٣، (تحقيق شوقي ضيف)، دار المعارف، القاهرة.
- ابن سهل الإسرائيلي، أبو إسحق إبراهيم بن سهل الإشبيلي (١٩٨٥)، **ديوان ابن سهل الإسرائيلي**، (جمع وتحقيق محمد قوبعة)، الجامعة التونسية، تونس.
- ابن سعيد المغربي، نور الدين أبو الحسن علي بن موسى (١٩٧٠): **الجغرافيا**، (تحقيق إسماعيل العربي)، المكتب التجاري، بيروت.
- السيوطي، جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر الخضيري (١٩٧٩)، **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، ط٢، (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم)، دار الفكر، القاهرة.
- شاك، أدولف فون (١٩٨٥)، **الفن العربي في إسبانيا وصقلية**، (ترجمة الطاهر أحمد مكي)، دار المعارف، القاهرة.
- شبانة، محمد كمال (٢٠٠٤)، **يوسف الأول ابن الأحمر (سلطان غرناطة)**، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.
- الشُشتري، أبو الحسن علي بن عبد الله النميري (١٩٦٠)، **ديوان أبي الحسن الششتري**، (تحقيق علي سامي النشار)، منشأة المعارف، الإسكندرية.
- الشعيري، سناء (٢٠٠٩)، **المرأة في الأندلس**، منشورات مركز دراسات الأندلس وحوار الحضارات، سلسلة المعرفة الأندلسية، (العدد ٣)، مطبعة الأمنية، الرباط.
- الشكعة، مصطفى (١٩٧٢)، **الأدب الأندلسي: موضوعاته وفنونه**، دار النهضة، بيروت.
- الشنتريني، أبو الحسن علي بن بسام (١٩٧٩)، **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، (تحقيق إحسان عباس)، دار الثقافة، بيروت.
- شيخة، جمعة (١٩٩٤): **الفتن والحروب وأثرها في الشعر الأندلسي**، ط١، المطبعة المغاربية، تونس.
- شيخة، جمعة (١٩٩٥): **النقد السياسي والاجتماعي في الشعر الأندلسي**، ديوان القيسي نموذجاً، حوليات الجامعة التونسية، العدد (٣٧)، تونس.
- أبو صالح، وائل (١٩٨٥)، **الجواري في الأندلس**، ط١، دار القلم، رام الله.
- الصفدي، خليل بن أيبك (١٩٩٨): **أعيان العصر وأعوان النصر**، ط١، ٦م، (تحقيق علي أبو زيد وآخرون)، دار الفكر، دمشق.

- الصفدي، خليل بن أيبك (١٩٦٢): **الوافي بالوفيات**، باعتناء هلموت ريتر،(تحقيق مجموعة محققين)، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، بيروت.
- الضبي، أبو جعفر أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة (١٩٦٧)، **بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس**، (تحقيق صلاح الدين الهواري)، دار الكتاب العربي، بيروت.
- ضيف، شوقي (١٩٨٣)، **تاريخ الأدب العربي**، عصر الدول والإمارات في الأندلس، ط٢، دار المعارف، القاهرة.
- الطرابلسي، حسناء بو زويتة (٢٠٠١)، **حياة الشعر في نهاية الأندلس**، ط١، دار محمد علي الحامي، تونس.
- الطوخي، أحمد محمد (١٩٩٧)، **مظاهر الحضارة في الأندلس في عصر بني الأحمر**، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية.
- ظاهر، حمزة (٢٠٠٢)، **صورة المرأة في الشعر الأندلسي في ظل بني الأحمر**، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان.
- عبادي، أحمد مختار (٢٠٠٠)، **صور من حياة الحرب والجهاد في الأندلس**، منشأة المعارف، الإسكندرية.
- العبد اللات، فاطمة (٢٠٠٢م)، **شعر الرثاء في الأندلس في ظل بني الأحمر**، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان.
- عبد النور، جبّور (١٩٤٧)، **الجواري**، دار المعارف، القاهرة.
- العزايزة، سعد (٢٠٠٥)، **شعر النقوش عند ابن زمرك الأندلسي**، مجلة الجامعة الإسلامية، (سلسلة الدراسات الإنسانية)، المجلد الثالث عشر (العدد الثاني)، غزة.
- عفيفي، محمد الصادق (١٩٧٨)، **النقد التطبيقي والموازنات**، مؤسسة الخانجي، القاهرة.
- علي، سلمى سلمان (١٩٨٦)، **المرأة في الشعر الأندلسي عصر الطوائف**، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة المستنصرية، العراق.

عنان، محمد عبدالله (١٩٦١)، **الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال**، مؤسسة الخانجي، القاهرة.

- عنان، محمد عبدالله (١٩٥٨)، **نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين**، مطبعة مصر، القاهرة.

- أبو الفداء، إسماعيل بن علي بن محمود (١٨٤٠)، **تقويم البلدان**، دار الطباعة السلطانية، باريس.
- فرحات، يوسف شكري (١٩٨٢)، **غرناطة في ظل بني الأحمر: دراسة حضارية**، ط١، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت.
- ابن فركون، أبو الحسين بن أحمد (١٩٨٧)، **ديوان ابن فركون**، ط١، (تقديم محمد بن شريفة)، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط.
- ابن فضل الله العمري، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى(٢٠٠١)،**مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، ط١، (تحقيق محمد عبد القادر خريسات ؛ عصام مصطفى عقلة ؛ يوسف أحمد بني ياسين)، مركز زايد للتراث والتاريخ، المجمع الثقافي، أبو ظبي.
- القاسمي، جاسم بن محمد (١٩٩٩)، **تاريخ الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس**، مؤسسة شباب الجامعة، القاهرة.
- ابن القاضي، أبو العباس أحمد بن محمد المكناسي (١٩٧١): **درة الحجال في أسماء الرجال**، (تحقيق محمد الأحمدي أبو النور)، دار التراث، القاهرة.
- ابن القاضي، أبو العباس أحمد بن محمد المكناسي (١٩٧٣): **جذوة الاقتباس**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط.
- القلصادي، أبو الحسن علي بن محمد القرشي (١٩٧٨)، **رحلة القلصادي**، (تحقيق محمد أبو الأجفان)، الشركة التونسية للتوزيع، تونس.
- القلقشندي، أبو العباس علي بن أحمد الفزاري (١٩١٥)، **صبح الأعشى**، المكتبة الخديوية، القاهرة.
- القيسي، عبد الكريم بن محمد الأندلسي (١٩٨٨م)، **ديوان عبد الكريم القيسي**، (تحقيق جمعة شيخة ومحمد عبد الهادي الطرابلسي)، بيت الحكمة، تونس.
- الكتبي، محمد بن شاكر (١٩٧٣)، **فوات الوفيات**، (تحقيق إحسان عباس)، دار صادر، بيروت.
- ابن الخطيب، لسان الدين (١٩٧٣): **ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام**، ط١، (تحقيق محمد الشريف قاهر)، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر.
- ابن الخطيب، لسان الدين (١٩٨٩): **ديوان لسان الدين بن الخطيب**، ط١، (تحقيق محمد مفتاح)، دار الثقافة، الدار البيضاء.

- ابن الخطيب، لسان الدين (١٩٧٨): **اللمحة البدرية في الدولة النصرية، ط٢**، (تحقيق محب الدين الخطيب)، دار الآفاق الجديدة، بيروت.
- ابن الخطيب، لسان الدين، (١٩٧٣): **الإحاطة في أخبار غرناطة**، ط٢، ٤م، (تحقيق محمد عبد الله عنان)، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- ابن الخطيب، لسان الدين (١٩٦٣): **الكتيبة الكامنة في مَنْ لقيناه بالأندلس من شعراء المئة الثامنة**، (تحقيق إحسان عباس)، دار الثقافة، بيروت.
- ابن الخطيب، لسان الدين (١٩٨٣): **مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب، (تحقيق أحمد مختار العبادي)**، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية.
- ابن الخطيب، لسان الدين (١٩٨٩): **نفاضة الجراب في علالة الاغتراب**، (تحقيق أحمد مختار العبادي)، دار الكاتب العربي، القاهرة.
- ابن الخطيب، لسان الدين (١٩٠٧): **معيار الاختبار في ذكر المعاهد والديار**، مطبعة أحمد يمني، فاس.
- لوثينا، لويس سيكودي (١٩٦١)، **وثائق عربية غرناطية من القرن التاسع الهجري**، ط١، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد.
- ابن ليون التجيبي، أبو عثمان سعد بن أحمد بن إبراهيم (٢٠٠١)، **اختصارات من كتاب الفلاحة**، (تحقيق أحمد الظاهري)، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء.
- مؤنس، حسين (١٩٨٥)، **رحلة الأندلس: حديث الفردوس الموعود**، ط٢، الدار السعودية، جدة.
- المتنبي، أبو الطيب أحمد بن الحسين (١٩٨٦)، **ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري**، (ضبطه وصححه مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي)، دار المعرفة، بيروت.
- مجهول (١٩٨٣م)، **ذكر بلاد الأندلس**، (تحقيق لويس مولينا)، مدريد.
- مجهول (١٩٨٤م)، **آخر أيام غرناطة، نبذة العصر في انقضاء دولة بني نصر**، ط١، (تحقيق محمد رضوان الداية)، دار حسان، دمشق.
- مجهول (١٩٦١)، **كتاب الطبيخ في المغرب والأندلس في عهد الموحدين**، صحيفة الدراسات الإسلامية ، المجلدان التاسع والعاشر، مدريد.
- محاسنة، أحمد توفيق محمد (١٩٩٧م)، **الحياة السياسية في دولة بني الأحمر**، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمّان.

- ابن شريفة، محمد (١٩٨٥)، **البسطي آخر شعراء الأندلس**، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
- محمد، سعيد محمد (٢٠٠١)، **دراسات في الأدب الأندلسي**، ط١، جامعة سبها، ليبيا.
- مرزوق، محمد عبد العزيز (١٩٧٠)، **قصر الحمراء**، دار الثقافة، بيروت.
- المشهداني، محمد مولود (١٩٩٠)، **الشعر الاجتماعي في الأندلس من الفتح إلى نهاية عصر الطوائف**، رسالة دكتوراه غير منشورة، الجامعة المستنصرية، بغداد.
- المقري، أحمد بن محمد (٢٠٠٤): **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، (تحقيق إحسان عباس)، دار صادر، بيروت.
- المقري، أحمد بن محمد (١٩٣٩): **أزهار الرياض في أخبار عياض**، (تحقيق مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي)، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة.
- مكي، الطاهر أحمد (١٩٩٣)، **دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة**، ط٤، دار المعارف، القاهرة.
- ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم (٢٠٠٤)، **لسان العرب**، ط٣، دار صادر، بيروت.
- الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد (١٩٥٥)، **مجمع الأمثال**، (تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد)، مكتبة السنة المحمدية، القاهرة.
- نصر، ثريا سيد (١٩٩٨)، **تاريخ أزياء الشعوب**، عالم الكتب، القاهرة.
- النقراط، علي محمد (١٩٩٢)، **ابن الجياب الغرناطي، حياته وشعره**، ط١، الدار الجماهرية، بنغازي.
- النوش، حسن أحمد (١٩٩٢)، **التصوير الفني للحياة الاجتماعية في الشعر الأندلسي**، دار الجيل، بيروت.
- هارون، عبد السلام (١٩٨٩)، **المعجم الوسيط**، المكتبة العلمية، طهران.
- الهرامة، عبد الحميد عبد الله (١٩٩٩)، **القصيدة الأندلسية خلال القرن الثامن الهجري: الظواهر والقضايا والأبنية**، ط٢، دار الكاتب، طرابلس.
- يازجي، سراب (١٩٩٢م)، **الغزل في الشعر الأندلسي في ظل بني الأحمر**، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة دمشق، سوريا.
- يوسف الثالث، أبو الحجاج يوسف بن يوسف الغني بالله (١٩٦٥)، **ديوان ملك غرناطة يوسف الثالث**، ط٢، (تحقيق عبد الله كنون)، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.

CULTURAL MANIFESTATIONS IN THE ANDALUSIAN POETRY IN THE ERA OF BANY AL_ AHMAR

By

Saad bin Mashi bin Aodh Al-Anzi

Supervisor

Dr. Hamdi Mansour

ABSTRACT

This study tagged (manifestations of civilization in the Poetry Andalusian era Bany Al_AAhmar), perhaps the most important Islamic eras that flourished Arab-Islamic civilization, which era Andalusian era spanned nearly two hundred years of rule by Bany Al_AAhmar in Andalusia, tried to study describe the most important aspects and manifestations of civilization that was characterized by that time period as portrayed poets in their poetry as poetry as the heart of the life of nations and peoples, subject manifested habits and traditions and the manner in which they live in, as that the historical record of their achievements.

The study included at the entrance and four chapters and a conclusion, and the entrance talks about the historical perspective on this era, it handled Granada, the capital of the Kingdom of Bany Al_AAhmar in terms of borders and nature and how they have evolved, also addressed aspects of life where political, social, economic, cultural and religious.

The first chapter has dealt with manifestations of civilization in the social life, he spoke about relationships and family ties through image of the Father and of women, whether a pair or a mother, as well as the image of slaves, and touched to talk about ideals and morals, hygiene and bathrooms, and then go to the appearance of a civilized last represent the typically Andalusian in this through age Strutting flowers

The second chapter complement aspects of civilization in the era of Bany Al_Ahmar handled manifestation of civilization in the professions and trades, and talks about the most important industries and professions and trades known to society Granadan as set out in their poetry handled profession butcher, construction and architecture, education and baking, medicine, agriculture, and touched to talk about industries handled textile industry and copying, apparel industry as well as the defense industry, pottery, jewelry, perfumes and glass.

The third chapter singled civilization in architecture, handled construction in this era, whether civil, religious or military, handled palaces, baths, Riyadh and schools, then discussed religious architecture and- talk about building mosques, churches and tombs, and finally Omran Harbi represented in Forts.

The study concluded the fourth quarter, which dealt with cultural manifestations in other areas of society Granadan talked about the foods and beverages, clothing and adornment and perfume, as well as funerals and sports.

The study found that community Granada in this period reached from civilization in the manifestations bit much, it seemed society civilized in various fields of life, have varied degrees of this urbanization by strata of society like that of any human society, find where this disparity in living standards and manifestations by class and social status.

The poetry of this era was as of right what is going on in the orbits of this community in terms of filming and retaining memory era Bany Al_AAhmar civilization, but the study found that this poetry was Mtvetota in his portrayal of the manifestations of which manifested itself in this day and age, whenever approached appearance of civilization from the Executive Mansion or Sultan find poetry thickly serious poets themselves were part of the ruling circle at a time, and the closer of the public find that poetry began decays and virtually inexhaustible.

In conclusion appears this era of Muslim rule in Andalusia civilization par excellence through the blending of aesthetic appearance of civilization in multiple feilds beauty poetry Photos this theme looks beautiful dissolved.